تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد الحادي عشر

دار طوق النجاة

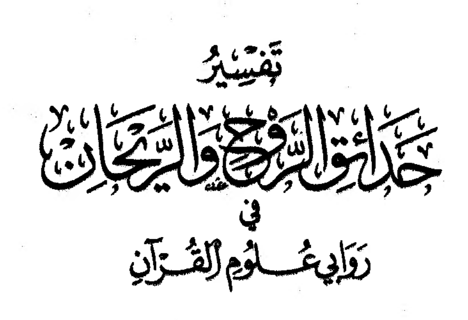
الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان


تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على كماله، والشكر له على نواله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، سيدنا محمد ﷺ وجميع صحبه وحزبه.

أما بعد: فإني لمَّا فرغتُ من تفسير الجزء التاسع من القرآن.. قصدت البداية في تفسير الجزء العاشر منه، وبالله أعتضد، ومن فيضه أستمد، وأقول وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما[1] أمر بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم، وكان ذلك مستتبعاً لأخذ الغنائم منهم.. ناسب أن يذكر ما يرضيه سبحانه وتعالى في قسمة الغنائم على الوجه الذي شرعه.

والجمهور على أنّ هذه الآية نزلت في غزوة بدر، وعلى أنّ ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه سبحانه وتعالىٰ لمّا أمر بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة.. اقتضى ذلك وقائع وحروباً، فذكر بعض أحكام الغنائم، وكان في ذلك تبشيرٌ للمؤمنين بغلبتهم للكفار وقسم ما يحصل منهم من الغنائم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى[3] لمّا ذكر نعمه على رسوله، وعلى المؤمنين يوم بدر.. أردف ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوِّهم:

١ ـ الثبات وتوطين النفس على اللّقاء، مع عدم التواني والتكاسل.

٢ ـ ذكر الله كثيراً، وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم؛ تنبيهاً على أنَّ الإنسان يجب أن لا يخلو قلبه من ذكره في أشد الأوقات حرجاً، وقد طلب إلينا الثبات والطاعة لله ورسوله حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ...﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أمر عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات، ومحاسن الأداب التي تكون سبب الظفر في القتال، ونهاهم عن التنازع.. قفى على ذلك بنهيهم عما كان عليه مشركو قريش حين خرجوا لحماية العير، من البطر والكبرياء، والصد عن سبيل الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لمَّا خرجت قريش من مكة إلى بدر.. خرجوا بالقيان ـ جمع قينة: المرأة المغنية ـ والدفوف فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه الطبراني في «الأوسط» بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة قال: لمَّا أنزل الله على نبيه ﷺ بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، أيُّ جمع؟ وذلك قبل بدر، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريشٌ.. نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتاً بالسيف يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فكانت ليوم بدر، فأنزل فيهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ الآية، وأنزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾، ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية، وملأت أعينهم وأفواهم، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينه وفاه، فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، وأنزل في إبليس: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غرَّ هؤلاء دينهم، فأنزل الله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ أي: أنَّ كلَّ ما غنمتموه من الأموال، وأخذتموه من الكفار المحاربين قهراً، حالة كونه كائناً من شيء، أي: قليلاً كان أو كثيراً، حقيراً كان أو جليلاً، ولكن خصَّص الإجماع من عموم الشيء الأسارى؛ فإن الخيرة فيهم إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؛ أي: فإن خمس ما غنمتموه لله؛ أي: مفوض أمره إلى الله تعالى، يصرف في المواضع التي أمر الصرف إليها، وهي الخمسة المذكورة بعد لفظ الجلالة، والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم والتبرك؛ لأن الدنيا والآخرة كليهما لله تعالى؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وأنَّ المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين عليه، وأمَّا أربعة أخماسها الباقية.. فللغانمين، للفارس منهم ثلاثة أسهم، وللراجل سهمٌ.

والمعنى: واعلموا أيها المؤمنون أن ما غنمتموه من الكفار المحاربين قهراً، حالة كونه من شيء يتمول، ولو قليلاً.. فأربعة أخماسه حقٌّ لكم، وأن خمسه الباقي مصروفٌ لمن جعله الله مستحقاً له، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ...﴾ إلخ؛ أي: يصرف خمس ذلك الخمس؛ أي: يخمس ذلك الخمس، فيصرف خمسه للرسول ﷺ في حال حياته، يصنع فيه ما شاء، أما[1] بعد وفاته ﷺ: يصرف خمس الخمس الذي كان له إلى مصالح المسلمين العامَّة، من سد الثغور، وشراء السلاح، وبناء المساجد والمدارس والقناطر، وطريق الدعوة إلى الله تعالى، وهذا مذهب الشافعي. وقال مالك: الرأي فيه إلى الإمام. وقال أبو حنيفة: سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته ﷺ، وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية اهـ. «بيضاوي».

وخرج بقولنا: قهراً.. ما أخذ منهم من غير قتال، فهو فيء، كالجزية، وعشر التجارة، وتركة المرتد والكافر المعصوم الذي لا وارث له، وحكمه معلوم

---

(١) البيضاوي.

من كتب الفروع.

وظاهر الآية: أن خمس الغنيمة يقسم ستة أقسام، وبه قال أبو العالية وطائفة. ومعنىٰ الآية على هذا القول، أي: واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين... فاجعلوا أولاً خمسه لله تعالى، ينفق فيما يرضيه تعالى من مصالح الدين العامة؛ كالدعوة للإسلام، وإقامة شعائره، وعمارة الكعبة وكسوتها، ثم أعطوا للرسول من كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة، ثم أعطوا منه ذوي القربى الخ. ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: ويصرف خمسٌ لأصحاب قرابة النبي ﷺ، من أهله وعشيرته ـ نسباً وولاءً ـ المسلمين، وقد خصَّ النبي ﷺ ذلك ببني هاشم وبني أخيه المطلب، دون بني عبد شمس ونوفل، سواءٌ فيه أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، روىٰ البخاري عن مطعم بن جبير ـ من بني نوفل ـ قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان ـ من بني عبد شمس ـ إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما بنوا المطلب وبنو هاشم شيءٌ واحدٌ» وسر هذا: أنَّ قريشاً لمّا كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة وحصرتهم في الشعب لحمايتهم له ﷺ.. دخل معهم فيه بنو المطلب، ولم يدخل بنو عبد شمس، ولا بنو نوفل، مع ما كان من عداوة بني أمية بن عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام، فقد ظلَّ أبو سفيان يقاتل النبيَّ ﷺ، ويؤلِّبُ عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله، ودانت له العرب بفتح مكة، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي وقاتله.

﴿و﴾ خمس يصرف إلى ﴿اليتامىٰ﴾ الفقراء من سائر المسلمين، غير يتامى بني هاشم وبني المطلب، وهم: أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم ﴿و﴾ خمسٌ يصرف لـ ﴿المساكين﴾؛ أي: ذوي الحاجة من المسلمين، من غير بني هاشم وبني المطلب ﴿و﴾ خمس يصرف لـ ﴿ابن السبيل﴾؛ أي: المنقطع في سفره ـ المحتاج، ولا معصية بسفره ـ من المسلمين.

والحكمة في تقسيم الخمس علىٰ هذا النحو: أن الدولة التي تدير سياسة

الأمة لا بدَّ لها من المال؛ لتستعين به على القيام بالمصالح العامة، كشعائر الدين، والدفاع عن الأمة، وهو ما جعل لله في هذه الآية، ثم نفقة رئيس حكومتها، وهو سهم الرسول فيها، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته، وهو سهم ذوي القربى، ثم ما يكون لذوي الحاجات من ضعفاء الأمة، وهم الباقون.

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولاً به في كثير من الدول مع اختلاف شؤون الاجتماع والمصالح العامة، فالمال الذي يرصد للمصالح العامة يدخل في موازين الوزارات المختلفة، ما بين جهرية وسرية، ولا سيما الأمور الحربية، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك، أو رئيس جمهورية، منه ما هو خاصٌّ بشخصه، ومنه لأسرته وعياله، ومن موازين الدولة: ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما.

وكذلك اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، لا تجعل لهم الدول في هذا العصر حقاً في أموال الدولة، وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التي تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين في وقت الحاجة فحسب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مفتاح كلام؛ أي: إنه ذكر على سبيل التبرك، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه؛ لأنه هو الحاكم فيه، فيقسمه كيف شاء، وليس المراد منه أنَّ لله سهماً مفرداً؛ لأن ما في السموات والأرض.. فهو لله، وبهذا قال الحسن، وقتادة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، فقالوا: سهم الله وسهم رسوله واحدٌ، وذكر الله للتعظيم، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور، وهو الراجح كما مرَّ، وكأنَّ التركيب حينئذٍ: واعلموا أنَّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله وللرسول خمساً واحداً من أخماس خمسه، ولذي القربى خمساً واحداً منها، ولليتامى خمساً واحداً منها، وللمساكين خمساً واحداً منها، ولابن السبيل خمساً واحداً منها.

فصل

واختلف العلماء[1]: هل الغنيمة والفيء اسمان لمسمًّى واحد أم يختلفان في التسمية؟.

فقال عطاء بن السائب: الغنيمة: ما ظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوةً، وأما الأرض فهي فيءٌ. وقال سفيان الثوري: الغنيمة: ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوةً بقتال، وفيه الخمس، وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة، والفيء: ما صولحوا عليه بغير قتال، وليس فيه خمس، فهو لمن سمَّىٰ اللّٰهُ. وقيل: الغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار عنوةً عن قهر وغلبة، والفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركابٍ؛ كالعشور، والجزية، وأموال الصلح، والمهادنة، وقيل: إن الفيء والغنيمة معناهما واحدٌ، وهما اسمان لشيء واحد.

والصحيح: أنهما يختلفان، فالفيء: ما أخذ من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، والغنيمة: ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه أو ركاب. فذكر الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية حكم الغنيمة، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾، يعني: من أي شيء كان، حتى الخيط والمخيط، فإنَّ لله وللرسول خمسه، وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإنّما أضافه لنفسه تعالىٰ لأنّه هو الحاكم فيه، فيقسمه كيف شاء، وليس المراد منه أنَّ سهماً منه لله مفرداً، لأنَّ الدنيا والآخرة كلها لله تعالىٰ كما مرَّ.

ورویٰ الجعفي عن هارون عن أبي عمرو[2]: ﴿فإنّ لله﴾ بكسر الهمزة، وحكاها ابن عطية عن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، ويقوِّي هذه القراءة قراءة النخعي: ﴿فلِلَّهِ خُمُسُه﴾. وقرأ الحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿خُمْسَه﴾

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

بسكون الميم، وقرأ النخعي: ﴿خِمْسَه﴾ بكسر الخاء على الإتباع، يعني: إتباع حركة الخاء لحركة ما قبلها، كقراءة من قرأ: ﴿والسماءِ ذاتِ الحِبك﴾ بكسر الحاء إتباعاً لحركة التاء، ولم يعتد بالساكن؛ لأنّه حاجز غير حصين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وصدّقتم وحدانيته، شرطٌ جوابه محذوف، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ معطوف على الجلالة؛ أي: وآمنتم بالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمدٍ ﷺ، وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي ﷺ، والذي أنزله على عبده محمدٍ ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية، وقيل: المراد ما أنزله عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذٍ، قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ متعلّق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ والمراد بيوم الفرقان: يوم بدر، سمي به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى فرَّق فيه بين الحق بنصره والباطل بخذلانه؛ لأنه حكم فيه بالنصرة والغنيمة للنبي ﷺ وأصحابه، والقتل والهزيمة لأبي جهل وأصحابه. وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بدل من يوم الفرقان؛ أي: يوم التقىٰ وتقاتل فيه والتحم جمع المؤمنين وجمع الكافرين، وهو يوم بدر، وهو[1] أول مشهد شهده رسولُ الله ﷺ، وكان رئيس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة، أو لسبع عشرة خلت من رمضان، في السنة الثانية من الهجرة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسع مئة، فهَزم المشركين، وقَتل منهم زيادةً على سبعين، وأَسر منهم مثل ذلك.

والمعنى: إن كنتم أيها المؤمنون أمنتم بالله، وبما أنزل علىٰ عبده محمد ﷺ في يوم بدر، الذي هو يومٌ فرَّق الله فيه بين الحق والباطل، ويوم التقىٰ واقتتل فيه جمع المسلمين وجمع الكافرين؛ أي: إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان وقبول.. فاعلموا أن خمس الغنيمة مصروفٌ إلى هذه المصارف الخمسة، واقطعوا أطماعكم عنه، واقنعوا بالأخماس الأربعة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، لا

---

(١) الخازن.

يعجزه شيء، ومن قدرته: أن نصركم على قلتكم، وجوعكم، وضعفكم، وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر، وأيَّد رسوله وأنجز وعده له.

وقرأ زيد بن عليّ[1]: ﴿على عُبُدِنا﴾ بضمتين، كقراءة من قرأ: ﴿وعُبُد الطاغوت﴾ بضمتين، و﴿عَبْدنا﴾ علىٰ قراءة الجمهور هو الرسول ﷺ، كما مرَّ بيانه، و﴿عُبُدِنا﴾ علىٰ هذه القراءة هو الرسول ومن معه من المؤمنين.

و﴿إذ﴾ في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم﴾: بدل من يوم الفرقان؛ أي: إن كنتم آمنتم بما أنزلنا على عبدنا ذلك اليوم، في الوقت الذي أنتم كائنون مستقرون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: بالجانب القريب إلىٰ المدينة من ذلك الوادي، يعني: وادي بدر ﴿وَهُم﴾؛ أي: أعداؤكم المشركون نازلون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾؛ أي: بالجانب البعيد من المدينة من ذلك الوادي.

والعدوة ـ مثلثة العين ـ جانب الوادي. والدنيا: ـ مؤنث الأدنى ـ وهو الأقرب. والقصوى: ـ مؤنث الأقصى ـ وهو الأبعد، كما سيأتي في مبحث التصريف.

والمعنى[2]: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا علىٰ عبدنا في ذلك اليوم، في الوقت الذي كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادي إلى المدينة، وفيه نزل المطر لا في غيره، والأعداء في الجانب الأبعد عنها، ولا ماء فيه، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام، ويجوز أن يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوفاً، تقديره: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم، إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأدنىٰ من المدينة، وهم ـ أي المشركون ـ نازلون بشفير الوادي الأقصىٰ من المدينة مما يلي مكة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ أي: والحال أن العير التي خرج المسلمون للقائها التي يقودها أبو سفيان وأصحابه قادماً بها من الشام بطعام.. كائنون

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بمكانٍ أسفل منكم على ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة على القتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾؛ أي: لخالف بعضكم بعضاً في الميعاد؛ هيبةً منهم؛ لكثرتهم وقلتكم؛ أي: ولو أعلم كل منكم الآخر بالخروج للقتال.. لاختلفتم في الميعاد؛ أي: لتخلفتم عن الميعاد؛ أي: المواعدة؛ أي: التواعد، بمعنىٰ: أنكم لم توفوا بما أعلمتم به، بل تتخلفون عن الخروج.

والمعنى[1]: أي ولو تواعدتم أنتم وهم علىٰ القتال، وعلمتم مالهم ومالكم.. لاختلفتم في الميعاد؛ كراهةً للحرب لقلَّتكم، وعدم إعداد العُدَّة لها، وانحصار همكم في العير، ويأساً من الظفر بها، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال؛ لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكباراً وعناداً، لا اعتقاداً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين في[2]: ﴿العِدْوة﴾ في الموضعين، وباقي السبعة بالضم. وقرأ الحسن وقتادة وزيد بن علي وعمرو بن عبيد بالفتح، وأنكر أبو عمرو الضم، وقال الأخفش: لم يسمع من العرب إلا الكسر. وقال أبو عبيد: الضم أكثرهما. وقال اليزيديُّ: الكسر لغة الحجاز. انتهى. وقرىء: ﴿بالعِدْية﴾ بقلب الواو ياء؛ لكسرة العين، ولم يعتدوا بالساكن؛ لأنه حاجز غير حصين. وقرأ زيد بن علي: ﴿القصيا﴾ وقد ذكرنا أنه القياس، وذلك لغة تميم.

وقرأ زيد بن علي: ﴿أسفلُ﴾ بالرفع، اتسع في الظرف فجعله نفس المبتدأ مجازاً.

فائدة لطيفة: قال الزمخشري: فإن قلتَ[3]: ما فائدة هذا التوقيت، وذكر مراكز الفريقين، وأن العير كانت أسفل منهم؟

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الكشاف.

قلتُ: الفائدة فيه: الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين وشتات أمرهم، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله تعالىٰ، ودليلٌ على أنَّ ذلك أمر لم يتيسَّر إلا بحوله سبحانه وتعالىٰ وقُوَّته، وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوىٰ التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا، وهي غبار تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشىٰ فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، وكانت الحماة دونها تضاعف حميتهم، وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم؛ ليبعثهم الذب عن الحرم والغيرة على الحرم على بذل تجهيداتهم في القتال، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالإنحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط هممهم، ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم، ولا يخلوا مراكزهم، ويبذلوا منتهى نجدتهم، وقصارى شدتهم، وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر. انتهىٰ، وهو كلام حسن.

﴿وَلَٰكِن﴾ جمع الله تعالى بينكم وبينهم على هذه الحال بغير ميعاد؛ ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾؛ أي: ليمضي الله سبحانه وتعالى ويوجد أمراً وشأناً كان مفعولاً في سابق علمه،وهو النصرة والغنيمة للنبيِّ وأصحابه، والهزيمة والقتل لأبي جهل وأصحابه، ويكون استيلاء المؤمنين على المشركين معجزةً دالةً على صدق الرسول ﷺ.

أي[1]: ولكن تلاقيتم واقتتلتم على غير موعد ولا رغبةٍ في القتال؛ ليقضي الله سبحانه ويظهر لكم أمراً وشيئاً كان وسبق في علمه وحكمته أنه واقع لا محالة، وهو القتال المفضي إلى خزيهم، ونصركم عليهم، وصدق وعده لرسوله، وإظهار دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها، ولم يكن في ظن

---

(١) المراغي.

الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة.

واللام في ﴿لِّيَقْضِيَ﴾ متعلقة بمحذوف، كما قدَّرنا آنفاً بقولنا: ولكن جمعهم ليقضي. وجملة قوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة﴾: بدلٌ من الجملة التي قبلها، أعني: ليقضي؛ أي: جمع الله بينكم؛ ليموت من مات عن بينةٍ رآها، وعبرةٍ عاينها، وحجةٍ قامت عليه، ويعيش من عاش عن بينة رآها، وعبرة شاهدها، وحجة عليه؛ لئلا يكون له حجةٌ ومعذرةٌ. وقيل: الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام؛ أي: ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح ويقين بأنه دين الحق، ويصدر كفر من كفر عن وضوح وبينة، لا عن مخالجة شبهةٍ. وقال قتادة: ليضل من ضلَّ عن بينة، ويهتدي من اهتدى على بينة، وفي «الفتوحات»: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾[1]؛ أي: يدوم على الهلاك؛ أي: الكفر ﴿وَيَحْيَىٰ﴾؛ أي: يدوم على الحياة، أي: الإيمان. انتهىٰ.

والخلاصة: فعل ذلك بكم؛ ليترتب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من الكفار من هلك عن حجةٍ بينةٍ، واضحةٍ، مشاهدةٍ بالبصر على حقية الإسلام، بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين، بحيث تنتفي الشبهة، ولا يكون هناك مجالٌ للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها، فيزداد يقيناً بالإيمان، ونشاطاً في الأعمال.

وقرأ الأعمش، وعصمة عن أبي بكر عن عاصم[2]: ﴿ليهلَك﴾ بفتح اللام. وقرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبزيّ وأبو بكر: ﴿مَنْ حَيِيَ﴾ بيائين على الأصل. وقرأ الباقون بياء واحدة علىٰ الإدغام، وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف، والفك والإدغام لغتان مشهورتان.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَسَمِيعٌ﴾ بكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفرهم وإيمانهم، لا يخفى عليه شيء من أقوال الكافرين والمؤمنين، ولا من عقائدهم وأفعالهم، فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

الصادرة عن عقيدة، والأعذار التي يعتذر بها عن تقصيره في أعماله، ويعلم ما يكنُّه من ذلك ومن غيره، ويجازي كلاً بحسب ما يسمع ويعلم.

والخلاصة:[1] أنَّ غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم - كما بشرهم النبي ﷺ - وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم - كما أنذرهم الرسول ﷺ - ولا مجال في ذلك للمكابرة والتأويل.

وختم بهاتين الصفتين؛ لأنَّ الكفر والإيمان يستلزمان النطق باللسان، والاعتقاد بالجَنَانِ، فهو سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد نعمة الله عليك؛ إذ يريك المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾؛ أي: في نومك قبل يوم بدر ﴿قَلِيلًا﴾ عددهم مع كثرتهم، وقال أبو حيان: والمراد بالقلة هنا قلة القدر واليأس والنجدة، وأنهم مهزومون مصروعون، ولا يحمل على قلة العدد؛ لأنَّه ﷺ رؤياه حقٌّ، وقد كان علم أنهم ما بين تسع مئة إلى ألف، فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد. انتهى.

قال مجاهد[2]: أراهم الله في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، وكان ذلك تثبيتاً. وقال محمد بن إسحاق: فكان ما أراه الله من ذلك نعمةً من نعمه عليهم، يشجعهم بها على عدوهم، فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم.

وقيل: لما أُري النبيُّ ﷺ كفارَ قريش في منامه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه.. قالوا: رؤيا النبي ﷺ حق، فصار ذلك سبباً لجرائتهم على عدوهم، وقوةً لقلوبهم. وقال الحسن: إن هذه الإراءة كانت في اليقظة، والمراد من المنام: العين؛ لأنّها موضع النوم. قال الزجاج: هذا مذهب حسن، ولكن الأول أسوغ في العربية؛ لقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ...﴾ إلخ، فدل بهذا على أنَّ هذه رؤية الالتقاءة واليقظة، وأن تلك رؤية النوم.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

وقيل: الظرف في ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾: متعلق بـ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ المذكورين قبله، والمعنى[1]: حينئذٍ: إنَّ الله سبحانه وتعالى سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرونه، إذ يريك الله عدد عدوك وعدوهم قليلاً في الرؤيا المنامية، فتخبر بها المؤمنين، وتطمئن قلوبهم، وتقوي آمالهم بالنصر، فيجترئون عليهم.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ﴾؛ أي: ولو أراك يا محمد المشركين في منامك ﴿كَثِيرًا﴾ عددهم، وذكرت ذلك لأصحابك.. ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾، أي: لجبنتم، ولتأخرتم عن حربهم وقتالهم؛ أي: لو أراكهم كثيراً.. لذكرته لأصحابك، ولو سمعوا ذلك.. لجبنوا ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ معطوف على ما قبله عطف سبب على مسبب، وسيذكر مقدماً في قوله الآتي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾؛ أي: ولاختلفتم في أمر القتال، ولتفرقت آراؤكم في الفرار والثبات. وانظر إلى محاسن القرآن، فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ؛ لأنه معصوم، بل قال: ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارةً إلى أصحابه؛ أي:[2] ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً.. لفشل أصحابك وخافوا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء في أمر القتال؛ إذ منهم القوي الإيمان والعزيمة، فيطيع الله ورسوله ويقاتل، ومنهم الضعيف الذي يثبط عن القتال، بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول ﷺ، كما تقدم في قوله: ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾.

وعبارة «الخازن» هنا قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يعني: اختلفتم في أمر الإقدام عليهم، أو الإحجام عنهم، وقيل: معنى التنازع في الأمر: الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد إلى ناحية، والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم. انتهت.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَلَّمَ﴾؛ أي: سلمكم، وحفظكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم، وقيل: معناه: ولكن الله تعالى سلمكم وعصمكم

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

من الفشل والتنازع، وتفرق الآراء، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان والهزيمة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بالخطرات التي تقع في القلوب من الصبر والجزع والجراءة والجبن، ولذلك دبر ما دبر.

والمعنى: أنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فيحجم عن القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث في النفس الطمأنينة والصبر فيحملها على الإقدام، ويسخر لكل منهما الأسباب التي تفضي إلى ما يريده منها.

والخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾.. للرسول ﷺ وللمؤمنين جميعاً، وأرى: بصرية يقظانية، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا يا معشر المؤمنين نعمة الله تعالى عليكم؛ إذ يبصركم الكفار وقت التقائكم وتقابلكم في المعركة ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: أراكم إياهم حالة كونهم قليلاً في أعينكم ونظركم، حتى قال قائلٌ من المسلمين لآخر: أتراهم سبعين؟ قال: هم نحو المئة، وهم في نفس الأمر ألفٌ، تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، ولتزداد جراءة المؤمنين عليهم. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾؛ أي: في أعين الكفار ونظرهم؛ أي: يريهم إياكم قليلاً في أعينهم ونظرهم، حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب محمد آكلة جزور؛ أي: قليلٌ، يشبعهم. جزور واحدٌ، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال، وقلل الله المؤمنين في أعين المشركين قبل التحام الحرب؛ لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سبباً لانكسارهم، ولأنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على القتال غير خائفين، فلما التحم القتال.. أرى الكفار المسلمين مثلي الكفار، وكانوا ألفاً، فرأوا المسلمين قدر ألفين؛ ليهابوا، وتضعف قلوبهم وشوكتهم، ويتمكن المسلمون منهم، وتكون الدائرة عليهم.

واللام في قوله: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ متعلقةٌ بمحذوف، تقديره: فعل بكم وبهم ذلك التقليل؛ ليظهر الله سبحانه وتعالى أمراً كان مقضياً في سابق علمه، من إعلاء كلمة الإسلام، ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك، وخذلان أهله.

والخلاصة[1]: أنّ الله سبحانه وتعالى فعل ذلك؛ ليقدم كل منكم ومنهم على قتال الآخر، فهذا واثق بنفسه مدل ببأسه، وهذا متكل على ربه واثق بوعده، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم؛ ليقضي بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، ومن ثم هيَّأ الأسباب وقدرها تقديراً.

فإن قلت[2]: قد قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وقال في هذه الآية: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، فما فائدة هذا التكرار؟

قلتُ: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة؛ ليحصل استيلاء المسلمين على المشركين على وجه القهر والغلبة؛ ليكون ذلك معجزةً دالة على صدق رسول الله ﷺ، والمقصود من ذكره في هذه الآية: أنَّ الله سبحانه وتعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضاً؛ للحكمة التي قضاها، فلذلك قال: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: ترد ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ كلها، يفعل فيها ما يريد، ويقضي في شأنها ما يشاء، ولا تجري على ما يظنه العبيد. وقرىء بالبناء للفاعل، أي: تصير وترجع وتعود إلى الله تعالى في الآخرة، فيجازي كل عامل على قدر عمله، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو يغفر.

فائدة: فإن قيل[3]: ما فائدة تكرار الرؤية ها هنا، وقد ذكرت في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟

قلتُ: يجاب عنه بجوابين:

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) زاد المسير.

أحدهما: أنَّ الأولى كانت في المنام، والثانية في اليقظة، فلا تكرار.

والثاني: أنَّ الأولى للنبي ﷺ خاصةً، والثانية له ولأصحابه.

فإن قيل: تكثير المؤمنين في أعين الكافرين أولى من تقليلهم لمكان إعزازهم؟

قلتُ: يجاب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنهم لو كثروا في أعينهم.. لم يقدموا عليهم، فلم يكن قتال. والقتال سبب النصر، فقللهم لذلك.

والثاني: أنه قللهم؛ لئلا يتأهب المشركون كل التأهب؛ فإذا تحقق القتال.. وجدهم المسلمون غير مستعدين، فظفروا بهم.

والثالث: أنه قللهم؛ ليحمل الأعداء عليهم في كثرتهم فيغلبهم المسلمون، فيكون ذلك آيةً للمشركين، ومنبِّهاً على نصرة الحق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: إذا قابلتم جماعة كافرة وحاربتموها. وترك[1] وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء اسم غالب للقتال ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالهم وجدوا في المحاربة، ولا تنهزموا إذا لم يزيدوا على الضعف، بأن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله، ولا يحدثوها بالتولي ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى بالقلب واللسان في أثناء القتال ذكرا ﴿كثيرا﴾ ومن الذكر ما يقع حال القتال من التكبير.

والمعنى[2]: كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم. أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال، وذلك عند لقاء العدو وقتاله. وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله تعالى، وقيل: المراد من هذا الذكر: هو الدعاء على العدوِّ، وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى، فأمر الله سبحانه

---

(١) النسفي.   (٢) الخازن.

وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء.

والخلاصة: أنكم إذا لقيتم[1] أعداءكم الكفار.. فاثبتوا لهم، ولا تفروا أمامهم؛ فإن الثبات قوة معنوية طالما كان هو السبب في النصر والغلب بين الأفراد والجيوش.

انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان، فيعيا كل منهما وتضعف قوته، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعاً، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة، فيكون له الفَلْجُ والفوز على خصمه، وهكذا في الحروب، فإن من أهم أسباب النصر فيها: الثبات وعدم اليأس، بل الثبات نافع في كل أعمال البشر، فهو الوسيلة في الفوز والنجاح فيها.

وأكثروا من ذكر الله تعالى في أثناء القتال بقلوبكم: بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين، ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه، وبأن النصر بيده ومن عنده، يؤتيه من يشاء، وبألسنتكم: بالتكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والاستغفار، وبالدعاء على الأعداء بنحو قولكم: اللهم أخذلهم واقطع دابرهم واجعل الدائرة عليهم، والتضرع إليه مع اليقين بأنه لا يعجزه شيء.

وفي ذلك إيماءٌ إلى أنه يجب على العبد أن لا يفتر عن ذكر الله تعالى، أكثر ما يكون همًّا وأشغل ما يكون قلباً، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لكي تظفروا بمرادكم من النصرة والمثوبة؛ فإن الثبات وذكر الله تعالى هما وسيلتان من وسائل الفوز في القتال في الدنيا، وفي نيل الثواب في الآخرة.

فإن قلت[2]: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال، وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز؟

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

قلتُ: المراد من الثبات هو: الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة، وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة، بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح في القتال وفي غيره، ﴿و﴾ أطيعوا ﴿رسوله﴾ ﷺ كذلك، فهو المبين لكلام ربه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، وهو القائد الأعظم في القتال، فطاعته هي جماع النظام، والنظام ركن من أركان الظفر، وهو المشاور لكم في الرأي والتدبير والاستشارة في الأمور. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا﴾؛ أي: ولا تختلفوا في أمر القتال كما فعلتم في أحد ﴿فَتَفْشَلُوا﴾؛ أي: فتجبنوا عن القتال؛ فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: شدتكم وقوتكم ودولتكم. وقرأ أبو حيوة وأبان وعصمة عن عاصم: ﴿ويذهب﴾ بالياء ونصب الباء، وقرأ الحسن وإبراهيم: ﴿فتفشِلوا﴾ بكسر الشين. قال أبو حاتم: وهذا غير معروف. وقال غيره: هي لغة؛ أي: لا يكن منكم تنازعٌ واختلافٌ؛ فإن ذلك مدعاةٌ للفشل والخيبة وذهاب القوة فيتغلب عليكم العدو.

وأصل الريح[1]: الهواء المتحرك، ثم استعيرت للقوة والغلبة؛ لأنه لا يوجد في الأجسام ما هو أقوى منها، فهي تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع، ومن ثم يقال: هبت رياح فلان: إذا جرى أمره على ما يريد، كما يقال: ركدت رياحه: إذا ضعف أمره. ومن استعارة[2] الريح للدولة والقوة قول الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُوْنَا

وقال شاعر الأنصار:

قَدْ عَوَّدَتْهُمْ صَبَاهُمْ أَنْ يَكُوْنَ لَهُم ... رِيحُ الْقِتَالِ وَأَسْلَابُ الَّذِيْنَ لَقُوْا

وقيل: المراد بالريح: ريح الصبا؛ لأن بها كان ينصر النبي ﷺ، كما يدل

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

عليه قوله ﷺ: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور» وعن النعمان بن مقرِّن قال: (شهدت رسول الله ﷺ، فكان إذا لم يقاتل من أول النهار.. أخر القتال حتى تزول الشمس، وتهب الرياح، وينزل النصر) أخرجه أبو داود.

ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم بأن الله مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه، فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة، وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ أنَّ رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس.. قام فيهم، فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وأسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مُنْزِلَ الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم» متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا» متفق عليه.

والمعنى: واصبروا على الشدائد، وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده، وكثرة عدده، فالله مع الصابرين، يمدهم بمعونته وتأييده، ومن كان الله معيناً له.. فلا يغلبه غالبٌ، ويا حبَّذا هذه المعية، التي لا يغلب من رزقها غالبٌ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرةً.

ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس، وهم قريش، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في الاستكبار والفخر ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ مكة، لحماية العير، حالة كونهم ﴿بَطَرًا﴾؛ أي: بطرين، فرحين مرحين، أشد البطر والفرح، أو خرجوا لأجل البطر والفرح، والبطر: شدة الفرح، أو الطغيان، أو كفران النعم، ﴿و﴾ حالة كونهم ﴿رئاء الناس﴾؛ أي: مرائين الناس، أو لأجل الرياء، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان، ومعهم القيان والمعازف، فلما بلغوا الجحفة.. أتاهم رسول أبي سفيان، وقال: ارجعوا إلى مكة؛ فقد سلمت عيركم، فأبوا إلا إظهار الجلادة والقوة

والشجاعة، وأيضاً لما وردوا الجحفة.. بعث الخفاف الكناني إلى أبي جهل - وهو صديق له - بهدايا مع ابن له، فلما أتاه.. قال: إنَّ أبي يقول: إن شئت أن أمدك بالرجال.. أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي.. فعلت. فقال أبو جهل: قل لأبيك: جزاك الله خيراً، إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد... فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس.. فوالله إن بنا على الناس لقوةً، والله ما نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً، فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، وننحر الجزور في بدر، فيثني الناس علينا بالشجاعة والسماحة، وقد بدَّلَهم الله شرب الخمر بشرب كأس الموت، وبدل ضرب الجواري على نحو الدفوف بنوح النائحات، وبدل نحر الجزور بنحر رقابهم؛ حيث قتل منهم سبعون، وأسر سبعون.

واعلم: أنَّ النِّعم إذا كثرت من الله تعالىٰ على العبد، فإن صرفها إلى مرضاته تعالى وعرف أنها من الله تعالى.. فذاك هو الشكر، وإن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمغالبة بالكثرة على أهل الزمان.. فذاك هو البطر. والرياء: إظهار الجميل ليراه الناس، مع إبطان القبيح. والفرق بين الرياء والنفاق: أن النفاق: إظهار الإيمان مع إبطان الكفر، والرياء: إظهار الطاعة مع إبطان المعصية.

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تمتثلوا ما أمرتم به، وتنتهوا عمَّا نهيتهم عنه، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن اتي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوةٍ ونعم لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة. وظاهر النظم الكريم أن قوله: ﴿بَطَرًا﴾ متعلق بخرجوا، وهو لا يوافق الواقع؛ لأن خروجهم كان لغرضٍ مهم، وهو المنع عن عيرهم، والحقُّ: أن يكون علة لمعلول محذوف، تقديره: خرجوا من ديارهم ليمنعوا عيرهم، ولم يرجعوا بعد نجاتها بطراً، فهو علة لهذا المقدر، وهو قولنا: لم يرجعوا، وعلة الخروج: منعهم عن عيرهم كما قدرنا، كما ذكره في «الفتوحات».

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله، بمعاداة النبيِّ ﷺ والمؤمنين، معطوفٌ على ﴿بَطَرًا﴾ على كلا التأويلين.

والمعنى: ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرين مرائين، صادين عن سبيل الله، أو خرجوا للبطر والرياء والصدّ عن سبيل الله تعالى. والصد: إضلال الناس، والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية، ويجوز أن يكون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفاً على ﴿خَرَجُواْ﴾ والمعنى: يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصدِّ عن سبيل الله.

وإنّما ذكر البطر والرياء بصيغة الاسم، والصد بصيغة الفعل؛ لأنَّ أبا جهل ورهطه كانوا مجبولين على المفاخرة والرياء، وأما صدهم عن سبيل الله.. فإنّما حصل في الزمان الذي ادَّعىٰ فيه النبيُّ ﷺ النبوة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ بعلمه؛ أي: عالم بما جاؤوا لأجله؛ أي: إنَّه تعالى عالم بجميع الأشياء، ظواهرها وبواطنها، لا يخفى عن علمه شيءٌ؛ لأنّه محيط بأعمال العباد كلِّها، فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين.

وفي هذا زجر شديد، وتهديد أكيد على الرياء والتصنع والبطر والكبرياء، وأنه سيجازي عليها أشد الجزاء ﴿و﴾ اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم ﴿إذ زين﴾ وحسن ﴿لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المشركين ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: إبليس بوسوسته ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الخبيثة، في معاداة النبي ﷺ والمؤمنين، وخروجهم من مكة، فإنَّ المشركين حين أرادوا السير والخروج إلى بدر.. خافوا من بني بكر بن كنانة؛ لأنهم كانوا قتلوا منهم رجلاً واحداً قبل ذلك، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتصوَّر لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك بن جعشم ـ وهو من بني بكر بن كنانة، وكان من أشرافهم ـ في جندٍ من الشياطين، ومعه رايةٌ. ﴿وَقَالَ﴾ إبليس للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: لا غالب عليكم اليوم من بني كنانة ومن محمد ﷺ وأصحابه؛ أي: وقال لهم بما ألقاه في قلوبهم، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون قربات، حتى قالوا: اللهم انصر إحدى الفئتين، وأفضل الدينين.

﴿و﴾ قال لهم: ﴿إني جار لكم﴾؛ أي: حافظكم من مضرتهم وناصركم عليهم، ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ والتقى الجمعان ـ جمع المسلمين وجمع الكافرين ـ بحيث ترى كل فئة الأخرى، أي: فلمَّا قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن تصطلي نار القتال معه، ورأى إبليس نزول الملائكة من السماء.. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجع إبليس إلى خلفه هاربا: أي: رجع القهقرىٰ وتولى إلى الوراء، وهي الجهة التي فيها العقبان، والمراد: أنَّه كفَّ عن تزيينه لهم وتغريره بهم، وكان إبليس في صف المشركين، وهو آخذٌ بيد الحارث بن هشام ﴿و﴾ قال له الحارث: إلى أين تترك نصرتنا يا سراقة في هذه الحالة، أما تزعم أنك جار لنا، وجعل الحارث يمسكه. ﴿قال﴾ إبليس: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾؛ أي: إني بريء من جواركم وحفظكم ونصركم والذب عنكم، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾؛ أي: لأني أبصر ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ أي: ما لا تبصرون من نزول الملائكة مع جبريل، وإني أرى جبريل بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقود الفرس، ولم تروه، ودفع إبليس في صدر الحارث وانطلق وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكني بتسليط الملائكة عليَّ، وانهزم المشركون. فلمَّا قدموا مكة.. قالوا: هزم الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا وكذا، فحلف لهم، فلما أسلموا.. علموا أنَّ ذلك كان شيطاناً. وقيل: لما رأى إبليس الملائكة ينزلون من السماء.. خاف أن يكون الوقت الذي أنظر إليه قد حضر، فقال ما قال؛ إشفاقاً على نفسه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عاداه وعادى أولياءه، قاله الشيطان بسطاً لعذره حينئذٍ، فهو تعليل لما قبله؛ أي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ لأنه شديد العقاب، أو مستأنف من محض كلامه تعالىٰ؛ تهديداً لإبليس وجنده.

وقال قتادة[1]: قال إبليس: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وصدق. وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب، ما به مخافة الله. ولكن إنه لا قوة له ولا منعة، فأوردهم

---

(١) الخازن.

وأسلمهم، وتلك عادة عدو الله إبليس لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل. . . أسلمهم وتبرأ منهم. وقيل: إنه خاف أن يهلك فيمن هلك، وقيل: خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله، فلا يطيعوه. وقيل: معنىٰ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾: أعلم صدق وعده لأوليائه؛ لأنه كان على ثقة من أمر ربه.

فإن قلت[1]: كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر، وإذا تشكل بصورة البشر. . فكيف يسمى شيطاناً؟

قلتُ: إنَّ الله عز وجل أعطاه قوةً وأقدره على ذلك، كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر، لكن النفس الباطنة لم تتغير، فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة.

والخلاصة[2]: أنّ جند الشيطان كانوا منبثين في المشركين، يوسوسون لهم - بملابستهم لأرواحهم الخبيثة - بما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم - بملابستهم لأرواحهم الطيبة - ما يثبتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقةً بوعد الله بنصرهم، فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما. . فر الشيطان بجنوده من بين المشركين؛ لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين (وهما ضدان لا يجتمعان، ولو اجتمعا. . لقضى أقواهما، وهم الملائكة على أضعفهما، وهم الشياطين).

فخوف الشيطان من الملائكة إنَّما كان من إحراق الملائكة لجنوده، لا على المشركين، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق متلاشٍ أمامه لا يبقى منه شيء.

والظرف في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: متعلق بـ ﴿زين﴾ أو باذكر محذوفاً؛ أي: واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم حين يقول المنافقون ومن في حكمهم من مرضى القلوب، أو: واذكروا إذ يقول المنافقون وهم قومٌ من

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

الأوس والخزرج ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وارتياب في الدين، وهم قوم من قريش، أسلموا ولم يقو إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا، منهم: عتبة بن ربيعة، وقيس بن الوليد، وأبو قيس الفاكه، والحارث بن زمعة، وعديُّ بن أمية، والعاص بن منبه، فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ﷺ.. خرجوا معهم إلى بدر، فلمَّا نظروا إلى قلة المسلمين.. ارتابوا وارتدوا، وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ المؤمنين ﴿دِينُهُمْ﴾؛ أي: توحيدهم، حين أقدموا على ما أقدموا عليه من الخروج لحرب قريش مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، توهماً منهم أنهم ينصرون عليهم؛ أي: اغتروا بدينهم، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، حيث خرجو وهم ثلاث مئة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ظناً منهم أنهم على الحق، ينصرون ولا يغلبون، فأولئك المرضى الذين خرجوا مع قريش كلهم قتلوا في بدر مع المشركين، ولم يذكر أن أحداً من المنافقين خرج إلى بدر مع المسلمين.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه.. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى حافظه وناصره؛ لأنه ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يغلبه شيء، فيسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضىٰ وحكم، لا يسوي بين أوليائه وأعدائه، فيوصل الثواب إلى أوليائه، والعقاب إلى أعدائه.

وهذا الكلام يتضمَّن الرد على من قال[1]: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فكأنه قيل: هؤلاء في لقاء عدوهم هم متوكلون على الله، فهم الغالبون ومن يتوكل على الله.. ينصره ويعزه؛ فإن الله عزيز لا يغالب بقوة ولا بكثرة، حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها، أو حاكم بنصره من يتوكل عليه، فيديل القليل على الكثير.

والمعنى[2]: أي ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه، وأنه لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده.. يكفه ما يهمه وينصره

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم؛ لأنه العزيز الغالب على أمره، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه بمقتضى سننه في نظام العالم، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل.

الإعراب

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

﴿وَاعْلَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّمَا﴾: أن حرف نصب ومصدر، ما: موصولة في محل النصب اسمها، وكان القياس فصلها من أنَّ، لكن ثبت وصلها في خط المصحف العثماني، وثبت فصلها أيضاً في بعضها، كما ذكره الجزري. ﴿غَنِمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: أن ما غنمتموه. ﴿مِّن شَيْءٍ﴾: جار ومجرور حال من العائد المحذوف، تقديره: حال كونه كائناً من شيء ما قليلاً كان أو كثيراً. ﴿فَأَنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالاسم؛ لما في اسم أنَّ من العموم ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور خبر ﴿أنَّ﴾ مقدم على اسمها. ﴿خُمُسَهُ﴾: اسمها مؤخر ومضاف إليه، تقديره: فإن خمسه كائنٌ لله، وجملة أن اسمها وخبرها في محل الرفع خبرٌ ﴿أنَّ﴾ الأولى: ولكنّه خبر سببيٌّ، تقديره: واعلموا أن الذي غنتموه من شيء فكائنٌ خمسه لله وللرسول، وجملة ﴿أنَّ﴾ الأولى في تأويل مصدر سادّ مسدّ مفعولي علم، تقديره: واعلموا كون خمس الذي غنتموه من شيء لله، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ معطوف على الجار والمجرور قبله، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: معطوف على ذي القربىٰ، وكذا ﴿وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ معطوفان عليه.

﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾

على كونه فعل شرط لها. ﴿ءَامَنتُم﴾ فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، تقديره: إنْ كنتم مؤمنين، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مؤمنين بالله.. فاعلموا ذلك، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَمَآ﴾ في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأنزلنا. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بأنزلنا. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، بدل من يوم الفرقان. ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بقدير. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضىٰ من الزمان بدل من يوم الفرقان ﴿أَنتُم﴾ مبتدأ، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، والباء بمعنى في، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة للعدوة ﴿وَهُم﴾ مبتدأ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾: خبره، والجملة في محل الجر معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها مضافاً إليه لـ ﴿إِذْ﴾. ﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: صفة لـ﴿العدوة﴾. ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ مبتدأ. ﴿أَسْفَلَ﴾: منصوب على الظرفية، والظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لأسفل، والجملة من المبتدأ، والخبر في محل النصب، حال من الظرف الذي قبله، وهو قوله: ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، والتقدير: إذ أنتم كائنون بالعدوة الدنيا، وهم كائنون بالعدوة القصوى، حالة كون الركب كائنين في مكان أسفل منكم، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ في محل الجر معطوف على أنتم؛ أي: وإذ الركب أسفل منكم، ذكره أبو البقاء. وفي «الفتوحات»: وإيضاح ما في المقام أن ﴿الركب﴾: مبتدأ و ﴿أَسْفَلَ﴾ أفعل تفضيل، استعمل بمعنى صفة لمكان محذوف أقيم مقامه، فهو مع متعلقه خبرٌ،

والجملة حال من الظرف الذي قبله، يعني: بـ﴿العدوة﴾. اهـ كرخي. وفي السمين: قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الأحسن في هذه الواو، والواو التي قبلها الداخلة على هم أن تكون عاطفةً ما بعدها على: ﴿أنتم﴾؛ لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم وأحوال عدوهم، ويجوز أن تكونا واوي حالٍ، و﴿أَسْفَلَ﴾ منصوب على الظرف النائب عن الخبر، وهو في الحقيقة صفةٌ لظرف مكان محذوف؛ أي: والركب في مكان أسفل من مكانكم اهـ. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿تَوَاعَدتُّمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية، ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾: متعلق به، والجملة جواب لو الشرطية، وجملة لو الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿لِّيَقْضِيَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل، ﴿يقضي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل. ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به، وجملة ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾: صفة لأمراً، وجملة يقضي مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لقضاء الله أمراً كان مفعولاً، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: ولكن جمع الله بينكم؛ لقضائه وإمضائه أمراً كان مقضياً في سابق علمه، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة لو الشرطية.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّيَهْلِكَ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي. ﴿يهلك﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ متعلق بيهلك، والجملة صلة ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿يهلك﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لهلاك من هلك عن بينة، الجار والمجرور معطوف بعاطف مقدر على الجار والمجرور قبله، على كونه متعلقاً بمحذوف، تقديره: ولكن جمع الله بينكم لقضائه أمراً مفعولاً، ولهلاك من هلك عن بينة، وحياة من

حيَّ عن بينة، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ فعل مضارع معطوف على يهلك ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿حَيَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة صلة من الموصولة. ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ متعلق بيحيى، ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿لَسَمِيعٌ﴾: ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿سميع﴾ خبر أول لإنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ يريكهم الله، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعولان وفاعل. ﴿فِى مَنَامِكَ﴾: متعلق به ﴿قَلِيلًا﴾: مفعول ثالث لأرىٰ؛ لأن رأى الحلمية تنصب مفعولين بلا همزة، فإذا دخل عليها الهمز.. نصبت ثلاثة مفاعيل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه. ﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿لو﴾ حرف شرط ﴿أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾: فعل وثلاثة مفاعيل، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لو﴾. ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة الجواب ﴿فشلتم﴾ فعل وفاعله، والجملة جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على فشلتم، واللام فيه لام الربط مؤكدة للأولى ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: متعلق به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ونصب، ولفظ الجلالة: اسمها ﴿سَلَّمَ﴾ فعل ماضي، وفاعله ضمير يعود على الله ومفعوله محذوف، تقديره: سلَّمكم الله من الفشل والتنازع، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾ معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية على كونها مستأنفة. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق بعليم، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إذ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف،

تقديره: واذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم، والجملة المحذوفة معطوفة على الجملة المحذوفة في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الجر مضاف إليه لإذ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى، متعلق بيريكموهم، وجملة ﴿ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿قَلِيلًا﴾. ﴿قَلِيلًا﴾ حال من المفعول الثاني الذي هو الهاء، ورأى هنا بصرية تنصب مفعولاً واحداً بلا همز، واثنين مع الهمز كما هنا. ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾: فعل ومفعول، و﴿الواو﴾ فيه واو الحال. ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب حال من فاعل يريكموهم ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾: فعل وفاعل ومفعول، واللام فيه لام كي، وجملة ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ صفة لـ﴿أَمْرًا﴾، وجملة ﴿يقضي﴾ في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: لقضاء الله أمراً كان مفعولاً، الجار والمجرور متعلق بيريكموهم، أو متعلق بمحذوف، تقديره فعل الله بكم وبهم ذلك التقليل؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً، وكرَّر هذا التعليل؛ لاختلاف الفعل المعلَّل به، أولاً: اجتماعهم بغير ميعاد، وثانياً: تقليل المؤمنين قبل الالتحام، ثم تكثيرهم في أعين الكفار، كما مر في مبحث التفسير. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بترجع ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لأيُّ، وجملة النداء مستأنفة، وجملة ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ صلة الموصول ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إذا ﴿اثبتوا﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب إذا، وجملة إذا جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾. ﴿كَثِيرًا﴾:

منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: ذكراً كثيراً ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة معطوفة على جملة إذا على كونها جواب النداء، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿أطيعوا﴾. ﴿فَتَفْشَلُوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفا السببية الواقعة في جواب النهي، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿تفشلوا﴾ وجملة تفشلوا صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكن تنازعكم ففشلكم وذهاب ريحكم. ﴿وَاصْبِرُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿وَأَطِيعُوا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: خبره، وجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بلا الناهية. ﴿كَالَّذِينَ﴾: خبر تكونوا، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾، ﴿خَرَجُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن دِيَارِهِم﴾: متعلق به ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: منصوبان على الحال من فاعل ﴿خَرَجُوا﴾؛ أي: بطرين ومرائين، أو على أنهما مفعولان لأجله؛ أي: لأجل البطر والرياء، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: فعل وفاعل ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ﴾ على كونها حالاً من فاعل ﴿خَرَجُوا﴾ أي: حالة كونهم بطرين ومرائين وصادين عن سبيل الله، أو معطوفة على جملة ﴿خَرَجُوا﴾ على كونها صلة

الموصول. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بمحيط، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما يعملونه. ﴿مُحِيطٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، أو عاطفة، ﴿إذ﴾: ظرف لما مضىٰ، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكروا إذْ زَيَّن لهم الشيطان، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. ﴿زَيَّنَ﴾ فعل ماض ﴿لَهُمُ﴾ متعلق به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فاعل. ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذ﴾، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿زَيَّنَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الشيطان. ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ مقول محكي لـ ﴿قال﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: نافية، ﴿غَالِبَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور خبر ﴿لا﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بالخبر، ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ جار ومجرور حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لا﴾ وجملة ﴿لا﴾ في محل النصب مقول قال. ﴿وَإِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿جَارٌ﴾ خبره. ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق به؛ لأنه بمعنىٰ مجير، وجملة إنَّ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لا﴾ علىٰ كونها مقول قال.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفت ما قال لهم الشيطان، وأردت بيان عاقبة أمره معهم.. فأقول لك ﴿لمّا﴾ حرف شرط غير جازم. ﴿تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿نَكَصَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة جواب لمَّا، لا محل لها من الإعراب، وجملة لمَّا

في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾: متعلق بـ ﴿نَكَصَ﴾. ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضي معطوف على: ﴿نَكَصَ﴾ وفاعله ضمير يعود على الشيطان ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿بَرِيٓءٞ﴾ خبره. ﴿مِّنكُمۡ﴾ متعلق بـ ﴿بَرِيٓءٞ﴾ وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال: ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه. ﴿أَرَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، وجملة ﴿أَرَىٰ﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به لـ ﴿أرى﴾؛ لأنَّها بصرية تتعدىٰ لمفعول واحد، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَرَوۡنَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لما، أو صفةٌ لها والعائد، أو الرابط محذوف، تقديره: ما لا ترونه، ورأى بصرية أيضاً. ﴿إِنِّيٓ﴾ ناصب واسمه، ﴿أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الشيطان، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول قال، ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة، إنْ كان من كلام الله، أو في محل النصب مقول قال إنْ كان من تمام كلام الشيطان.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضىٰ، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد إذ يقول المنافقون، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذۡ﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم ﴿مَّرَضٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب مقول يقول ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿مَن﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَتَوَكَّلۡ﴾ فعل الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجواب الشرط محذوف، تقديره: يغلب، وجملة من الشرطية مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾

تعليلية ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بالجواب المحذوف، تقديره: ومن يتوكل على الله يغلب أعداءه؛ لكون الله عزيزاً حكيماً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾: الغنم[1] والمغنم والغنيمة لغةً: ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادي، وقولهم: الغرم بالغنم؛ أي: يقابل به. وشرعاً: ما حصل للمسلمين من الكفار الحربين بإيجاف خيلٍ، أو ركاب. والفيء: كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك، بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتصير الدار دار الإسلام، وهو لكافة المسلمين، وليس فيه الخمس. والنفل: ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها. والسلب: ما احتوت عليه يد القتيل من ثياب وسلاح ومركوب يستحقه القاتل.

﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ والعدوة[2] ـ بضم العين وكسرها ـ وقرىء بفتحها، لغات كلها بمعنى واحد، وهو: شط الوادي وشفيره، سميت بذلك؛ لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوزها؛ أي: منعته. وفي «المختار»: العدوة ـ بضم العين وكسرها ـ جانب الوادي وحافته. وقال أبو عمرو: هي المكان المرتفع اهـ. وفي «البحر»: العدوة: شط الوادي، وتسمَّىٰ شفيراً وضفة، سميت بذلك؛ لأنَّها عدت ما في الوادي من ماء أن يتجاوزه؛ أي: منعته.

وقال الشاعر:

عَـدَتْـنِـيْ عَـنْ زِيَـارَتِـهَـا ٱلْـعَـوَادِيْ ... وَقَـالَـتْ دُوْنَـهَـا حَـرْبٌ زَبُـوْنُ

ويسمى الفضاء المساير للوادي عدوةً؛ للمجاورة اهـ.

---

(١) المراغي.

(٢) الفتوحات.

﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: القصو[1]: البعد، والقصوى: تأنيث الأقصى، ومعظم أهل التصريف فصلوا في الفعلى مما لامه واو، فقالوا: إن كان اسماً.. أبدلت الواو ياءً، ثم يمثلون بما هو صفةٌ، نحو: الدنيا، والعليا، والقصيا، وإن كان صفة.. أقرت، نحو: الحلوىٰ، تأنيث الأحلى، ولهذا قالوا: شذ القصوى ـ بالواو ـ وهي لغة الحجاز. والقصيا: لغة تميم، وذهب بعض النحويين إلى أنه إن كان اسماً.. أقرت الواو، نحو: حزوى، وإن كان صفة.. أبدلت، نحو: الدنيا والعليا، وشذ إقرارها، نحو: الحلوى، ونص على ندور القصوى ابن السكيت.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ وفي «القاموس»: والركب: ركبان الإبل، وهو اسم جمع لراكب، أو جمع له، وهو العشرة فصاعداً، وقد يكون للخيل، والجمع أركب وركوب اهـ. ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِۙ﴾ وفي «المختار»: والميعاد: المواعدة ووقتها ومكانها اهـ. ومثله في «القاموس». ﴿من حي﴾[2] يقرأ بتشديد الياء، وهو الأصل؛ لأن الحرفين متماثلان متحركان، فهو مثل شد ومد، ومنه قول عبيد:

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا ٱلْحَمَامَهْ

ويقرأ بالإظهار، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّ الماضي حمل على المستقبل، وهو يحيا، فكما لم يدغم في المستقبل.. لم يدغم في الماضي، وليس كذلك شد ومد؛ فإنه يدغم فيهما جميعاً. والوجه الثاني: أن حركة الحرفين مختلفة، فالأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، واختلاف الحركتين كاختلاف الحرفين، ولذلك أجازوا في الاختيار: لححت عينه، وضبب البلد، إذا كثر ضبه، ويقوي ذلك أنَّ الحركة الثانية عارضة، فكانت الياء ساكنة، ولو سكنت.. لم يلزم الإدغام، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن، والياءان أصلٌ، وليست الثانية بدلاً من واو، فأما الحيوان.. فالواو فيه بدلٌ من الياء، وأما الحواء... فليس من لفظ الحية، بل من حوي يحوي إذا جمع، ذكره أبو البقاء.

﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾؛ أي: لجبنتم، يقال: فشل يفشل فشلاً، كطرب يطرب طرباً،

---

(١) البحر. (٢) العكبري.

كذا في «المختار».

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: حاربتم جماعة، وفي «المصباح»: الفئة: الجماعة، ولا واحد لها من لفظها، وتجمع على فئات، وقد تجمع بالواو والنون؛ جبراً لما نقص منها اهـ.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: في «القاموس» و«المختار»: إن الريح يطلق ويراد به القوة والغلبة، والرحمة والنصرة والدولة ـ بفتح الدال ـ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾: هم أهل مكة، حين خرجوا لحماية العير، والبطر[1]: إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى، أو الرياسة، ويعرف ذلك في الحركات المتكلفة والكلام الشاذ، وفي «الشهاب» و«زاده»: البطر[2] والأشر ـ بفتحتين ـ: الطغيان في النعمة، بترك شكرها وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضاه الله تعالى، وقيل: معناهما: الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها اهـ. والرئاء: أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به، وفي «السمين»: والرئاء: مصدر راءىٰ، كقاتل قتالاً، والأصل: رياياً، فالهمزة الأولىٰ: بدل من ياء هي عين الكلمة، والثانية بدل من ياء هي لام الكلمة؛ لأنها وقعت طرفاً بعد ألف زائدة، والمفاعلة في رئاءَ على بابها. اهـ. منه في سورة البقرة. ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مجير ومعين وناصر لكم، والألف في ﴿جَارٌ﴾ بدل[3] من واو، لقولك: جاورته.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ﴾؛ أي: قربت كل منهما من الأخرى، وصارت بحيث تراها وتعرف حالها. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: رجع القهقرى، وتولى إلى الوراء.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: والمنافق: من يظهر الإسلام

---

(١) المراغي.
(٢) الشهاب وزاده.
(٣) العكبري.

ويسر الكفر، هم أهل المدينة من الأوس والخزرج، والذين في قلوبهم مرض: هم ضعاف الإيمان، ملأت قلوبهم الشكوك والشبهات، فتزلزل اعتقادهم حيناً وسكن حيناً آخر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ إفادة للتقليل.

ومنها: الإضافة في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إفادة للتشريف والتكريم.

ومنها: الطباق بين لفظ الدنيا والقصوى، في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾، وبين لفظ يهلك ويحيا، في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ شبه الكفر بالهلاك بجامع الضرر، والإيمان بالحياة بجامع النفع، فاستعير اسم المشبه به ـ الذي هو الهلاك والحياة ـ للمشبه ـ الذي هو الكفر والإيمان ـ فاشتق من الهلاك بمعنى الكفر يهلك بمعنى يكفر، ومن الحياة بمعنى الإيمان يحيا بمعنى يؤمن، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ فالمضارع فيه بمعنى الماضي؛ لأن نزول الآية كان بعد الإراءة.

ومنها: الاستعارة بالكناية في قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ لأنها كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبت ريح فلان، إذا أقبل أمره على ما يريد، وفي «البيضاوي»: والريح هنا مستعارٌ للدولة من حيث إنّها ـ في تمشي أمرها ونفاذه ـ مشبهة بها في هبوبها ونفاذها اهـ.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وفي قوله:

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ﴾ ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾، ولكن التكرار هنا لفظيٌّ؛ لأن الإراءة الأولى حلمية، والثانية بصرية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات، لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين[1] حال هؤلاء

---

(١) المراغي.

الكفار ـ من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطراً ورئاء الناس، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم. . أردف ذلك بذكر أحوالهم حين موتهم، وبيان العذاب الذي يصل إليهم في ذلك الوقت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لمَّا بين حال مشركي قريش في قتالهم له ﷺ ببدر. . قفىٰ على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبي ﷺ وقاتلوه، وهم اليهود الذين كانوا في بلاد الحجاز. قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآيات في ستة رهط من اليهود، منهم: ابن تابوت. وقال مجاهد: نزلت في يهود المدينة، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف، وهو فيهم كأبي جهل في مشركي مكة. ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] بين فيما سلف أن اليهود الذين عقدوا العهود مع النبي ﷺ، وبها أمنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم، قد خانوه ونقضوا العهود وساعدوا عليه أعداءه المشركين الذين أخرجوه من دياره ووطنه، وتبعوه إلى مهجره يقاتلون فيه لأجل دينهم، وبذلك صاروا هم والمشركون سواء. . أردف ذلك ذكر ما يجب على المؤمنين في معاملتهم أثناء الحرب، التي أصبحت لا مناص منها بما أحدثوه من الخيانة والغدر والبداءة بالعدوان، وذلك سنة من سنن الاجتماع البشري؛ إذ حصول الصراع بين الحق والباطل، والقوة والضعف أمرٌ لا مندوحة منه.

وقال أبو حيان[2]: مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما اتفق في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا تكميل آلةٍ ولا عدةٍ، وأمره تعالى بالتشريد وبنبذ العهد للناقضين. . كان ذلك سبباً للأخذ في قتاله والتمالؤ عليه، فأمره تعالى والمؤمنين

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمّا أمر رسوله ﷺ بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء، وربما كان جنوحهم لها مظنة الخداع والمكر، ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب وضروب الإيذاء والشر، وامتن عليه بتأييده له بنصره وبالمؤمنين، إذ سخرهم له، وألّف بين قلوبهم باتباعه.. قفّى على ذلك بوعده بكفايته، له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف بين قلوبهم في حال الحرب والسلم، وجعل هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه، كما إذا بدأ العدو بالحرب، أو نقض العهد أو خان في الصلح.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في ستة رهط من اليهود، فيهم ابن التابوت.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه أبو الشيخ أيضاً عن ابن شهاب قال: دخل جبريل على النبي ﷺ فقال: يا محمد، قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم؟ فاخرج فإنَّ الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما رواه البزّار بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر.. قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وله شواهد: أخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

جبير عن ابن عباس قال: لمَّا أسلم مع النبي ﷺ تسعةٌ وثلاثون رجلاً وامرأةٌ، ثم إن عمر أسلم فكانوا أربعين.. نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: لمَّا أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر.. نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية. وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لمَّا أسلم عمر... أنزل الله في إسلامه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده عن ابن عباس قال: لمَّا افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرةً.. ثقل ذلك عليهم وشق، فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين، فأنزل الله فيه ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية.

وأخرج البخاري[1] (ج ٩/ ص ٣٨٢) قال: حدثنا يحيى بن عبد الله السلمي أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا جرير بن حازم قال: أخبرني الزبير بن الخريت عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾.. شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: ولو رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب، وعاينت وشاهدت إذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت ويأخذونها، يعني: الذين قتلوا ببدر، أو مطلقاً حالة كون الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؛ أي: تضرب الملائكة وجوه الذين كفروا وظهورهم

---

(١) البخاري.

بسياطٍ من نار ﴿و﴾ حالة كون الملائكة تقول لهم وقتئذٍ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: باشروا العذاب المحرق وادخلوه أيها الكفرة. وجواب لو محذوف، تقديره: لرأيت أمراً عظيماً، ومنظراً فظيعاً، وعذاباً شديداً ينالهم في ذلك الوقت. واختلفوا[1] في وقت هذا الضرب، فقيل: هو عند الموت، تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار، وقيل: إنَّ الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم. وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين.. ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولَّوا أدبارهم.. ضربت الملائكة أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد ما أقبل من أجسادهم وأدبر، يعني: يضربون جميع أجسامهم، وتقول الملائكة لهم عند القتل: ذوقوا عذاب الحريق، قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد محماة بالنار يضربون بها الكفار، فتلتهب النار في جراحاتهم. وقال ابن عباس: تقول الملائكة لهم ذلك بعد الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة، تقول لهم الزبانية: ذوقوا عذاب الحريق.

والمعنى[2]: ولو عاينت وأبصرت يا محمد حال الكفار حين يتوفّاهم الملائكة، فينزعون أرواحهم من أجسادهم ضاربين وجوههم وأقفيتهم، قائلين لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

وقرأ ابن عامر والأعرج[3]: ﴿تتوفى﴾ بالتاء، وذكر في قراءة غيرهما؛ لأن تأنيث الملائكة مجاز، وحسنه الفصل. وهذا الضرب والكلام من عالم الغيب، فلا يقتضي أن يراه الذين يحضرون وفاتهم، ولا أن يسمعوا كلامهم حين يقولون ذلك لهم؛ أي: لو رأيت ذلك.. لرأيت أمراً عظيماً هائلاً يرد الكافر عن كفره، والظالم عن ظلمه إذا هو علم عاقبة أمره.

وقد روي أن ضرب الوجوه والأدبار كان ببدر، كان المؤمنون يضربون من

---

(١) الخازن.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

أقبل من المشركين من وجوههم، والملائكة يضربون من أدبارهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب والعذاب والقول حاصلٌ بكم أيها الكفار ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: بسبب ما كسبته وعملته أيديكم وجوارحكم وقلوبكم من الكفر والمعاصي ﴿و﴾ الأمر والشأن ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بمعذب لعبيده بغير جرم اجترموه، وذنب اكتسبوه، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب، كتمَّار وبقَّال؛ أي: ليس منسوباً إلى الظلم، فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالىٰ، ويحتمل كون ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوفاً على ﴿ما﴾؛ أي: ذلك العذاب بسبب ما كسبته أيديكم من المعاصي، وبسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يظلمكم؛ إذ أنتم مستحقون العذاب، فتعذيبكم عدلٌ منه؛ لأنه سبحانه قد أرسل إليكم رسله، وأنزل عليكم كتبه، وأوضح لكم السبيل، وهداكم النجدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وحاصل المعنى: أي هذا العذاب الذي ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم من سيء الأعمال في حياتكم الدنيا من كفر وظلم، وهذا يشمل القول والفعل، ونسب ذلك إلى الأيدي ـ وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجل وسائر الحواس، أو بتدبير العقل ـ من أجل أن العادة قد جرت بأن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها، وبسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً من عبيده، فلا يعذب أحداً منهم إلا بجرم اجترمه، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه، وقد وقع ذلك منكم، فأنتم الظالمون لأنفسكم، فلوموها ولا لوم إلا عليها. روى مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ «إنَّ الله يقول: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا... يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل آل فرعون، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر كدأب آل فرعون؛ أي: فعلهم وعادتهم في الكفر والتكذيب والتعذيب كعادة قوم فرعون وفعلهم، وفعل من قبلهم من الأمم الخالية في كفرهم وتعذيبهم، فجوزي

هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر، كما جوزي آل فرعون بالإغراق.

وأصل الدأب في اللغة[1]: إدامة العمل، يقال: فلان يدأب في كذا وكذا؛ أي: يداوم عليه، ويتعب نفسه فيه، ثم سميت العادة دأبا؛ لأنَّ الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها.

قال ابن عباس: معناه: إن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام رسولٌ من الله تعالىٰ فكذبوه، فكذلك هؤلاء لمَّا جاءهم محمدٌ ﷺ بالصدق.. كذبوه، فأنزل الله بهم عقوبته، كما أنزل بآل فرعون. وجملة قوله: ﴿كفروا بآيات الله﴾ مفسرةٌ لدأب آل فرعون؛ أي: دأبهم هذا هو أنَّهم كفروا بآيات الله؛ أي: أنكروا الدلائل الإلهية.

والمعنى[2]: عادة كفار قريش فيما فعلوه من الكفر، وفيما فعل بهم من العذاب كعادة آل فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم من الأمم الماضية، الذين من عادتهم أنهم كفروا بآيات الله الكونية، والمنزلة على رسله، وأنكروها. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ﴾؛ أي: فأخذ الله سبحانه وتعالى تلك الأمم الماضية وأهلكها متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها؛ أي: أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونصر رسله والمؤمنين بهم، وكما كانت سننه تعالى في أولئك الماضين أن أخذهم بذنوبهم.. فسنته في هؤلاء المشركين كذلك؛ فقد نصر رسوله محمداً ﷺ والمؤمنين في بدر، وأهلك هؤلاء المشركين بذنوبهم. وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ معترضة[3] مقررة لمضمون ما قبلها؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى قويٌّ لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، شديد العقاب لمن استحق عقابه وكفر بآياته وجحد حججه، وقد جعل لكل شيءٍ أجلا.

وروى البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي موسىٰ الأشعري أن النَّبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه.. لم يفلته». والإشارة بقوله:

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا...﴾ إلخ، إلى العقاب الذي أنزله الله بهم، وهو مبتدأ، وخبره: ما بعده، والجملة جاريةٌ مجرى التعليل لما حلَّ بهم من عذاب الله، والمعنى: ذلك الذي ذكر من أخذه لقريش بكفرها بنعم الله عليها؛ إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته فكذبوه وأخرجوه من بينهم وحاربوه.. كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم؛ أي: تعذيب الكفرة بما قدمت أيديهم حاصلٌ بسبب أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يكن مغيراً ومبدِّلاً بنقمةٍ ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾؛ أي: لم يكن مبدلاً نعمة أنعم بها على قوم كائناً من كان، كالعقل وإزالة الموانع؛ أي: لم يكن مبدِّلاً إياها بنقمةٍ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا﴾؛ أي: حتىٰ يغيِّر ويبدِّل أولئك القوم ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال؛ أي: ما لهم من الحال إلىٰ حال أسوأ منه، فإذا صرفوا تلك النعمة إلى الفسق والكفر.. فقد غيَّروا نعمة الله تعالى على أنفسهم، فاستحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح بالمحن، يعني: أنَّ[1] الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع، وأمنهم من خوف، وبعث إليهم محمداً ﷺ، فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها، وكذبوا رسوله محمداً ﷺ، وغيروا ما بأنفسهم، فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب، قال السدي: نعمة الله: هو محمدٌ ﷺ أنعم به على قريش، فكفروا به وكذَّبوه، فنقله الله تعالى إلى الأنصار.

وقولنا: إلى حال أسوأ منه: إشارةٌ[2] إلى دفع ما يقال من أن آل فرعون ومشركي مكة لم يكن لهم حالٌ مرضية حتى يقال أنهم غيَّروها إلى حال مسخوطة، فغير الله نعمته عنهم إلى النقمة، وتقرير الدفع: أنَّ قوله: ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعم الحال المرضية والقبيحة، فكما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة.. كذلك تغير الحال المسخوطة إلى ما هو أسوأ منها، وأولئك كانوا قبل بعثة محمد ﷺ كفرةً عبدة أصنام، فلمَّا بعث النبي ﷺ بالآيات البينات.. كذبوه وعادوه وتحزبوا على إراقة دمه، فغير الله نعمة إمهالهم بمعاجلتهم بالعذاب، هذا حاصل ما في «الكشاف»، اهـ «زاده».

---

(١) الخازن. (٢) زاده.

وجملة قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفة على قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ داخلة معها في التعليل؛ أي: ذلك بسبب أنَّ الله لم يك مغيراً... إلخ، بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقوله مكذبوا الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يأتون وما يذرون، وهو مجازيهم على ما يقولون وما يعملون، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، وقرىء[1] بكسر الهمزة على الاستئناف.

وفي الآية[2] إيماءٌ إلى أنَّ نعم الله تعالى على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواماً بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتةً لهم متمكنةً منهم.. كانت تلك النعم ثابتةً لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال.. غيَّر الله حالهم وسلب نعمتهم منهم، فصار الغنيُّ فقيراً، والعزيز ذليلاً، والقويُّ ضعيفاً.

وليست[3] سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطةً بسعة الثروة، ولا كثرة العدد، كما كان يظن بعض المشركين، وحكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وكذلك لا يحابي الله تعالى بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوةٍ، أو بما دونها، فيؤتيهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إليهم، كما كان هو شأن بني إسرائيل في غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب بنسبهم، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم إذا تبعوا سنتهم واغتروا بدينهم، وإن كانوا من أشد المخالفين له. ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبرٌ لمحذوف كما مرَّ نظيره، تقديره: دأب هؤلاء المشركين من أهل مكة في الكفر والتكذيب والتعذيب ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: كعادة قوم فرعون ﴿و﴾ عادة ﴿الذين من قبلهم﴾؛ أي: من قبل قوم فرعون، من قوم نوح وهود

---

(1) الشوكاني.

(2) المراغي.

(3) المراغي.

وصالح ولوط؛ أي: هؤلاء المشركون غيروا ما بأنفسهم تغييراً كتغيير الأمم الماضية، فهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: كذب آل فرعون ومن قبلهم بأنه تعالى ربَّاهم وأنعم عليهم، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، كما كذب أهل مكة ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾؛ أي: أهلكنا الذين من قبل قوم فرعون ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ذنوبهم﴾ ومعاصيهم من الكفر والتكذيب بآيات الله تعالىٰ، أهلكنا بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمسخ، ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قومه في البحر، بانطباقه عليهم بعدما خرج ونجا منه بنو إسرائيل مع موسىٰ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف في بدر، حين غيَّروا ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: وكل من الأمم المكذبة، من الأولين والآخرين ﴿كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر والمعصية، ولأنبيائهم بالتكذيب، ولسائر الناس بالإيذاء والإيحاش، فالله تعالى إنَّما أهلكهم بسبب ظلمهم، اللهم أهلك الكفرة والمشركين، وطهِّر الأرض من الفجرة والفاسقين، فإنك أنت القهار الجبار، القادر المنتقم يا خير المنتقمين.

فإن قلت[1]: ما الفائدة في تكرير هذه الآيات مرة ثانية؟

قلتُ: فيها فوائد:

منها: أنَّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول، لأنَّ الآية الأولى فيها ذكر أخذهم، وفي الآية الثانية ذكر إغراقهم، فهذه تفسير للأولى.

الفائدة الثانية: أنَّه ذكر في الآية الأولى أنَّهم كفروا بآيات ربهم، وفي الآية الثانية أنَّهم كذَّبوا بآيات ربهم، ففي الآية الأولى إشارة إلى أنَّهم أنكروا آيات الله وجحدوها، وفي الآية الثانية إشارة إلى أنَّهم كذَّبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها.

الفائدة الثالثة: أنَّ تكرار هذه القصة للتأكيد. وفي قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادة دلالةٍ على كفران النعم وجحود الحق، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ

---

(١) الخازن.

بالذنوب اهـ. من «الخازن». وفي «الفتوحات»: كررَّه؛ لأنَّ الأول إخبارٌ عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله، وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم، والثاني إخبارٌ عن عذاب مكن الله الناس من فعل مثله، وهو الإهلاك والإغراق. وقيل: غير ذلك. انتهت.

وعبارة المراغي هنا: ولا تكرار؛ لأنَّ الدَّأب[1] الأول في بيان كفرهم بجحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة، وفي تعذيب الله إياهم في الآخرة، فهو دأبٌ وعادةٌ فيما يتعلَّق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته، وفي الجزاء الدائم على الكفر به الذي يبتدىء بالموت وينتهي بدخول النار.

والدَّأبُ الثاني: في تكذيبهم بآيات ربهم ونعمه، من حيث إنَّه هو المربي لهم، ويدخل في ذلك تكذيب الرسل وعنادهم وإيذاؤهم، وكفر النعم المتعلِّقة ببعثهم، وفي الجزاء على ذلك بتغيير حالهم وعذابهم في الدنيا.

وخلاصة ذلك: أنَّ ما دوَّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض ومن عقاب الله إياها.. جارٍ على سننه تعالى المطردة في الأمم، لا بسلب نعمة منهم، ولا بإيقاع أذىً بهم، وإنَّما عقابه لهم أثرٌ طبيعيٌّ لكفرهم وظلمهم لأنفسهم، وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوي.. فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها، ثم فعلوا ذلك.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي: إنَّ أقبح ما يدب على الأرض وأخسه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في علمه وحكمه هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: لا يرجى منهم إيمان، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدل[2] من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بدل البعض؛ للبيان والتخصيص، قيل: ﴿من﴾ صلةٌ، يعني: الذين عاهدتهم على ترك الحرب لك،

---

(١) المراغي.
(٢) الخازن.

وعلى ترك المساعدة لمن يحاربك. وقيل: هي للتبعيض؛ لأنَّ المعاهدة مع بعض القوم، وهم الرؤساء والأشراف ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله؛ أي: لا يخافون عقاب الله تعالى في نقض العهد، أو لا يخافون[1] سبة الغدر وما فيه من العار والنار؛ لأنَّ عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم.. أن يتقي نقض العهد، حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقون بكلامه، فبيَّن الله عز وجل أنَّ مَنْ جمع بين الكفر ونقض العهد.. فهو من شرِّ الدَّواب.

وجعلهم شرَّ الدواب لا شرَّ الناس؛ إيماءً إلى انسلاخهم عن الإنسانية، ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان؛ لعدم تعقلهم بما فيه رشادهم.

والمعنى[2]: إنَّ هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله تعالى.. هم هؤلاء الذين عاهدت منهم؛ أي: أخذت منهم عهدهم على ترك محاربتك والمساعدة لمن يحاربك، ثم هم ينقضون عهدهم الذي عاهدتهم في كل مرة من مرات المعاهدة، والحال أنهم لا يتقون النقض، ولا يخافون عاقبته، ولا يتجنبون أسبابه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[3]: هم قريظة، فإنَّ رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه مشركي مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم مرةً ثانية فنقضوا العهد أيضاً، وساعدوا معهم على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة رسول الله ﷺ.

وحاصل معنى الآيتين: أنّ شرَّ ما يدبّ على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان:

١ ـ الإصرار على الكفر والرسوخ فيه، بحيث لا يرجى إيمان جملتهم، أو

---

(١) النسفي.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراح.

إيمان جمهورهم؛ لأنَّهم إمَّا رؤساء حاسدون للرسول ﷺ معاندون له، جاحدون بآياته المؤيِّدة لرسالته على علم منهم، وفيهم يقول سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وإمَّا مقلدون جامدون على التقليد، لا ينظرون في الدلائل والآيات، وقد لقَّبهم الله سبحانه وتعالى بالدَّواب ـ وهو اللفظ الذي غلب استعماله في ذوات الأربع ـ؛ لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضلُّ من العجماوات؛ لأنَّ لها منافع، وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

٢ ـ نقض العهد، وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهداً أقرَّهم فيه علىٰ دينهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، فنقض كل منهم عهده، بما مرَّ آنفاً عن ابن عباس رضي الله عنه.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى أنه قد تكرر منهم نقض العهد.. أردف ذلك بذكر ما يجب أن يعاملوا به، فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾؛ أي: فإن تجد يا محمد هؤلاء الناقضين لعهدهم معك ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾؛ أي: في أثناء الحرب؛ أي: فإمَّا تصادفنهم وتظفر بهم في الحرب وتتمكن منهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾؛ أي: ففرق وخوف بسبب تنكيلك بهم وعقوبتك لهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: من ورائهم؛ أي: من سواهم من سائر الكفار الذين يريدون محاربتك، كأهل مكة. ومعنى[1] الآية: إنَّك يا محمد إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد.. فافعل بهم فعلاً من القتل والتنكيل تفرِّق بهم جمع كلِّ ناقضٍ للعهد، حتى يخافكم من وارءهم من أهل مكة واليمن ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون بما يقع لهؤلاء الناقضين من التعذيب؛ أي[2]: إذا فعلت بقريظة العقوبة.. فرقت شمل قريش؛ إذ يخافون منك أن تفعل بهم مثل ما فعلت بحلفائهم، وهم قريظة، فأمر رسول الله ﷺ أن يفرِّقهم في ذلك الوقت تفريقاً عنيفاً موجباً للاضطراب،

(١) الفتوحات. (٢) المراح.

والضميران في ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الظاهر عودهما على ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: إذا رأوا ما حلَّ بالناقضين تذكروا اهـ. «سمين».

وقرأ الأعمش بخلاف عنه[1]: ﴿فشرِّذ﴾ ـ بالذال المعجمة ـ بدل الدال المهملة، وكذا في محصف عبد الله، قالوا: ولم نحفظ هذه المادة في لغة العرب، وقال الزمخشري: فشرِّذ ـ بالذال المعجمة ـ بمعنىٰ ففرِّق، وقال قطرب: ـ بالذال المعجمة ـ التنكيل، ـ وبالمهملة ـ التفريق.

وقرأ أبو حيوة والأعمش بخلاف: ﴿مِنْ خلِفهم﴾ جاراً ومجروراً، ومفعول ﴿فشرِّد﴾ محذوف؛ أي: ناساً من خلفهم يعملون مثل عملهم، أو فشرد أمثالهم من الأعداء.

والخلاصة[2]: أنَّك تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم في الحرب.. فنكِّل بهم أشد التنكيل؛ حتى يكون ذلك سبباً لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة النادة عن أمكنتها، وإنّما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان في هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم وتجديده لعهدهم بعد نقضه؛ لئلا ينخدع مرةً أخرىٰ بكذبهم؛ لما جبل عليه من الرحمة، وحب السلم. واعتبار الحرب ضرورةً تترك إذا زال سببها كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، وهم قد أوهموه المرة بعد المرة أنَّهم يرغبون في السلم، واعتذروا عن نقضهم العهد، وكانوا في ذلك مخادعين.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال، فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال.

روى البخاري ومسلم أنَّ النبي ﷺ خطب في بعض أيامه التي لقي فيها العدو فقال: «أيها الناس، لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم.. فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم».

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وفي ذلك إيماءٌ إلى شيئين:

١ ـ أنّ الحرب ليست محبوبة عند الله، ولا عند رسوله، وإنّما هي ضرورة يراد بها منع البغي والعدوان، وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾.

٢ ـ أنَّ استعمال القوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم.. أمر لا بد منه للعظة والاعتبار، حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم، ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما في الصدور من الأحقاد، والتمتع بالمغانم من مال وعقار. وبعد أن ذكر حكم ناقض العهد حين سنوح الفرصة.. قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾؛ أي: وإن توقعت يا محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ وغشاً ونكثاً للعهد، بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تدل عليها ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: فاطرح وارم إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ على جهرٍ، لا على سرٍّ؛ أي: فاقطع[1] عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها، بأن تنبذ إليهم عهدهم، وتنذرهم بأنك غير مقيد به، ولا مهتم بأمرهم، بطريق واضح، لا خداع فيه ولا استخفاء. والحكمة في هذا: أنَّ الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقاً.

والمعنى[2]: أعلمهم ـ قبل حربك إياهم ـ أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يتوهَّمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم؛ أي: لا تحاربهم قبل إعلامهم بنقض العهد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾؛ أي: الناقضين للعهود؛ أي: يعاقبهم، وهذه الجملة تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف. قال ابن عطية: والذي[3] يظهر من ألفاظ القرآن أنَّ أمر بني قريظة انتهى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأ تبارك

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) الشوكاني.

وتعالى في هذه الآية يأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانةً؛ أي: إنَّ الخيانة مبغوضةٌ بجميع ضروبها، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرةً.

روى البيهقي أنَّ النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته.. فوفِّ عهده مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله، ومن كانت بينك وبينه رحم.. فصلها مسلماً كان أو كافراً، ومن ائتمنك على أمانةٍ.. فأدِّها إليه مسلماً كان أو كافراً».

وعبارة «المراح» هنا قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي[1] وإن تعلمنَّ يا محمد من قوم من المعاهدين نقض عهد بأمارات ظاهرة.. فاطرح إليهم عهدهم على طريق ظاهر مستوٍ، بأن تعلمهم قبل حربك إياهم أنك قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، ولا تبادرهم بالحرب ـ وهم على توهم بقاء العهد ـ فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ في العهود.

والحاصل: إن ظهرت الخيانة بأمارات ظاهرة من غير أمرٍ مستفيض.. وجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم الحرب، ذلك كما في قريظة، فإنهم عاهدوا النبي ﷺ، ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم عليه ﷺ، وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به.. فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد وإعلامهم بالحرب، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة، فإنهم لمَّا نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة النبي ﷺ.. وصل إليهم جيش النبي ﷺ بمرِّ الظهران، وذلك على أربع فراسخ من مكة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ قرأ ابن عامر[2] وحفص عن عاصم ـ بالياء التحتية ـ أي: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ من قريش أنفسهم فاتوا من عذابنا بهربهم يوم بدر. وقرأ الباقون بالتاء الفوقية، على مخاطبة النبي ﷺ، أو أيِّ

---

(١) المراح. (٢) المراح.

مخاطب؛ أي: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا الذين خلصوا منك يوم بدر فائتين من عذابنا ﴿إِنَّهُمْ﴾ بهذا الفرار ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله تعالى من الانتقام منهم، إمَّا بالقتل في الدنيا، وإمّا بعذاب النار في الآخرة. وقرأ ابن عامر ﴿أنَّهم﴾ - بفتح الهمزة - على التعليل ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾، أي: وهيئوا أيها المسلمون لحرب الكفار ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ وقدرتم عليه وأمكن لكم ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، أي: من كل ما يتقوى به في الحرب، من كل ما هو آلة للجهاد، كالسيف والرماح والقوس.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾؛ أي: ومن الخيل المربوط المهيأ، المقتنىٰ للجهاد عليه، سواء كان من الفحول، أو من الإناث. وروي أنه كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف، وإناث الخيل عند البيات والغارات، حالة كونكم ﴿تُرْهِبُونَ﴾ وتخوفون ﴿بِهِ﴾، أي: بذلك الإعداد، أو بما ذكر من القوة والخيل المربوط. وقرىء ﴿تخزون﴾ ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم كفار مكة، وذكر أوَّلاً عدو الله؛ تعظيماً لما هم عليه من الكفر، وتقوية لذمهم، وأنه يجب لأجل عدواتهم أن يقاتلوا ويبغضوا، ثم قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على سبيل التحريض على قتالهم؛ إذ في الطبع أن يعادي الإنسان من عاداه، وأن يبغي له الغوائل. ذكره أبو حيان في «البحر» ﴿و﴾ ترهبون به قوماً ﴿آخرين﴾ من أعدائكم ﴿مِن دُونِهِمْ﴾؛ أي: من غير كفار مكة ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾؛ أي: لا تعلمون أنتم أيها المؤمنون أولئك الآخرين، على ما هم عليه من العداوة لكم، أي: فإنَّ تكثير آلات الجهاد كما يرهب الأعداء الذين تعلمون كونهم أعداءً لكم.. كذلك يرهب الأعداء الذين لا تعلمون أنهم أعداء، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ أي: الله سبحانه وتعالى لا غيره يعلم أولئك الآخرين؛ أي: كونهم أعداء لكم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: من مال قلَّ أو جلَّ من آلةٍ وسلاحٍ وصفراء وبيضاء ﴿فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله في الجهاد، وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يخلف لكم من العاجل، ويوفَّر لكم أجره في الآخرة، أي: يعطي لكم عليه أجراً وافراً كاملاً ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تنقصون من أجوره شيئاً، ولو مثقال ذرة، بل يصير ذلك إليكم وافياً وافراً كاملاً ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾، ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾.

وقرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص[1]: ﴿يحسبن﴾ ـ بالياء التحتية ـ وقرأ الباقون: ﴿تحسبن﴾ ـ بالمثناة فوق ـ كما مرَّ آنفاً، فعلى القراءة الأولى: يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعل الحسبان، ويكون مفعوله الأول محذوفاً؛ أي: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم، ومفعوله الثاني: ﴿سبقوا﴾، ومعناه: فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم، وعلى القراءة الثانية: يكون الخطاب لرسول الله ﷺ، ومفعوله الأول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والثاني ﴿سَبَقُوا﴾، وقرىء: ﴿إنَّهم سبقوا﴾ وقرىء: ﴿يِحسبن﴾ بكسر الياء.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿ولا يحسب﴾ ـ بفتح الياء من تحت والسين، وحذف النون ـ وينبغي أن يخرَّج على حذف النون الخفيفة؛ لملاقاة الساكن، فيكون كقوله:

لاَ تُهِينَ ٱلْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمَاً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقرأ ابن عامر: ﴿أنهم لا يعجزون﴾ ـ بفتح الهمزة ـ والباقون بكسرها، وكلا القراءتين مفيدة؛ لكون الجملة تعليلية. وقرأ ابن محيصن: ﴿لا يعجزوني﴾ ـ بكسر النون، وياء بعدها ـ. وقال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أنَّ المعنىٰ: إنهم لا يعجزونني، وتحذف النون الأولى؛ لاجتماع النونين. وقرأ طلحة: بكسر النون من غير تشديد ولا ياءٍ. وعن ابن محيصن: تشديد النون وكسرها، أدغم نون الإعراب في نون الوقاية، وعنه أيضاً: بفتح النون وتشديد الجيم وكسر النون. قال النحاس: وهذا خطأ من وجهين: أحدهما: أنَّ معنى عجزه: ضعفه وضعف أمره، والآخر: أنَّه كان يجب أن يكون بنونين اهـ. وقرأ الحسن وأبو حيوة وعمرو بن دينار: ﴿ومن رُبُط الخيل﴾ ـ بضم الراء والباء ـ وعن أبي حيوة والحسن أيضاً. ﴿رُبْط﴾ ـ بضم الراء وسكون الباء ـ وذلك نحو كتاب وكتب. وقرأ الحسن ويعقوب وابن عقيل لأبي عمرو: ﴿ترهبون﴾ مشدداً عدي بالتضعيف كما عدي بالهمزة، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أنَّ الحسن

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

قرأ ﴿يرهبون﴾ بالياء من تحت وخففها، انتهى.

وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد: ﴿تخزون به﴾ مكان ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾. وقرأ السلمي: ﴿عدواً لله﴾ بالتنوين ولام الجر. قال صاحب «اللوامح»: فقيل: أراد به اسم الجنس، ومعناه أعداءً لله.

فصل

واعلم: أنَّ الله[1] سبحانه وتعالى أمر المؤمنين في هذه الآية بالاستعداد للحرب التي لا بُدَّ منها؛ لدفع العدوان، وحفظ الأنفس والحق والفضيلة، ويكون ذلك الاستعداد بأمرين:

١ ـ إعداد المستطاع من القوة؛ ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان، فالواجب على المسلمين في هذا العصر صنع المدافع والطيارات والقنابل والدبابات والرصاص، وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر وغيرها.

روىٰ مسلم عن عقبة بن عامر أنَّه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول: «ألا إنَّ القوة الرمي» قالها ثلاثاً، وذلك أنَّ رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربةٍ، أو نحو ذلك، وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها، فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفةً في عصره ﷺ.

٢ ـ مرابطة الفرسان في ثغور البلاد وحدودها: إذ هي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد.

---

(١) المراغي.

والحكمة في هذا: أن يكون للأمة جندٌ دائم مستعدٌّ للدفاع عنها إذا فجأها العدو على غرةٍ، وقوام ذلك الفرسان؛ لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها، ولا يزال للفرسان نصيب كبير في الحرب في هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية في الدول الحربية.

ومعنى قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ أي: أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة؛ لترهبوا عدو الله ـ الكافرين به وبما أنزله على رسوله ـ وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر؛ إذ لا شيء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب، فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات.. خافوهم. وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه:

١ ـ يجعل أعدائهم لا يعينون عدوّاً آخر عليهم.

٢ ـ يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم.

٣ ـ ربَّما حملهم ذلك على الدخول في الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ أي: وترهبون به أناساً غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم، وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون ين هاتين العدواتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر، ممن لا تعلمون الآن عدواتهم، بل يعلمهم الله، وهو علام الغيوب.

والخلاصة: أنّ تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين تعلمون أنهم أعداء لكم.. يرهب الأعداء الذين لا تعلمون أنهم أعداء لكم، فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعاً، ويمنعهم من الإقدام على القتال. وهذا ما يسمىٰ في العصر الحديث: السلام المسلح.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يعطكم الله عليه الجزاء

الوافي التام ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: والحال أنه لا يحلقكم ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم، فإن القوي المستعد لمقاومة المعتدي قلّما يعتدي عليه أحد، وإن اعتدى عليه.. فقلَّ أن يظفر به.

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة في سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإنفاق الكثير من المال، ومن ثم رغب سبحانه عباده المؤمنين في الإنفاق في سبيله، ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوفَّىٰ إليهم، إمّا في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فحسب.

ولمّا كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب.. أكده بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾؛ أي: وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم والصلح ولم يعتز بقوته.. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾؛ أي: فمل إليها واقبلها منهم؛ لأنَّك أولى بالسلم منهم. وقرأ[1] أبو بكر عن عاصم والأعمش والمفضل وابن محيصن: ﴿للسِّلم﴾ - بكسر السين - وقرأ الباقون بفتحها. وقرأ الأشهب العقيليّ: ﴿فاجنُح﴾ - بضم النون - وقرأ الباقون بفتحها، والأولى لغة قيس، والثانية لغة تميم. قال ابن جني: ولغة قيس هي القياس، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب، أو هي مؤوَّلة بالخصلة أو الفعلة.

أي: وإن[2] مال الكفار للصلح بوقوع الرهبة في قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد.. فاقبله منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: وفوض الأمر فيما عقدته معهم إلى الله؛ ليكون عوناً لك على السلامة، ولكي ينصرك عليهم إذا نقضوا العهد، ولا تخف غدرهم ومكرهم ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعلون وبنياتهم، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع - وإن خفي عليك - فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويرد كيدهم في نحرهم. وقد اختلف أهل العلم: هل هذه الآية منسوخة أو محكمة؟.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

فقيل: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقيل: ليست منسوخة؛ لأنَّ المراد بها قبول الجزية، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم، فتكون خاصةً بأهل الكتاب.

وقيل: إن المشركين إن دعوا إلى الصلح.. جاز أن يجابوا عليه. وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزةٍ وقوةٍ، لا إذا لم يكونوا كذلك.. فهو جائز، كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك. وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرَّر في مواطنه. انتهى من «الشوكاني».

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾؛ أي: وإن يرد الكفار بإظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم ويفترصوا الفرص، كانتظار الغرة التي تمكِّنهم من أهل الحق أو الاستعداد للحرب.. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: فاعلم أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ كافيك من شرورهم وناصرك عليهم. ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وقواك ﴿بِنَصْرِهِ﴾ في يوم بدر، وفي سائر أيامك ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار، وهذه الجملة معللة لما قبلها؛ أي: لا تخف من خداعهم ومكرهم؛ فإنَّ الله الذي قواك عليهم بالنصر في يوم بدر، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخداع والنكث.

أي: إنَّ[1] من آثار عنايته تعالىٰ بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك، وجعلهم أمةً متحدةً متآلفةً متعاونةً على نصرك، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات، كالملائكة التي تثبت القلوب يوم بدر، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: وهو الذي ألف وجمع بين قلوب المؤمنين على الإيمان بك وبذل النفس والمال في مناصرتك بعد التفرق والتعادي الذي كان أثر حروبٍ طويلة وضغائن موروثة، كما كان بين الأوس

---

(١) المراغي.

والخزرج من الأنصار.

وظاهر قوله[1]: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ العموم، وإنَّ ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيَّد الله بها رسوله. وقال جمهور المفسرين: المراد الأوس والخزرج، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة، فألَّف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ. وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والحمل على العموم أولىٰ؛ فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضاً، ولا يحترم ماله ولا دمه، حتى جاء الإسلام فصاروا يداً واحدة، وذهب ما كان بينهم من العصبية. وجملة قوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ـ أي: لو بذلت يا محمد ما في الأرض من معادنها وزخارفها ﴿جَمِيعًا﴾ لتحصيل التأليف والجمع بينهم ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ما قدرت على تحصيل التأليف والتوفيق بين قلوبهم، جملة مقررة لمضمون ما قبلها.

والمعنى: أنَّ ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال، ولو أنفق الطالب له جميع مافي الأرض.. لم يتم له ما طلبه من التأليف؛ لأنَّ أمرهم في ذلك قد تفاقم جدّاً، أي[2]: إنه لولا نعمة الله عليهم بأخوة الإيمان التي هي أقوى من أخوة الأنساب والأوطان.. لماأمكنك أن تؤلِّف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، فالضغائن الموروثة والدماء المسفوكة في الأنصار لا تزول بالأعراض الزائلة، وإنَّما تزول بصادق الإيمان الذي هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، كما أن التآلف بين أغنياء المهاجرين وفقرائهم وأشرافهم وعامتهم على ما كان بينهم من فوارق في الجاهلية وجمع كلمة البيوت والعشائر مع رسوخ العدوات والإحن.. لم يكن مما ينال بالمال والآمال في المغانم ونحوها، على أن شيئاً من ذلك لم يكن في يد الرسول ﷺ أول الإسلام، وإن كان قد صار في يده شيء كثير منه في المدينة بنصر الله له في قتال المشركين واليهود جميعاً.

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.

وكذلك جمع كلمة المهاجرين والأنصار على ما يدل[1] به كل منهما بميزة لا تتوافر لسواه، فالمهاجرون لهم مزية القرب من الرسول، والسبق إلى الإيمان، والأنصار لهم ميزة المال والقوة، وإنقاذ الرسول وقومه من ظلم مشركي مكة، وإيواؤهم ومشاركتهم لهم في أموالهم، فكل هذا من عوامل التحاسد والتنازع، لولا فضل الله وعنايته. ومن ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: جمع بين قلوبهم بعظيم قدرته وبديع صنعه؛ إذ هداهم إلى الإيمان الذي دعوتهم إليه فتألفت قلوبهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يستعصي عليه أمر من الأمور؛ أي: إنه تعالى الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين، ولا كيد الماكرين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره ونفوذ نهيه وأمره وفي جميع أفعاله، فينصر الحق على الباطل، ويفضل الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ليس تكراراً لما قبله، فإن الأول مقيد بإرادة الخداع؛ حيث قال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ فهذه كفاية خاصة، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، كفاية عامة غير مقيدة.

والواو في قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف، والمعنىٰ حينئذٍ: حسبك الله وحسبك المؤمنون، أي: كافيك الله وكافيك المؤمنون. ويحتمل أن تكون بمعنى مع، كما تقول: حسبك وزيداً درهمٌ، والمعنى: كافيك وكافي المؤمنين الله؛ لأنَّ عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى كافٍ لك يا محمد كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم وكافٍ لمن اتبعك وأيدك من المؤمنين من المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى الأخير أرجح وأوضح من الأول وإن كان من حيث العربية ضعيفاً. وقيل: يجوز أن

---

(١) يقال: دل بعطائه إذا افتخر به على أقرانه اهـ م ج.

يكون المعنىٰ: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله، على كونه مبتدأ خبره محذوف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم والرسول الرحيم ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حث المؤمنين ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾؛ أي: على قتال أعدائهم ورغبهم فيه؛ لدفع عدوان الكفار وإعلاء كلمة الحق والعدل أهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما.

والخلاصة: حثهم على ما يقيهم أن يكونوا حرضاً أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين.

ثم بشرهم؛ تثبيتاً لقلوبهم وتسكيناً لخواطرهم بأنَّ الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار، فقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾؛ أي: إن يوجد منكم أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟﴾؛ أي: يقهروا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم ﴿مِاْئَتَيْنِ﴾ من الكافرين الذين جرِّدوا من هذه الصفات الثلاث، أي: إن يكن منكم عشرون.. فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مئتين ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوٓا۟﴾ ويقهروا ﴿أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهذا وعد من الله تعالى وبشارة بأنَّ الجماعة من المؤمنين إن صبروا.. غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده.

والخلاصة[1]: ليصبرن الواحد لعشرة، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية سواء قلوا أو كثروا، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم إذا بدؤوهم بالقتال.

وإنما يجب هذا الحكم عند حصول هذه الشروط المذكورة[2]:

منها: أن يكون المؤمن شديد الأعضاء قوياً جلداً.

ومنها: أن يكون قوي القلب، شديد البأس، شجاعاً غير جبان.

ومنها: أن يكون غير متحرف لقتالٍ، أو متحيزٍ إلى فئة، فعند حصول هذه

(١) المراغي. (٢) المراح.

الشروط وجب على الواحد أن يثبت للعشرة.

والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ سببية متعلقة بـ ﴿يَغْلِبُوٓا﴾ في الموضعين، أي: أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة، بسبب أنَّهم، أي: أنَّ الكفار قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر، لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب، وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل في إقامة سننه العادلة، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة الدنيوية، أو الشهادة والسعادة الأخروية. وأنتم تقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالىٰ، وإعلاءً لكلمته، وابتغاءً لمرضاته، وهم إنما يقاتلون للحمية الجاهلية وإثارةً للعدوان، وهم يعتمدون على قوتهم، والمسلمون يستغيثون بربهم بالتضرع، ومن كان كذلك.. كان النصر أليق به.

وبالجملة: فحالهم يخالف حالكم في كل ما تقدَّم، ولا سيما منكري البعث والجزاء منهم، كمشركي العرب في ذلك العصر واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية وحب الشهوات، فهم أحرص على الحياة منكم؛ لعدم اعتقادهم بسعادةٍ أخرويةٍ إلاَّ أنَّ أهل الكتاب يظنون أنَّهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم.

وفي الآية[1] إيماءٌ إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم، ومن ثم كانت المئة من الكافرين دون العشرة من المؤمنين الصابرين، وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى، حين كانوا يعملون بهداية دينهم، وكانوا بها أرباب ملك واسع وعزٍ وجاهٍ عريضٍ، ودانت لهم الشعوب الكثيرة، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية.. زال مجدهم وسؤددهم، وذهبت ريحهم، ونزع منهم أكثر ذلك الملك. ثم لمَّا شقَّ ذلك عليهم واستعظموه.. خفف عنهم، ورخص لهم؛ لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾؛ أي: في هذا الزمن الحاضر الذي قل فيه عددكم

(١) البيضاوي.

وعدتكم.. ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَنكُمْ﴾ أيها المؤمنون أمر القتال، ورفع عنكم ما فيه مشقة ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في الأبدان عن قتال عشرة أمثالكم، لا في الإيمان؛ لكثرة العبادة والتعب، فرحمكم الله وأكرمكم بالتخفيف، وأيضاً علم الله سبحانه وتعالى ضعف من يأتي بعد الصدر الأول عن القتال، فخفف الله عن الجميع ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾؛ أي: يوجد منكم ﴿مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ على شدائد القتال ﴿يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾؛ أي: يتغلبوا على مئتين من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ على شدائد القتال ﴿يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾؛ أي: يتغلبوا على مئتين من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾؛ أي: وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة القتال.. ﴿يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ﴾، أي: يتغلبوا على ألفين من الأعداء. وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بإرادته وتيسيره: متعلقٌ بـ ﴿يَغْلِبُوٓا﴾ في الموضعين، وهو خبرٌ بمعنى الأمر؛ أي: فليثبت الواحد منكم لرجلين من الكفار، وقد استمر هذا الأمر إلى يوم القيامة. ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف بنصره ومعونته، فكيف لا يغلبون؟ قال[1] سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾ الآية.. شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرَّ الواحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ﴾ قال: فلمَّا خفف الله عنهم من العدة.. نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار، وتحريم الفرار عليه منهما، سواء طلباه أو طلبهما، وسواء وقع ذلك وهو واقفٌ في الصف مع العسكر، أو لم يكن هناك عسكرٌ.

والخلاصة: أنَّ أقل حال للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المئة

---

(١) المراغي.

منهم على المئتين، والألف على الألفين، وإنَّ هذه رخصة خاصة بحال الضعف، كما كان الحال كذلك في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات، وهو وقت غزوة بدر، حين كان المؤمنون لا يجدون ما يكفيهم من القوت، ولم يكن لديهم إلا فرسٌ واحدٌ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدِّين للحرب، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملي الأهبة والعدة.

ولمَّا كملت للمؤمنين القوة.. كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم، وما تمَّ لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده القدوة في ذلك، فقد كان الجيش الذي أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدي ثلاثة آلاف، وكان الجيش الذي قاتلهم من الروم ومتنصرة العرب مئةً وخمسين ألفاً.

وقد[1] قيل في نكتة التنصيص على غلب العشرين للمئتين، والمئة للألف: أنَّ سراياه ﷺ التي يبعثها كان لا ينقص عددها عن العشرين، ولا يجاوز المئة، وقيل: في التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المئة للمئتين، والألف للألفين: بشارةٌ للمسلمين بأنَّ عساكر الإسلام يجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره، لا بقوتهم ولا جلادتهم، ثم بشرهم بأنَّه مع الصابرين، وفيه الترغيب إلى الصبر، والتأكيد عليهم بلزومه، والتوصية به، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر؛ لأنَّ من كان الله معه.. لم يستقم لأحد أن يغلبه. وقد اختلف أهل العلم: هل هذا التخفيف نسخ أم لا؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿حرص﴾ ـ بالصاد المهملة ـ وهو من الحرص، وهو قريب من قراءة الجمهور ـ بالضاد ـ.

وقرأ الكوفيون: ﴿يكن منكم مئة﴾ على التذكير فيهما، ورواها خارجة عن

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

نافع، وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وابن عامر على التأنيث، وقرأ أبو عمرو على التذكير في الأولىٰ، ولحظ ﴿يَغْلِبُوٓا۟﴾ والتأنيث في الثانية؛ ولحظ ﴿صَابِرَةٌ﴾ وقرأ الأعرج على التأنيث كلها، إلا قوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه على التذكير بلا خلاف، وقرأ المفضل عن عاصم: ﴿وعلم﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ والعربيان ـ أبو عمرو وابن عامر ـ والكسائي وابن عمر والحسن والأعرج وابن القعقاع وقتادة وابن أبي إسحاق: ﴿ضُعفا﴾ هنا وفي الروم ـ بضم الضاد وسكون العين ـ وقرأ عيسى بن عمر بضمهما، وحمزة وعاصم بفتح الضاد وسكون العين، وهي كلها مصادر وعن أبي عمرو بن العلاء: ضم الضاد لغة الحجاز، وفتحها لغة تميم. وقرأ ابن القعقاع: ﴿ضعفاء﴾ جمع ضعيف، كظريف وظرفاء، وحكاها النقاش عن ابن عباس.

الإعراب

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع بمعنى الماضي؛ أي: بمعنى رأيت؛ لأنَّ لو الامتناعية ترد المضارع ماضياً، كماأنَّ أن الشرطية ترد الماضي مضارعاً، وفاعله: ضمير يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، وهو محذوف، تقديره: ولو ترى حال الكفرة، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجوابها محذوف، تقديره: ولو ترى حال الكفرة ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.. لرأيت أمراً فظيعاً عجيباً، وجملة لو الشرطية: مستأنفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾. ﴿يَتَوَفَّى﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول مقدم على الفاعل للاهتمام به. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذْ. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾: معطوف على وجوههم، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الملائكة.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة لقول محذوف، تقديره: ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق. ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل النصب مقولٌ لذلك القول المحذوف، وجملة القول المحذوف في محل النصب على الحال على كونها معطوفة على جملة يضربون.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب ما قدمته أيديكم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: بما قدمته أيديكم ﴿وَأَنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله. ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾: خبر ليس، والباء زائدة. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: متعلق بظلام، وجملة أنَّ في تأويل مصدر معطوف على ما الموصولة على كونه مجروراً بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب ما قدمته أيديكم، وكائن بسبب عدم كون الله ظلاماً للعبيد.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر للمبتدإ محذوف، تقديره: دأب هؤلاء المشركين كائن كدأب آل فرعون، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَفَرُواْ﴾، والجملة الفعلية جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها تفسير لـ ﴿دأب آل فرعون﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل معطوف على كفروا؛ لأنَّ الفاء فيه عاطفة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أخذهم﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿قَوِيٌّ﴾: خبره. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبر ثانٍ لأنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة

لتعليل ما قبلها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب: ﴿أنَّ﴾ حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، وعلامة جزمه سكون ظهر على النون المحذوفة للتخفيف على حدِّ قول ابن مالك:

وَمِنْ مُضَارِعٍ لِكَانَ مُنْجَزِمْ   تُحْذَفُ نُونٌ وَهُوَ حَذْفٌ مَا ٱلْتُزِمْ

وحذفت الواو من ﴿يك﴾؛ لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ أصله: يكون، دخل الجازم عليه فسكنت النون، فالتقى ساكنان، فحذفت الواو؛ لالتقائهما، فصار يكن، ثم حذفت النون؛ للتخفيف، فصار: يك، واسمها: ضمير يعود على الله. ﴿مُغَيِّرًا﴾: خبرها. ﴿نِّعْمَةً﴾: مفعول مغيراً، وجملة يكون في محل الرفع خبر أن، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب عدم كون الله مغيراً نعمة. الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسببِ عدم تغيير الله نعمة أنعمها على قوم، والجملة اسمية مستأنفة ﴿أَنْعَمَهَا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب صفة لنعمة، ولكنها سببية. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَنْعَمَهَا﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية، ﴿يُغَيِّرُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾، أو صفة لها، تقديره: ما كان بأنفسهم من الحال، وجملة ﴿يُغَيِّرُوا۟﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى: تقديره: إلى تغييرهم ما بأنفسهم، الجار والمجرور متعلق بيكون، أو بمغيراً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿سَمِيعٌ﴾: خبر أول له. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر ثان له، وجملة أنَّ في محل الجر معطوفة على جملة أن في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ على قراءة الفتح، وعلى قراءة كسر همزة إن ـ فالجملة مستأنفة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: جار ومجرور خبر لمحذوف، تقديره: دأبهم كدأب آل فرعون، والجملة مستأنفة، كررت؛ للإطناب في الذم. ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على آل فرعون. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا﴾ والجملة مفسرة لدأب آل، فرعون لا محل لها من الإعراب ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾. ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: مفعول ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿أهلكنا﴾. ﴿وَكُلٌّ﴾: مبتد وسوَّغ الابتداء بالنكرة.. قصد العموم. ﴿كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة كان في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، وجمع الضمير في كانوا وفي ظالمين؛ مراعاةً لمعنىٰ ﴿كل﴾؛ لأنَّ كلاً متى قطعت عن الإضافة.. جاز مراعاة لفظها تارة ومعناها أخرى، وإنما اختير هنا مراعاة المعنىٰ؛ لأجل الفواصل، ولو روعي اللفظ فقط، فقيل: وكلٌّ كان ظالماً.. لم تتفق الفواصل اهـ «سمين».

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بشر ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿كَفَرُوا﴾: صلة الموصول. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ اعتراضية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين البدل والمبدل منه، أو معطوفةٌ على جملة الصلة، وعبارة أبي السعود هنا قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه، وتسجيل عليهم بكونهم من أهل الطبع، لا يلويهم صارف، ولا يثنيهم عاطف أصلاً، جيء به على وجه الاعتراض، لا أنه

عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾ داخلٌ معه في حيز الصلة التي لا حكم فيها بالفعل. انتهت.

﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من الموصول قبله بدل بعض من كل، أو عطف بيان له، أو خبر لمحذوف، تقديره: هم الذين. ﴿عَـٰهَدتَّ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب، ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة الصلة ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَنقُضُونَ﴾. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿يَنقُضُونَ﴾.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِمَّا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور من نقض العهد، وأردت بيان ما تفعل معهم.. فأقول لك: ﴿إما تثقفنهم﴾. ﴿إما﴾ ﴿إنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾ الزائدة ﴿ما﴾ زائدة لتأكيد معنى الشرط. ﴿تثقفن﴾ فعل مضارع في محل الجزم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿فِى ٱلْحَرْبِ﴾ متعلق به ﴿فَشَرِّدْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب جملة طلبية ﴿شَرِّد﴾: فعل أمر في محل الجزم بإن الشرطية على كونه جواباً لها مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِهِم﴾: متعلق بشرد. ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول شرِّد. ﴿خَلْفَهُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة الموصول، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ في محل الرفع خبر لعل، وجملة لعل في محل النصب مقولٌ لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقةً لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط. ﴿ما﴾ زائدة. ﴿تَخَافَنَّ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بأن مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾: متعلق به. ﴿خِيَانَةً﴾: مفعول به. ﴿فَانۢبِذْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية ﴿انبذ﴾ فعل أمر في محل الجزم بإن مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعوله محذوف، تقديره: عهدهم. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متعلق بانبذ. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: حال من الفاعل الذي هو ضمير انبذ، والمفعول الذي هو ضمير إليهم، تقديره: حالة كونك وكونهم مستوين في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به؛ لئلا يتهموك بالغدر، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها، وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ خبرها، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓاۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿سَبَقُوٓا﴾ في محل النصب مفعول ثان لحسب، ومفعولها الأول محذوف، تقديره: أنفسهم، والمعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾ في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُم﴾ متعلق به. ﴿مَّا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على المفعولية. ﴿ٱسْتَطَعْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة صلةٌ لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما

استطعتموه. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ جار ومجرور حال من ما الموصولة، أو من العائد المحذوف، تقديره: حالة كونه بعض قوة. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿تُرْهِبُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تُرْهِبُونَ﴾: في محل النصب حالٌ من فاعل ﴿أعدوا﴾، تقديره: حالة كونكم مرهبين لهم، ويجوز أن يكون حالاً من مفعوله وهو الموصول؛ أي: أعدوه حال كونه مرهباً به.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾: معطوف على ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾. ﴿مِن دُونِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لآخرين. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به؛ لأنَّ علم هنا بمعنى عرف، والجملة في محل النصب صفة ثانية لـ﴿آخرين﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب صفة ثالثة لآخرين. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم لـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿تُنفِقُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بما، على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: حال من ﴿ما﴾. ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ ﴿تُنفِقُوا۟﴾. ﴿يُوَفَّ﴾: فعل مضارع مغيّر الصيغة في محل الجزم بـ ﴿ما﴾، على كونه جواب شرط لها، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿وَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير إليكم؛ أي: يوف إليكم حالة كونكم غير مظلومين فيه، وجملة ما الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿جَنَحُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بإن، على كونه فعل شرط لها. ﴿لِلسَّلْمِ﴾: متعلق به. ﴿فَٱجْنَحْ﴾:

﴿الفاء﴾ رابطة لجواب إن الشرطية ﴿اجنح﴾ فعل أمر في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿لَهَا﴾: متعلق به، وجملة إن الشرطية مستأنفة. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿فَٱجْنَحْ﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول لإنَّ. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يُرِيدُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَخْدَعُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بإن المصدرية، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿يُرِيدُوٓا۟﴾، تقديره: وإن يريدوا خداعهم إياك، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فصالحهم ولا تخش منهم، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ ﴿فَإِنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿إن﴾ حرف نصب. ﴿حَسْبَكَ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبرها، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ لأنَّ جملتها مسوقة لتعليل الجواب المحذوف، كما قدَّرناه آنفاً. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿أَيَّدَكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول. ﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿أَيَّدَكَ﴾. ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوف على الجار والمجرور قبله.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَأَلَّفَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿أَيَّدَكَ﴾، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَلَّفَ﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف شرط. ﴿أَنفَقْتَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول

﴿أَنفَقْتَ﴾. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلةٌ لما، أو صفةٌ لها. ﴿جَمِيعًا﴾: تأكيدٌ لما الموصولة، أو حال منها، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿أَلَّفْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لو الشرطية، وجملة لو الشرطية مستأنفة. ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَلَّفْتَ﴾. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾. ناصب واسمها. ﴿أَلَّفَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لكن، وجملة لكن معطوفة على جملة لو الشرطية. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان لها، وجملة إن مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء، ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفةٌ. ﴿حَسْبُكَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره، والجملة الاسمية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. وقال[1] قوم: ﴿حَسْبُكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله؛ أيْ: يكفيك الله. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: في ﴿مَنِ﴾ ثلاثة أوجه من الإعراب:

أحدها: جره عطفاً على الكاف في ﴿حَسْبُكَ﴾؛ أي: حسبك يا محمد وحسب من اتبعك من المؤمنين.. الله. وهذا الوجه في المعنى أوضح وأظهر وأسلم من الإشكال، ولكن هذا الوجه من حيث العربية لا يجوز عند البصريين؛ لأنَّ العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار لا يجوز عندهم، كما قال ابن مالك:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَىٰ عَطْفٍ عَلَىٰ ضَمِيْرِ خَفْضٍ لاَزِمَاً قَدْ جُعِلاَ

والثاني: موضعه نصب بعامل محذوف دلَّ عليه الكلام، تقديره: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، وهذا الوجه واضح أيضاً.

---

(١) العكبري.

والثالث: موضعه رفع، وهو على وجهين:

أحدهما: أنَّه معطوف على لفظ الجلالة، فيكون خبراً آخر للمبتدأ، كقولك: القائمان زيد وعمرو، ولم يثن حسبك؛ لأنه مصدر. وقال قوم: هذا الوجه ضعيف من حيث المعنى؛ لأنَّ الواو للجمع، ولا يحسن ههنا، كما لا يحسن في قولهم: ما شاء الله وشئت، وثم هنا أولى، إلا أن يقال: إن الواو هنا بمعنى ثم.

والثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: وحسبك من اتبعك من المؤمنين من حيث النصر، ولا يلزم على هذا الوجه التشريك بين الله وبين غيره؛ لأنَّ الكلام جملتان.

وليس فيه اعتماد على غير الله؛ لأنَّ المؤمنين ما التفت إليهم إلا لإيمانهم وكونهم حزب الله، فرجع الأمر فيهم إلى الله. انتهى أبو البقاء مع زيادة وتصرف.

﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ فعل ومفعول، وفعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور حال من فاعل اتبعك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على النبي، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿حَرِّضِ﴾ ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع تام بمعنى يوجد، مجزوم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق به. ﴿عِشْرُونَ﴾ فاعل. ﴿صَٰبِرُونَ﴾: صفة لـ ﴿عِشْرُونَ﴾، ويصح أن تكون ﴿يَكُن﴾ ناقصة. ﴿يَغْلِبُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه جواب الشرط لها. ﴿مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية مستأنفة مسوقة لتغليل ما قبلها.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إِن يَكُن﴾: جازم. ومجزوم. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق

به ﴿مِّائَةٌ﴾: فاعل. ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية على كونه جواباً لها. ﴿أَلْفًا﴾. مفعول به، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة إن الأولى ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لِـ ﴿أَلْفًا﴾، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أنَّ﴾ حرف نصب، و﴿الهاء﴾ اسمها. ﴿قَوْمٌ﴾: خبر أنَّ، وجملة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمٌ﴾، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب عدم فقههم. الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَغْلِبُوٓاْ﴾ في الموضعين.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرف للزمان الحاضر في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني على الفتح؛ لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنى حرف التعريف، والظرف متعلق بـ ﴿خَفَّفَ﴾ الآتي. ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿خَفَّفَ﴾ ﴿وَعَلِمَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَفَّفَ﴾ ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيكُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لأن ﴿ضَعْفًا﴾ اسم أنَّ مؤخر، وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسدَّ مفعولي ﴿علم﴾، تقديره: وعلم كون ضعف فيكم ﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفصيل. ﴿إن﴾ حرف شرط جازم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع تام مجزوم بـ ﴿إن﴾ ﴿مِّنكُم﴾: متعلق به ﴿مِّائَةٌ﴾: فاعل ﴿يَكُن﴾. ﴿صَابِرَةٌ﴾: صفة مئة. ﴿يَغْلِبُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿مِائَتَيْنِ﴾: مفعول به، وجملة إن الشرطية من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة ﴿خَفَّفَ﴾ على كونها مفصلة لها. ﴿وَإِن يَكُن﴾: جازم ومجزوم. ﴿مِّنكُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَلْفٌ﴾: فاعلٌ. ﴿يَغْلِبُوٓا﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن على كونه جواباً لها. ﴿أَلْفَيْنِ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها تفصيلاً لـ ﴿خَفَّفَ﴾. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَغْلِبُوٓا﴾ في الموضعين. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: ظهورهم وأقفيتهم. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ والذوق: قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم. والحريق: بمعنى المحرق ـ فعيل بمعنى مفعل ـ ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: بذي ظلم، ففعال صيغة نسب، على حد قول ابن مالك:

وَمَـعَ فَـاعِـلٍ فِـعَـالٌ وَفُـعِـلْ فِيْ نَسَبٍ أَغْنَىٰ عَنِ ٱلْيَا فَقُبِلْ

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: وفي «المصباح»: ثقفت الشيء ثقفاً ـ من باب تعب ـ أخذته، وثقفت الرجل في الحرب: أدركته، وثقفته: ظفرت به، وثقفت الحديث: فهمته بسرعة، والفاعل ثقيفٌ، وبه سمي حيٌّ من اليمن اهـ. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾؛ أي: نكل بهم تنكيلاً يشرد غيرهم من ناقضي العهد، يقال: شرد إذا فرق وطرد، والمشرد: المفرق المبعد. ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: والنبذ: الطرح والرمي. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي: على طريق واضح، لا خداع فيه ولا خباءة ولا ظلم. ﴿سَبَقُوٓاْ﴾؛ أي: أفلتوا من الظفر بهم ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾؛ أي: لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم، بل سيجزيهم على كفرهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾: الإعداد: تهيئة الشيء للمستقبل. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾: والمراد بالقوة: جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو، فكل ما هو آلة يستعان به في الجهاد.. فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها. ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾: والرباط ـ بكسر أوله في الأصل ـ: مصدر سماعي لرابط؛ لأنَّ فعالا لا يكون مصدراً قياسياً إلا إذا كان الفعل يقتضي الاشتراك، كقاتل وخاصم، وهنا ليس كذلك، وفي «السمين»: وقال الزمخشري: والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن تسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط بمعنى مربوط، كفصيلٍ وفصالٍ، والمصدر هنا مضافٌ لمفعوله اهـ. والرباط والمربط: الحبل الذي تربط به الدابة، ورباط الخيل: حبسها واقتناؤها. وفي «المصباح»: ربطته رباطاً من باب ضرب، ومن باب قتل لغة ـ شددته. والرباط: ما تربط به القربة وغيرها، والجمع ربط، مثل: كتاب وكتب، ويقال للمصاب: ربط الله على قلبه بالصبر، كما يقال: أفرغ الله عليه الصبر؛ أي: ألهمه.

والرباط: اسم من رابط مرابطة ـ من باب قاتل ـ إذا لازم ثغر العدو، والرباط الذي يبنى للفقراء مولد، ويجمع في القياس على رُبُط ـ بضمتين ـ ورباطات اهـ.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾: والإرهاب والترهيب: الإيقاع في الرهبة، وهي الخوف المقترن بالاضطراب. ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ﴾: يقال: جنح للشيء وإليه: إذا مال، يقال: جنحت الشمس إذا مالت إلى جانب الغرب الذي تغيب في أفقه، يقال: جنح ـ من باب دخل وخضع ـ جنوحاً، والجنوح: الميل، وجنحت الإبل: أمالت أعناقها، ويقال: جنح الليل إذا أقبل، قال النضر بن شميل: جنح الرجل إلى فلان ولفلان إذا خضع له، والجنوح: الاتباع أيضاً لتضمنه الميل، ومنه الجوانح للأضلاع لميلها على حشوة الشخص، والجناح من ذلك؛ لميلانه على الطائر اهـ. «سمين». ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾: وفي «المصباح»: والسلم ـ بكسر السين وفتحها ـ، ويذكَّر ويؤنَّث، الصلح وضد الحرب، والإسلام دين السلم والسلام، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: التحريض في اللغة: الحث على الشيء بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه، كأنه في الأصل إزالة الحرض، وهو الهلاك اهـ. «الخازن». وفي «البيضاوي»: الحرض: أن ينهكه المرض حتى يشرف على الموت اهـ. وفي «المصباح»: حرض حرضا ـ من باب تعب ـ إذ أشرف على الهلاك، فهو حرض ـ بفتح الراء ـ تسميةً بالمصدر مبالغةً، وحرّضته على الشيء تحريضاً اهـ. وفي «المختار»: والتحريض على القتال: الحث عليه اهـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ لأنه كناية عن ضرب أجسادهم، فهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل. وفي قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ لأن المعنىٰ: بما قدمته أنفسكم، فاليد هنا عبارة عن القدرة، وحسن هذا المجاز كون اليد آلة العمل، والقدرة هي المؤثرة، فحسن جعل اليد كناية عن القدرة اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ لأنَّ الذوق حقيقة في المطعومات، فشبه مباشرة العذاب بذوق الطعام بجامع الوصول إلى المقصود في كل.

ومنها: الاعتراض التذييليُّ المقرر لمضمون ما قبله في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، وفي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، وفي قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ ﴿يَغْلِبُوا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التخييلية في قوله: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ لأن النبذ حقيقة في الطرح، وهو هنا مجاز عن إعلامهم بأن لا عهد بعد اليوم، فشبه العهد بالشيء الذي يرمى لعدم الرغبة فيه، وأثبت النبذ له تخييلاً.

ومنها: الاحتباك الذي هو من المحسنات البديعية في قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ والاحتباك هو أن يحذف من كلٍّ من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر. وفي «الكرخي»: وأثبت في الشرطية الأولى قيداً ـ وهو ﴿صَابِرُونَ﴾ ـ وحذفه من الشرطية الثانية، وأثبت في الثانية قيداً ـ وهو ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ـ وحذفه من الأولى، والتقدير: مئتين من الذين كفروا، ومئة صابرة، فحذف من كل منهما ما أثبت في الآخر، وهو غاية الفصاحة، وهذا الاحتباك جارٍ في الجمل المذكورة بعد قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع منها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٧٥)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ...﴾: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ[1] لمَّا ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها.. أردف ذلك بذكر أحكام الأسرىٰ، لأنَّ أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالباً، كما وقع في وقعة بدر، كما يقع في كل زمان.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه لمَّا أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى.. شقَّ عليهم أخذ أموالهم، فأنزل الله هذه الآية؛ استمالةً لهم وترغيباً في الإسلام، ببيان ما فيه

---

(١) المراغي.

من خير الدنيا والآخرة، وتهديداً وإنذاراً لهم ببقائهم على الكفر وخيانته، وبشارة للنبي ﷺ بحسن العاقبة والظفر له ولمن تبعه من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم وما يجب أن يعمل مع الأسرى.. ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضهم لبعض، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث.

أسباب النزول

قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الحاكم (ج ٣/ ص ٣٣٩) قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي حدثنا سعيد بن مسعود حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر، فقال: قومك وعشيرتك، فخلِّ سبيلهم. فاستشار عمر، فقال: اقتلهم. قال: ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، قال: فلقي النبيُّ ﷺ عمر قال: «كاد أن يصيبنا بلاءٌ في خلافك»، هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت على شرط مسلم.

وروى[1] ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر.. جيء بالأسارى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة:

(١) المراغي.

أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس ـ وهو يسمع ما يقول ـ أقطعت رحمك؟ فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، فقال أناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال أناسٌ: يأخذ بقول عمر: وقال أناس: يأخذ: بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله ليلين قلوب رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾، ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وإنَّ مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾. أنتم عالةٌ، فلا يفلتن أحدٌ إلا بفداء أو ضرب عنق» فقال عبد الله رضي الله عنه: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء؛ فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ الحجارة مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ . . .﴾ إلى آخر الآيتين.

وروى[1] أحمد من حديث ابن عباس قال: لما أسروا الأسارى ـ يعني يوم بدر ـ قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟»، قال: لا والله، لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان ـ نسيبٌ لعمر ـ، فأضرب عنقه، ومكن فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد.. جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان،

---

(١) المراغي.

قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء.. أبكي، وإن لم أجد بكاءً.. تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ شجرةٍ قريبةٍ منه ـ وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾».

وفي هذا الحديث تصريحٌ بأنَّ الذين طلبوا منه ﷺ اختيار الفداء كثيرون، وإنّما ذكر في أكثر الرويات أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنَّه أول من أشار بذلك، ولأنه أكبرهم مقاماً، وروى ابن المنذر عن قتادة قال: أراد أصحاب محمدٍ الفداء يوم بدر، ففادوهم بأربعة آلاف «أربعة آلاف درهم».

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ سبب نزولها[1]: ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم تحلَّ الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها»، فلمَّا كان يوم بدر.. وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم، فأنزل الله ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ إلى آخر الآيتين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ...﴾ الآية، روى الحاكم والبيهقي في «سننه» وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنَّ هذه الآية نزلت في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسيراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر، فلم تبلغه النوبة حتى أسر، فقال العباس: كنت مسلماً إلا أنهم أكرهوني، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن يكن ما تذكره حقاً.. فالله يجزيك، فأما ظاهر أمرك.. فقد كان علينا» قال العباس: فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب عليَّ، فقال: «أمَّا شيء أخرجت لتستعين به علينا.. فلا»، قال وكلّفني رسول الله فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية، وفداء نوفل بن

---

(١) المراغي.

الحارث، فقال العباس: تركتني يا محمد أتكففَ قريشاً، فقال رسول الله ﷺ: أين الذهب الذي دفعته إلى أمِّ الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لا أدري ما يصيبني، فإن حدث بي حادث.. فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل؟»، فقال العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني ربي»، قال: فإني أشهد أنَّك صادقٌ، وأن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحدٌ إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، وأما إذ أخبرتني بذلك.. فلا ريب.

قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك إلى الآن عشرون عبداً، وإنَّ أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، وما أحب أنَّ لي بها جميع أموال مكة، وأنا انتظر المغفرة من ربي.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورِّث أرحامنا المشركين، فنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ...﴾ الآية، سبب نزولها ما أخرجه ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل، ترثني وأرثك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال: آخىٰ رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأُحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها.. لورثته، فنزلت هذه الآية: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ...﴾ الآية، فصارت المواريث ـ بعد ـ للأرحام والقرابات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء، وما يليق به، ولكن المراد به: النبي محمدٌ ﷺ بقرينة المقام. ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ من الكفار؛ أي: أن يحبس كافراً قدر عليه وصار في يده أسيراً، ويترك قتله للفداء والمنّ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: حتى[1] يبالغ ويكثر في قتال المشركين في نواحي الأرض ويغلبهم ويقهرهم، فإذا حصل ذلك.. فله أن يقدم على الأسر، فيأسر الأسارىٰ، بل اللائق به الآن قتلهم بلا فداء؛ إظهاراً لقوة المسلمين وعزة الإسلام. أخبر[2] الله سبحانه وتعالى أنَّ قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم، ثمَّ لما كثر المسلمون.. رخَّص الله في ذلك، فقال: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله تعالى.

والمعنى[3]: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء، إلا بعد أن يثخن في الأرض؛ أي: إلا بعد أن يعظم شأنه فيها، ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه؛ لأن الملك والدولة إنَّما تقوى وتشتد بالقتال والقتل، كما قال:

لاَ يَسْلَمُ ٱلشَّرَفُ ٱلرَّفِيْعُ مِنَ ٱلأَذَىٰ ... حَتَّىٰ يُرَاقَ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ ٱلدَّمُ

مع أنَّ كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام علىٰ ما لا ينبغي، ومن ثم أمر الله سبحانه به.

وخلاصة ذلك: أنَّ اتخاذ الأسرى إنَّما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل، ففي المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين، وفي الحالة العامة ـ التي تعم كلَّ معركة وكل قتال ـ فبإثخانهم في الأرض بالقوة العامة والسلطان الذي يرهب الأعداء.

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بما قبتضم من الفداء ﴿عَرَضَ﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ الفاني الزائل ونفعها، وسمي عرضاً؛ لأنَّه سريع الزوال كما تزول الأعراض التي هي مقابل الجواهر، أي: تريدون بأسركم عرض الدنيا، وهو المال الذي تأخذونه من الأسرىٰ فداءً لهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُرِيدُ﴾ ويرضى لكم ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: ثواب الآخرة الباقي بما يشرِّعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما دمتم تعملون بها، التي منها الإثخان بالقتل، ويدخل في ذلك: الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة على إرادة الإثخان في الأرض والسيادة فيها؛ لإعلاء كلمة الحق، وإقامة العدل.

وفي ذلك إنكارٌ لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التي تقتضيها الحكمة والرحمة، وما كان للنبي ﷺ إقرار مثل هذا العمل، ومن ثم عاتبهم الله سبحانه وتعالى بما فعلوا بعد بيان سنة النبيين، كما عاتب رسوله أيضاً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يغالب، يغلب أولياءه على أعدائه، وينصرهم عليهم، ويجعل الغلبة لهم، ويمكنهم من أعدائهم قتلاً وأسراً ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبَّره لخلقه، يعلم ما يليق بكل حال، كما أمر بالإثخان، ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخير بين أخذ الفداء وبين المنِّ لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين، ولا تتم لهم العزة.. إلا بتقديم الإثخان في الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية، بمثل فداء الأسرى من المشركين، وهم في عنفوان قوتهم وشوكتهم وكثرتهم.

وعلى هذه القاعدة[1]: جرت الدول العسكرية في العصر الحديث، فإذا رأت من البلاد التي تحتها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة.. نكلت بأهلها أشد التنكيل، فتخرِّب البلاد وتقتل الأبرياء مع المشاغبين، بل لا تتعفف عن قتل النساء والأطفال بنيران المدافع وقذائف الطائرات والدبابات، ولكنَّ الإسلام ـ

(١) المراغي.

وهو دين الرحمة والعدل ـ لا يبيح شيئاً من ذلك.

وقرأ أبو الدرداء وأبو حيوة[1]: ﴿ما كان للنَّبي﴾ معرفاً، والمراد به في التعريف والتنكير: الرسول محمدٌ ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً، وهو هنا على حذف مضاف؛ أي: ما كان لأصحاب نبيٍّ، أو لأتباع نبي، فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع بعده في قوله: تريدون عرض الدنيا، ولم يجيء التركيب: تريد أو يريد عرض الدنيا؛ لأنَّه ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قط، وإنَّما فعله جمهور مباشري الحرب. وقرأ أبو عمرو: ﴿أن تكون﴾ على تأنيث لفظ الجمع، وباقي السبعة والجمهور على التذكير على المعنى، لكن في قراءة[2] التاء الفوقية.. تتعين الإمالة في ﴿أسرى﴾، وعلى قراءة الياء التحتية تجوز الإمالة وتركها. اهـ.

وقرأ الجمهور والسبعة. ﴿أَسْرَىٰ﴾ على وزن فعلىٰ، وهو قياس فعيل بمعنى مفعول إذا كان آفةً، كجريح وجرحى. وقرأ يزيد بن القعقاع والمفضل عن عاصم: ﴿أسارى﴾ وشبِّه فعيلٌ بفعلان، نحو كسلان وكسالى، كما شبهوا كسلان بأسير فقالوا فيه جمعاً: كسلى، قاله سيبويه، وهما شاذَّان، وزعم الزجاج أنَّ أسارىٰ جمع أسرىٰ، فهو جمع جمع.

وقرأ أبو جعفر ويحيىٰ بن يعمر ويحيىٰ بن وثَّاب: ﴿حتى يثخِّن﴾ مشدَّداً، ﴿عدوه﴾ بالتضعيف، والجمهور بالتخفيف، وعدوه بالهمزة؛ إذ كان قبل التعدية ثخن. وقرئ: ﴿يريدون﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿الآخرة﴾ بالنصب، وقرأ سليمان بن جمَّاز المدني بالجر، واختلفوا في تقدير المضاف المحذوف، فمنهم من قدره: عرض الآخرة، قال: وحذف لدلالة عرض الدنيا عليه، قال بعضهم: وقد حذف العرض في قراءة الجمهور، وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، فنصب. وممن قدره عرض الآخرة: الزمخشريُّ قال: على التقابل، يعني: ثوابها. انتهىٰ.

---

(1) البحر المحيط.
(2) الفتوحات.

فصل فيما يتعلق بعصمة الأنبياء

قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الأنبياء، وبيانه من وجوه:

الأول: أنَّ قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ صريح في النهي عن أخذ الأسارى، وقد وجد ذلك يوم بدر.

الوجه الثاني: أنَّ الله سبحانه وتعالى أمر النبيَّ ﷺ وقومه بقتل المشركين يوم بدر، فلمَّا لم يقتلوهم، بل أسروهم.. دلَّ ذلك على صدور الذنب منهم.

الوجه الثالث: أنَّ النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء، وهو محرمٌ، وذلك ذنب.

الوجه الرابع: أنَّ النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء، وخوف العذاب، وقرب نزوله.

والجواب عن الوجه الأول: أنَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. يدل على أنَّه كان الأسر مشروعاً، ولكن بشرط الإثخان في الأرض، وقد حصل؛ لأنَّ الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلاً من عظماء المشركين وصناديدهم، وأسروا سبعين، وليس من الإثخان في الأرض قتل جميع الناس، فدلَّت الآية على جواز الأسر بعد الإثخان، وقد حصل.

والجواب عن الوجه الثاني: أنَّ الأمر بالقتل إنما كان مختصاً بالصحابة، لإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه، وإذا ثبت أنَّ الأمر بالقتل كان مختصاً بالصحابة.. كان الذنب صادراً منهم، لا من النبي ﷺ.

والجواب عن الوجه الثالث: ـ وهو أنَّ النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرَّم ـ فنقول: لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرَّماً، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.. فهو عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه، ولا يدل على تحريم الفداء؛ إذ لو كان حراماً في علم الله تعالى.. لمنعهم من أخذه مطلقاً.

والجواب عن الوجه الرابع: ـ وهو أنَّ النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان ـ: يحتمل أن يكون لأجل أنَّ بعض الصحابة لمَّا خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر.. استوجب بذلك الفعل العذاب، فبكى النبي ﷺ؛ خوفاً وإشفاقاً من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل، وهو الأسر، وأخذ الفداء، والله أعلم.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ﴾: أي: لولا حكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَبَقَ﴾ إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده؛ لأنَّ هذا كان اجتهاداً منهم؛ لأنهم نظروا في أنَّ استبقاءهم ربَّما كان سبباً في إسلامهم، وأنَّ فداءهم يتقوى به على الجهاد، وخفي عليهم أنَّ قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم، أو ما كتب في اللوح من أنه لا يعذب أهل بدر، أو أنَّه لا يعذب قوماً لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم، و[1] فيما ذكر من الاستشارة دلالةٌ على جواز الاجتهاد، فيكون حجةً على منكري القياس.

وخبر المبتدأ بعد لولا محذوف وجوباً، تقديره: لولا كتاب من الله سبق موجودٌ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب شديد، ولكنَّه لم يمسكم؛ لسبق الكتاب بما ذكر آنفاً.

وقيل المعنى[2]: ولولا كتاب من الله تعالى سبق في علمه الأزلي أن لا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تسغفرونه من ذنوبكم.. لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم. وأخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال: اختلف الناس في أسارى بدر، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: فادهم، وقال عمر: اقتلهم، فقال قائل: أرادوا قتل رسول الله ﷺ وهدم الإسلام، ويأمره أبو بكر بالفداء! وقال قائل: لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه.. ما أمر بقتلهم.

فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر، ففاداهم، فنزل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن كاد ليمسنا في

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب.. ما أفلت إلا عمر».

وبعد أن عاتبهم الله سبحانه وتعالى على أخذ الفداء.. أباح لهم أكل ما أخذوه، وعدَّه من جملة الغنائم التي أباحها لهم في أول السورة، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ والفاء فيه عاطفة على محذوف، تقديره: قد أبيحت لكم الغنائم، فكلوا من كل ما غنتم وأخذتم من الكفار قهراً، سواء كان من الفدية المذكورة أو غيرها حالة كونه ﴿حَلَالًا﴾ لكم بإحلاله سبحانه لكم، وحالة كونه ﴿طَيِّبًا﴾؛ أي: مستلذاً في نفسه، لا خبث فيه، مما حرم لذاته، كالدم، ولحم الخنزير. روي أنهم أمسكوا عن الغنائم في بدر، ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت هذه الآية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمر ونهيه في المستقبل؛ أي: خافوا عقاب الله في أن تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس، كفاراً كانوا أو مسلمين قبل أن يحله لكم ربكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لذنبكم، بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أوَّلاً، لإعزاز الحق وأهله وإذلال الشرك وكبت حزبه ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم؛ إذ أباح لكم ما أخذتم وأباح لكم الانتفاع به.

وخلاصة ما تقدم من الآيات: أنه ليس من سنة الأنبياء ولا مما ينبغي لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين؛ لئلا يفضي أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم، ومافعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال.. كان ذنباً سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذي تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى وجعل كلمة الذين كفروا السفلىٰ، ولولا كتابٌ من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى، وعلى خلاف سننه.. لمسَّهم عذاب عظيم في أخذهم ذلك، وأنَّه أحلَّ لهم ما أخذوا، وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله تعالى لهم، والله غفور رحيم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الكريم والرسول الرحيم ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ وسلطتكم وقهركم ﴿مِنَ﴾ هؤلاء ﴿الْأَسْرَى﴾ الذين أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم

الفداء: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: إيماناً وعزماً على طاعة الله ورسوله في جميع التكاليف، وتوبةً من الكفر وجميع المعاصي.. ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى ويعوضكم في هذه الدنيا رزقاً ﴿خَيْرًا﴾ وأنفع لكم ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف منكم قبل الإيمان من كفركم وقتالكم لرسول الله ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن آمن وتاب من كفره وآثامه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين من أهل طاعته، فيشملهم بعنايته وتوفيقه، ويعدهم للسعادة في الدنيا والآخرة، وفي ذلك من الحض على الإسلام والدعوة إليه ما لا يخفىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ معرفاً وابن محيصن: ﴿من أسرى﴾ منكراً، وقتادة وأبو جعفر وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم وأبو عمرو من السبعة: ﴿من الأُسَارى﴾ - بضم الهمزة وفتح السين بعدها ألف - وبالإمالة. واختلف عن الحسن وعن الجحدري. وقرأ الأعمش: ﴿يثبكم خيراً﴾ من الثواب، وقرأ الحسن وأبو حيوة وشيبة وحميد: ﴿مما أَخذ﴾ مبنياً للفاعل.

ولمَّا ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيراً.. ذكر من هو على ضد ذلك منهم، فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾؛ أي: وإن يرد - يا محمد - هؤلاء الأسرى - الذين أسرتموهم في بدر وفاديتموهم بالمال - بما قالوا لك بألسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ﴿خِيَانَتَكَ﴾؛ أي: مخادعتك ومماكرتك، ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة.. فاعلم أنَّه ليس ذلك بمستبعد منهم؛ ﴿فـ﴾ إنَّهم ﴿قد﴾ فعلوا ما هو أعظم من ذلك، وهو أنَّهم ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا الأسر والظفر بهم بما أقدموا عليه من كفرهم بالله ومحاربتهم رسوله ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: مكَّنك منهم بأن نصرك عليهم في يوم بدر، فقتلت منهم من قتلت، وأسرت من أسرت ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم ونياتهم من الخيانة وضدِّها ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما

---

(١) البحر المحيط.

فعله بهم.

وحاصل معنى الآية: أي وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين.. فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال؛ فإنَّهم قد خانوا الله من قبل، فنقضوا الميثاق الذي أخذه الله على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية، وبما آتاهم من العقل الذي يتدبرون به سنن الله في خلقه، فيمكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم وعددك وعددهم، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد، والله تعالى عليم يعلم ما يضمرونه وما يستحقونه من عقاب، حكيم، يفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين، وفي الآية من العبر:

١ ـ أنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغي والعدوان.

٢ ـ أن فيها بشارةً للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التي علمت مما تقدم.

وبعد ما ذكر الله سبحانه وتعالى تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم، وما يجب أن يعمل مع الأسرى.. ختم السورة بذكر ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضىٰ الإيمان والهجرة، وما يلزم ذلك، وولاية الكافرين بعضهم لبعض؛ ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به.

وقسم المؤمنين أربعة أقسام، وبين حكم كل من تلك الأقسام ومنزلته من بينها:

١ ـ المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولىٰ قبل غزوة بدر إلىٰ صلح الحديبية.

٢ ـ الأنصار الذين كانوا بالمدينة، وآووا النبيَّ ﷺ والمهاجرين عند

هجرتهم إليهم.

٣ ـ المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤ ـ المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية.

وسمى الله سبحانه وتعالى المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم؛ لأنهم هجروا وتركوا أوطانهم وفارقوها؛ طلباً لما عند الله تعالى، وإجابةً لداعيه، وسمى الأنصار أنصاراً؛ لأنهم نصروا دين الله ورسوله ﷺ، فقال:

أولاً ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ من مكة إلى المدينة، وفارقوا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله ﷺ وسبقوا إلى الهجرة، بأن هاجروا قبل العام السادس عام الحديبية ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾؛ أي: بذلوا جهدهم وطاقتهم في الجهاد ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ؛ أي في طاعته؛ إعلاءً لكلمة الله التي هي الكلمة العليا كلمة الإسلام؛ أي: صرفوا أموالهم إلى السلاح وأنفقوها على المحتاجين وبذلوا أنفسهم بمباشرة القتال، وبالخوض في المهالك.

أمَّا ما كان من بذل الأموال.. فهو قسمان:

١ ـ ما ينفق في التعاون والهجرة، والدفاع عن دين الله ونصر دينه، وحماية رسول الله ﷺ.

٢ ـ ما يكون بسخاء النفس، بترك ما تركوه في أوطانهم عند خروجهم منها.

وما كان من بذل الأنفس.. فهو ضربان أيضاً:

١ ـ قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عددهم وعددهم.

٢ ـ ما يكون قبل القتال من احتمال المشاقّ، ومغالبة الشدائد، والصبر على الاضطهاد، والهجرة من البلاد، وما يصحب ذلك من سغب وتعب، ونحو ذلك.

ثانياً ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا﴾ الرسول محمداً ﷺ والمهاجرين؛ أي: أسكنوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة ﴿وَنَصَرُوٓاْ﴾ هم وأمنوهم من المخاوف، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين، شاركهم أهلها في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وقاتلوا من قاتلهم، وعادوا من عاداهم، ومن جراء هذا.. جعل الله حكمهم حكم المهاجرين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة ـ والإشارة إلى كل من الموصولين ـ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، أي: يكونون يداً واحدةً على الأعداء، ويكون حب كل واحد للآخر جارياً مجرى حبه لنفسه؛ أي: يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولَّونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال وما يتعلق به من الغنائم؛ لأنَّ حقوقهم ومرافقهم مشتركةٌ، ويجب عليهم كفاية المحتاج وإغاثة المضطر منهم، وقيل: بعضهم أولياء بعض في الميراث والنصرة، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

ثالثاً ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، وبالقرآن ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿مَا لَكُم﴾ أيها المهاجرون والأنصار ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾؛ أي: من ولاية الذين لم يهاجروا ونصرتهم وتعظيمهم، أو من ميراثهم بأن كان بينكم وبينهم قرابة وعصوبة ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ إلى المدينة، وما من ميراثكم لهم من شيء حتى يهاجروا، فإن هاجروا.. فلهم مثل مالكم من المناصرة أو الموارثة.

والمعنى: أنَّ المؤمنين المقيمين في أرض المشركين، وتحت سلطانهم وحكمهم ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم، أما من أسره الكفار من دار الإسلام.. فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السعي في فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضاً.

وقرأ الأعمش وابن وثَّاب وحمزة: ﴿ولايتهم﴾ بالكسر، وباقي السبعة والجمهور بالفتح، وهما لغتان، قاله الأخفش. وقيل: هي بفتح الواو، خاصَّة

بالنصرة والمعونة والنسب والدين، وبكسرها في الإمارة وتولي الأمور العامة؛ لأنَّها من قبيل الصناعات والحرف.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: وإن طلب منكم أيها المهاجرون والأنصار هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا النصرة لهم على المشركين ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لهم؛ أي: فواجب عليكم النصر لهم ﴿إِلَّا﴾ إن استنصروكم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍۭ﴾ من المشركين ﴿بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَهُم﴾؛ أي: وبين أولئك القوم ﴿مِّيثَٰقٌ﴾ وعهد على ترك القتال، كأهل مكة الذين بينكم وبينهم صلح الحديبية الذي عقدتموه لهم على ترك القتال عشر سنين فلا تنصروهم عليهم، ولا تنقضوا العهد الذي بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضي مدته؛ إذ الميثاق مانع من ذلك.

والمعنى: أنّه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار، أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وطلبوا نصركم عليهم.. فعليكم أن تساعدوهم بشرط: أن يكون الكفار حَرْبيِّين، لا عهد بينكم وبينهم، أما إن كانوا معاهدين.. فيجب الوفاء بعهدهم، ولا تباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بما تعلمون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره؛ كي لا يحل بكم عقابه، فعليكم أن تقفوا عند حدوده، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم، وتتوخوا فيها الحق والعدل، وتتقوا الهوى الذي يصد عن ذلك.

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرًّا وجهراً.. امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية، فشعار أهلها: الوفاء بالعهود، والبعد عن الخيانة والغدر. وقرأ السلمي والأعرج ﴿بما يعملون﴾ بالياء على الغيبة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريقٌ واحدٌ تجاه المسلمين، وإن كانوا شيعاً يعادي بعضهم بعضاً، فإن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود، فلمَّا ظهرت دعوة محمد ﷺ.. تعاونوا على إيذائه ومحاربته، والمشركون واليهود والنصارى لمَّا

اشتركوا في عداوة محمدٍ ﷺ.. صارت هذه الجهة سبباً لانضمام بعضهم إلى بعض، وقرب بعضهم من بعض، وتلك العداوة لمحض الحسد، لا لأجل الدين؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان في غاية الإنكار لدين صاحبه.

ولم يكن في الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يتولَّون المشركين وينصرونهم على النبي ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم، فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر، وفي هذا تعريض للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار ولا يتولونهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾؛ أي: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل بين المسلمين، ومن قطع المحبة بينهم وبين الكفار.. ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾؛ أي: تحصل فتنة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾؛ أي: ومفسدة عظيمة، فإنَّ المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم.. ربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار، وإنَّ المسلمين لو كانوا متفرقين.. لم يظهر منهم جمع عظيم، فيصير ذلك سبباً لجراءة الكفار عليهم، وقال ابن عطية: والفتنة: المحنة بالحرب وما أنجز معها من الغارات والجلاء والأسر، والفساد الكبير: ظهور الشرك. وقال[1] البغوي: الفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام اهـ. وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي: ﴿كثير﴾ ـ بالثاء المثلثة ـ وروي أنَّ الرسول ﷺ قرأ: ﴿وفسادٌ عريض﴾ وقال الزمخشري: أي: إنْ لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولِّي بعضهم بعضاً حتى في التوراث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرباتهم كلا قرابة.. تحصل فتنة في الأرض، ومفسدة عظيمة؛ لأنَّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدةً على الشرك.. كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً اهـ.

والخلاصة[2]: إنْ لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، ومن

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم، ومن الوفاء بالعهود - والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم وينبذوه على سواءٍ. . يقع من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم، بتخاذلكم الذي يفضي إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم، واضطهادكم في دينكم بصدكم عنه، كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة.

ثم فضل الله سبحانه وتعالى المهاجرين والأنصار على غيرهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وَجَٰهَدُوا۟﴾؛ أي: قاتلوا الكفار ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طاعة الله تعالىٰ، لإعلاء كلمته. لم يقل هنا بأموالهم وأنفسهم؛ اكتفاءً بما سبق ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟﴾؛ أي: وطّنوا محمداً ﷺ وأصحابه بالمدينة ﴿وَّنَصَرُوٓا۟﴾ محمداً - عليه الصلاة والسلام - يوم بدر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ أي: صدقاً يقيناً؛ أي: هم المؤمنون حقَّ الإيمان وأكمله، دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تامة من ربهم، كاملة ساترة لجميع ما فرط منهم من السيئات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: ثواب جسيم وجزاء حسن في الآخرة؛ لأنهم قد تركوا الأهل والوطن، وبذلوا النفس والمال، وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية، وعملوا ما يقرِّبهم من ربهم في دار النعيم.

فإنْ قلت[1]: ما معنى هذا التكرار؟

قلتُ: ليس فيه تكرار؛ لأنَّه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى حكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً، ثم ذكر في هذه الآية ما منَّ به عليهم من المغفرة والرزق الكريم، وقيل: إنَّ إعادة الشيء مرةً بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به، فلما ذكرهم أولاً، ثم أعاد ذكرهم ثانياً. . دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلوِّ درجاتهم، وهذا هو الشرف العظيم.

---

(١) الخازن.

ثم أخبر سبحانه بأنَّ من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار.. فهو من جملتهم؛ أي: من جملة المهاجرين الأولين والأنصار في استحقاق ما استحقوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان، والمغفرة والرزق الكريم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ أي: من بعد الهجرة الأولىٰ، وقبل فتح مكة؛ لأنَّ الهجرة انقطعت بفتح مكة؛ لأنَّها صارت دار إسلام بعد الفتح ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة بعد المهاجرين الأولين، بأن هاجروا بعد صلح الحديبية في السنة السادسة، وقبل الفتح، والسابقون: هم الذين هاجروا قبلها ﴿وَجَٰهَدُوا مَعَكُمۡ﴾ في بعض مغازيكم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون ﴿مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: من جملتكم أيها المهاجرون الأولون والأنصار في المناصرة والموالاة، يعني[1] أنهم منكم، وأنتم منهم، فلهم مالكم، لكن فيه دلالةٌ على أنَّ مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة؛ لأنَّ الله سبحانه ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين، وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أنَّ المهاجرين الأولين أفضل وأشرف.. لما صحَّ هذا الإلحاق.

ثم بيَّن سبحانه بأنَّ أولي الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم وقرابة في التوارث والتناصر والموالاة، فقال: ﴿وَأُوْلُوا ٱلۡأَرۡحَامِ﴾؛ أي: أصحاب القرابات والأرحام، جمع رحم - بزنة قفل وكتف - وأصله: رحم المرأة، وهو موضع تكوين الولد، سمي به الأقارب لأنهم من رحم واحد؛ أي: وأولوا الأرحام، وأصحاب القرابات ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ﴾ وأحق ﴿بِبَعۡضٖ﴾ من المهاجرين والأنصار الأجانب في التناصر والتعاون والتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كلِّ عهد ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: في حكمه الذي كتبه، وأوجبه على عباده المؤمنين، من صلة الأرحام، والوصية للوالدين وذي القربىٰ، وفي حكمه الذي بينه في كتابه بالسهام المذكورة في سورة النساء، أي: بعضهم أولىٰ ببعض في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة المذكورة في الآية السابقة.

---

(١) الخازن.

والخلاصة[1]: أن القريب ذا الرحم أولىٰ من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره، ومقدم عليه في جميع الولايات المتعلقة به، كولاية النكاح، وصلاة الجنازة وغيرها، وإذا وجد قريبٌ وبعيد يستحقان البر والصلة.. فالقريب أولىٰ، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ابدأ بنفسك، فتصدق عليها؛ فإن فضل شيء.. فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك.. فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء.. فهكذا وهكذا»، أي: فللمستحق من الأجانب.

وأخرج[2] أبو داود الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخىٰ النبي ﷺ بين أصحابه، وورَّث بعضهم من بعض - بالهجرة والإخاء - حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب.

وتمسَّك أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام، وأجاب عنه الشافعي بأنه: لمَّا قال ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.. كان معناه في حكم الله الذي بيَّنه في سورة النساء، فصارت هذه الآية مقيَّدةً بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم، وما بقي فللعصبات ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه، فهو سبحانه إنَّما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة، والعهود والمواثيق، وصلة الأرحام، وأحكام القتال والغنائم، وسنن التشريع والأحكام عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

زادنا الله تعالى علماً بفقه كتابه، ووفَّقنا للعمل بأحكامه وآدابه، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه هو السميع القريب المجيب.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

أهم ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الأحكام

وجملة ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الموضوعات سبعة عشر:

١ ـ تعليل أفعاله وأحكامه بمصالح الخلق، كقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾.

٢ ـ كفاية الله تعالى رسوله مكر مشركي قريش من مكة حين ائتمارهم على حبسه طيلة حياته أو نفيه في بلده، أو قتله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٣ ـ امتناع تعذيب المشركين ما دام الرسول فيهم، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

٤ ـ استغاثة الرسول ربَّه، وإمداده بالملائكة، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

٥ ـ كراهة مجادلة الرسول فيما يأمر به، ويرغب فيه من أمور الدين ومصالح المسلمين بعد أن تبين لهم أنه الحق، كما قال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

أمَّا المجادلة والمراجعة في المصالح الحربية والسياسية قبل أن يتبين الحقُّ فيها.. فمحمودةٌ؛ إذ بها تتم المشاورة التي عمل بها النبي ﷺ في مواطن كثيرة.

٦ ـ أنَّ من شأن صادق الإيمان أن يتوكل على الله تعالى؛ أي: يكل إليه أموره وحده، فلا يتكل على مخلوق مربوب الخالق مثله، فكلُّ المخلوقات سواءٌ في الخضوع لسننه، ومن شأن المؤمن المتوكل أن يطلب كل شيء من سببه خضوعاً لسننه في نظام خلقه، فإذا جهل الأسباب أو عجز عنها.. وكل أمره فيها إلى ربه داعياً أن يعلمه ما جهل منها، وأن يسخِّر له ما عجز عنه من جمادٍ، أو حيوان، أو إنسان، كما قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وبيَّن فائدة ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٧ ـ أنَّ الظلم في الأمم يقتضي عقابها في الدنيا بالضعف والانحلال الذي قد يفضي إلى الزوال أو فقد الاستقلال، وإنَّ هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها، لا على مقترفي الظلم وحدهم، كما قال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

٨ ـ أنَّ الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد، فإنَّ حب المال والولد من الغرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف إذا لم تهذب بهدي الدين وحسن التربية والتعليم، كما قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

٩ ـ أن تقوى الله في الأعمال العامة والخاصة تكسب صاحبها ملكة يفرق بها بين الحق والباطل، والخير والشر، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

١٠ ـ أن تغير أحوال الأمم وتنقلها في الأطوار من نعم إلى نقم، أو بالعكس أثرٌ طبيعي لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والآداب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

١١ ـ وجوب إعداد الأمة بكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها، وذلك يشمل السلاح، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد كثرت أنواعه من بريٍّ وبحريٍّ وهوائيٍّ، ومرابطة الفرسان في ثغور البلاد؛ لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على الأمة ومصالحها، أو على أفرادها ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٢ ـ تفضيل السلم على الحرب إذا جنح لها العدو؛ لأنَّ الحرب ضرورةٌ من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

١٣ ـ المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق في الحرب والسلم، وتحريم الخيانة سراً وجهراً ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

١٤ ـ وجوب معاملة ناقض العهد بالشدة التي يكونون بها عبرةً ونكالاً لغيرهم تمنعهم من الجرأة والإقدام على العودة لمثل ذلك ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

١٥ ـ جعل الغاية من القتال الديني حرية الدين ومنع الفتنة فيه، حتى لا يرجع المشركون أحداً عن دينه ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

١٦ ـ إتقاء التنازع والتفرق حال القتال؛ لأنَّه سبب الفشل وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقد جرت على ذلك الدول في العصر الحديث، فإنها تبطل تنازع الأحزاب زمن الحرب، وتكتفي بالشورى العسكرية التي شرعها الإسلام، وعمل بها النبي ﷺ في غزوة بدر، وفرضت عليه في غزوة أحد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

١٧ ـ منع اتخاذ الأسرى ومفاداتهم بالمال في حال الضعف، وجواز ذلك حين الإثخان في الأرض بالقوة والعزة والسيادة، مع ترغيب الأسرى في الإيمان وإنذارهم أن يخونوا المسلمين بعد إطلاقهم بمنٍّ أو فداءٍ.

موضوعات السور المكية والمدنية

واعلم: أن أمهات المسائل التي ذكرت في السور المكية: هي أصول الإيمان من الاعتقاد بوحدانية الله، والتصديق بالوحي والرسالة والبعث والجزاء وقصص الرسل مع أقوامهم، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة، وجاء في أثناء محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول، ودحض شبهاتهم، وإبطال ضلالاتهم، والنعي على خرافاتهم.

وأمهات ما جاء في السور المدنية: قواعد التشريع التفصيلية ومحاجة أهل الكتاب، ببيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسلهم، فكثر في سورة البقرة محاجة اليهود، وكثر في سورة آل عمران محاجة النصارىٰ، وكثر في سورة المائدة محاجة الفريقين، وكثر في سورة النساء الأحكام المتعلقة بالمنافقين، وكثر

في سورة التوبة فضائح المنافقين، والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه ومعاني كلامه.

الإعراب

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية. ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص. ﴿لِنَبِيٍّ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لكان على اسمها ﴿أَن يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بأن المصدرية ﴿لَهُۥٓ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ليكون على اسمها ﴿أَسْرَىٰ﴾: اسم يكون مؤخر، والتقدير: ما كان لنبي أن يكون أسرى كائناً له، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان مؤخراً عن خبرها، تقديره: ما كان كون أسرى لنبي كائناً له؛ أي: لائقاً به، وجملة كان مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنى إلى. ﴿يُثْخِنَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى إلىٰ، وفاعله ضمير يعود على نبي ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتىٰ بمعنىٰ إلى تقديره: إلى إثخانه في الأرض، الجار والمجرور متعلق بكان. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: مبتدأ وخبر أول. ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿لَّوْلَا﴾ حرف امتناع لوجود ﴿كِتَـٰبٌ﴾ مبتدأ، وسوَّغ الابتداء بالنكرة وصفه بما بعده، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة أولىٰ لكتاب. ﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على كتاب، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لكتاب، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً: لقيام جواب لولا مقامه، تقديره: لولا كتابٌ من

الله سبق موجود ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، على حدِّ قول ابن مالك:

وَبَعْدَ لَوْلاَ غَالِبَاً حَذْفُ ٱلْخَبَرْ

﴿اللام﴾ رابطة لجواب لولا، ﴿مسَّكم﴾ فعل ومفعول. ﴿فِيمَآ﴾ ﴿في﴾ حرف جر وسبب ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بفي. ﴿أَخَذْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوفٌ، تقديره: فيما أخذتموه. الجار والمجرور متعلق بمسَّ. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل مسَّ. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة لعذاب، وجملة ﴿مسَّ﴾ جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة لولا مستأنفة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾.

﴿فَكُلُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ﴿كلوا﴾ فعل وفاعل، والجملة معطوفة على ذلك المحذوف. ﴿مِمَّا﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿كُلُوا۟﴾ ﴿غَنِمْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، والعائد محذوف، تقديره: مما غنمتموه. ﴿حَلَٰلًا﴾: حال من ما الموصولة، أو من عائدها المحذوف، أو نعت لمصدر محذوف، تقديره: أكلاً حلالاً. ﴿طَيِّبًا﴾: صفة حلالاً، أو حال ثانية. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معترضة؛ لاعتراضها بين العلة ومعلولها. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، وجملة إنَّ مستأنفة معلِّلة لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادىٰ نكرة مقصودة ﴿ها﴾ حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لأيُّ، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قُل﴾. ﴿فِىٓ أَيْدِيكُم﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿من﴾ الموصولة ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ حال مِنْ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، أو من الضمير المستكن في الظرف قبله.

﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل مجزوم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿يَعْلَمِ﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به؛ لأنَّ علم هنا بمعنى عرف ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾: فعل ومفعولان، مجزوم بإنْ، على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، وجملة إنْ الشرطية في محل النصب مقول قل ﴿مِّمَّآ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرًا﴾. ﴿أُخِذَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ما ﴿مِنكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أُخِذَ﴾ وجملة ﴿أُخِذَ﴾ صلة لما، أو صفة لها. ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ على كونه جواباً لإن الشرطية، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ ﴿غَفُورٌ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، مجزوم على كونه فعل شرط لها. ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب وجوباً؛ لاقترانه بقد. ﴿قد﴾ حرف تحقيق. ﴿خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم على كونه جواباً لها. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة. ﴿فَأَمْكَنَ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة. ﴿أمكن﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، ومفعوله محذوف، تقديره: فأمكنك ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم معطوفة على جملة الجواب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمها ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة

الموصول. ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾: معطوفان على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ﴿أموالهم﴾. ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ أيضاً. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب، معطوف على الموصول الأول. ﴿ءَاوَواْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾: معطوف على ﴿ءَاوَواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ. ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدل من ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل بعض من كل ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر: في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿ءَامَنُواْ﴾: صلة الموصول ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾: معطوف عليه ﴿مَا﴾: نافية ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾: جار ومجرور، حال ﴿مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قُدِّمت عليها ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿شَيْءٍ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والتقدير: ما شيء كائن لكم حال كونه كائناً من ولايتهم، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره: جملة كبرى في ضمنها جملة صغرىٰ مستأنفة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية بمعنىٰ إلىٰ. ﴿يُهَاجِرُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور بحتىٰ بمعنىٰ إلىٰ، تقديره: إلى مهاجرتهم، والجار والمجرور متعلق بالاستقرار الذي تعلَّق به الخبر.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، في محل الجزم بإن، على كونه فعل شرط لها ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ متعلق به ﴿فَعَلَيْكُمُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب، ﴿عليكم﴾ خبر مقدم ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بإن على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: جار ومجرور، متعلق بالنصر ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، خبر مقدم. ﴿وَبَيْنَهُم﴾ معطوف عليه ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾: والعرض: ما يعرض ولا يدوم، سمي به حطام الدنيا؛ لأنَّه حدث قليل اللبث.

﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: اختلف[1] المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق، ما هو؟ على أقوال:

الأول: ما سبق في علم الله من أنَّه لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرَّمة على سائر الأمم.

والثاني: أنَّه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخَّر، كما في الحديث الصحيح: «إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، قد غفرت لكم».

القول الثالث: هو أنَّه لا يعذبهم ورسول الله ﷺ فيهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

القول الرابع: أنَّه لا يعذِّب أحداً بذنب فعله جاهلاً؛ لكونه ذنباً.

القول الخامس: أنَّه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

القول السادس: أنَّه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي، ولم يتقدم نهي عن ذلك، وذهب ابن جرير الطبري إلى أنَّ هذه المعاني كلَّها داخلة تحت اللفظ، وأنَّه يعمها.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾، أي: لأصابكم ولحلَّ بكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾؛ أي: بسبب ما أخذتم من الفداء، أو لأجل ما أخذتم. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: حسن إيمان، وصلاح نيةٍ وخلوص طوية ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾؛ أي: يعوضكم في هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم في الدنيا، أو ثواباً في الآخرة.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾؛ أي: مخادعتك، والخيانة: مصدر خان يخون، وأصل يائه الواو، فقلبت ياءً؛ لانكسار ما قبلها، ووقوع الألف بعدها.

---

(١) الشوكاني.

﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا﴾ أصله: أأووا ـ بهمزتين ـ أولاهما: همزة أفعل الرباعي، وثانيتهما: فاء الكلمة؛ لأنَّ ثلاثيه أوى بهمزة واحدة، يقال: أوى البيت، أو إلى البيت يأوي أوياً وإواءً نزل فيه، وآواه البيت يؤويه إيواءً: أنزله فيه.

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: يقرأ بكسر الواو وفتحها، قيل[1]: هما لغتان، وقيل: المكسور مصدرٌ؛ تشبيهاً بالعمل والصناعة، كالكتابة والإمارة اهـ. «بيضاوي». يعني: إنَّ فعالة ـ بالكسر في المصدر ـ إنما يكون في الصناعات، وما يزول كالكتابة والإمارة والزراعة والحراثة والخياطة والولاية.. ليست من هذا القبيل إلا على التشبيه اهـ. زكريا، والمفتوح: معناه الموالاة في الدين، وهي النصرة اهـ. «سمين».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾؛ لأنَّ الثخانة حقيقة في الغلظة والصلابة، فاستعمل هنا في لازمه الذي هو القوة.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ شبه منافع الدنيا ولذاتها بالعرض الذي هو من صفات الأجرام وأحوالها، بجامع عدم الثبات والدوام في كلٍّ، فاستعار لها لفظ عرض على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿الدُّنْيَا﴾ ولفظ ﴿الْآخِرَةَ﴾.

ومنها: الجناس المغاير بين ﴿خِيَانَتَكَ﴾ و﴿خَانُوا﴾ في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا﴾.

---

(١) الفتوحات.

ومنها: الجناس المماثل في: ﴿هاجروا﴾ ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟﴾، والمغاير في قوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة التوبة

سورة التوبة[1] مدنيةٌ بإجماع المفسرين، قال ابن الجوزي: سوى آيتين في آخرها ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، فإنَّهما نزلتا بمكة، وهي مئة وتسع وعشرون آية، وقيل: مئة وثلاثون آية، وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمةً، وعشرة آلافٍ وأربع مئة وثمان وثمانون حرفاً.

التسمية: ولهذه السورة أسماء عشرة[2]:

منها: سورة التوبة؛ لأنَّ فيها التوبة على المؤمنين.

ومنها: سورة براءة؛ لأنَّ فيها ذكر براءة الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ من المشركين، وهذان الاسمان مشهوران.

ومنها: المقشقشة، قاله ابن عمر؛ لأنَّها تقشقش من النفاق؛ أي تبرىء منه.

ومنها: المبعثرة؛ لأنَّها تبعثر عن أخبار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها.

ومنها: الفاضحة، قاله ابن عباس؛ لأنَّها فضحت المنافقين.

ومنها: سورة العذاب، قاله حذيفة.

ومنها: المخزية؛ لأنَّ فيها خزي المنافقين.

ومنها: المدمدمة؛ لأنَّ فيها هلاك المنافقين.

ومنها: المشردة؛ لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم.

ومنها: المثيرة؛ لأنَّها أثارت مخازي المنافقين، وكشفت عن أحوالهم،

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

وهتكت أستارهم.

وعن سعيد بن جبير قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تقول: ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها. قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: بل سورة النضير. أخرجاه في «الصحيحين».

فصلٌ في بيان سبب ترك كتابة البسملة في أول هذه السورة

وقد اختلف العلماء في سقوط البسملة من أولها على أقوال[1]:

عن المبرد وغيره أنَّه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهدٌ فأرادوا نقضه.. كتبوا إليهم كتاباً، ولم يكتبوا فيه بسملةً، فلمَّا نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين.. بعث بها النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب، فقرأها عليهم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت عليَّ بن أبي طالب: لِمَ لا تكتب في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾؟ قال: لأنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ ووضعتموها في السبع الطِّوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء.. دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر

---

(١) الشوكاني والخازن.

القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنَّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ ووضعتها في السبع الطوال.

وأخرج أبو الشيخ عن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن الأنفال وبراءة، أسورتان أم سورة؟ قال: سورتان.

وقال محمد بن الحنفية[1]، قلت لأبي - يعني عليَّ بن أبي طالب -: لِمَ لَمْ تكتبوا في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾؟ قال: يا بنيَّ إنَّ براءة نزلت بالسيف، وإن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمانٌ.

وسئل سفيان بن عيينة عن هذا، فقال: لأنَّ للتسمية رجَّةً، والرجة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين. وسئل أبي بن كعب عن هذا، فقال: إنَّها نزلت في آخر القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمر في كل سورة بكتابة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾، ولم يأمر في براءة بذلك، فضمت إلى الأنفال؛ لشبهها بها.

وقيل: إن الصحابة اختلفوا في سورة الأنفال وسورة براءة، هل هما سورة واحدةٌ أم سورتان؟ فقال بعضهم: سورة واحدة؛ لأنَّهما نزلتا في القتال، ومجموعهما معاً مئتان وخمس آيات، فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال. وقال بعضهم: هما سورتان. فلمَّا حصل هذا الاختلاف بين الصحابة.. تركوا بينهما فرجةً؛ تنبيهاً على قول من يقول إنهما سورتان، ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾؛ تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة، وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك، وهي آخر غزواته ﷺ، وقد كان الاستعداد لها وقت القيظ - أي: شدة الحر - زمن العسرة، وفي أثنائها ظهر من علامات نفاق المؤمنين ما كان خفيًّا. قيل: وأولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة، فأرسل النبيُّ ﷺ عليًّا ليقرأها على المشركين في الموسم.

---

(١) الخازن.

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وآخر سورة نزلت براءة. ثم اختلف[1] العلماء في ابتداء هذه السورة بها، فقال ابن حجر من الشافعية: بالحرمة. وقال الرملي: بالكراهة. وفي الأثناء: يكره عند الأول ويجوز عند الثاني، ومذهب مالك كذلك. وقد أشار إلى ذلك صاحب «الشاطبية» بقوله:

وَمَهْمَا تَصِلْهَا أَوْ بَدَأْتَ بَرَاءَةً ... لِتَنْزِيلِهَا بِالسَّيْفِ لَسْتَ مُبَسْمِلاَ
وَلاَ بُدَّ مِنْهَا فِيْ ٱبْتِدَائِكَ سُوْرَةً ... سِوَاهَا وَفِيْ ٱلأَجْزَاءِ خُيِّرَ مَنْ تَلاَ

ومما ورد في فضلها: ما أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ والبيهقي في «الشعب» عن أبي عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلَّموا سورة براءة، وعلِّموا نسائكم سورة النور.

ومنه ما رُوي: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما نزل عليَّ القرآن إلا آية آيةً، إلا سورة براءة وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإنَّهما نزلتا ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة».

الناسخ والمنسوخ فيها: قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة التوبة مدنية، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، فيها سبع آيات منسوخات:

أولاهنَّ: قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية (١ ـ ٣) التوبة، نسخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (٥) التوبة.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ الآية (٣٤) التوبة، نسخت بالزكاة الواجبة.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الآية (٣٩)، نسخت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ (١٣٣).

---

(١) الصاوي.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية (٤٣)، نسخت بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (٦٢) النور.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية (٨٠)، نسخت بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية (٦) المنافقون.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية (٧). هذه الآية والتي تليها منسوختان بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

المناسبة

مناسبة هذه السورة لما قبلها[1]: أنَّ سورة براءة كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما في أصول الدين وفروعه، وفي التشريع الذي جله في أحكام القتال والاستعداد له وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضي لذلك، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين

---

(١) المراغي.

المؤمنين بعضهم مع بعض، والكافرين بعضهم مع بعض، وأحوال المؤمنين الصادقين، والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضىٰ القلوب، فما بدىء به في الأنفال.. تمم به في براءة، وهاك أمثلةً لذلك:

١ ـ تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب.

٢ ـ ذكر في الأنفال صدَّ المشركين عن المسجد الحرام، وأنَّهم ليسوا بأوليائه، وجاء في براءة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات.

٣ ـ ذكرت العهود في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها.

٤ ـ ذكر في سورة الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة.

٥ ـ جاء في سورة الأنفال ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وفصل ذلك في براءة أتم تفصيل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم وضلالاتهم على الوجه الذي سبق تفصيله.. أردف ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم، والأمان الذي أعطي لهم للضرب في الأرض.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لـمَّا ذكر براءة الله ورسوله من المشركين وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض أحراراً، ثم ذكر

---

(١) المراغي.

دعوتهم إلى التوبة من الشرك وإنذارهم سوء العاقبة، ثم أمر بما يترتب على النبذ - وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التي وقتت بها - بمناجزة المشركين بكل أنواع القتال المعروفة في ذلك العصر، من قتل وأسر وحصر وقطع طرق الوصول عليهم إلا من يستجير بالرسول يسمع كلام الله، فإنه يجار حتى يسمعه.. أردف ذلك ببيان أنَّ هذا النبذ وما يترتب عليه إنَّما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين، أو دونه.

قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم، حتى مراعاة القرابة والوفاء، ونحوهما مما يمدح عندهم.. أردف ذلك بذكر السبب في هاتين الآيتين.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين عداوة المشركين للمؤمنين.. أردف ذلك بما سيكون من أمرهم بعدذلك، وهو لا يعدو أحد أمرين، فصلهما في هاتين الآيتين.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: هذه[2] الآيات الآتية التي أُمر عليٌّ بن أبي طالب بالنداء بها يوم النحر - وهي أربعون آية تنتهي إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ - براءة من جهة الله ورسوله، واصلة ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: هذه الآيات دالة على البراءة، أي: على التبري والتباعد من الله ورسوله، أي: على انقطاع الوصلة بينهما وبين المشركين، و﴿من﴾ ابتدائية، وقرىء شاذاً: ﴿من الله﴾ - بكسر النون - على أصل التقاء الساكنين، ذكره أبو البقاء. أي: تبرّؤ وتباعدٌ مبتدأ من الله ورسوله من عهود المشركين الناقضين للعهد؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد أذن في معاهدة المشركين،

---

(١) المراغي.
(٢) الفتوحات.

فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدهم، ثم إن المشركين نقضوا العهد، فأوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما يحذرهم من ذلك، وقيل لهم: اعلموا أنَّ الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم من المشركين، ونسب[1] البراءة إليهما من قبل أنَّه تشريع جديد شرعه الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ بتنفيذه، ونسب معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين - وإن كان الرسول هو الذي عقد العهد -؛ لأنه عقده بوصف كونه الإمام والقائد لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه، فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات، وللقادة من أهل الحل والعقد الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه منها ومن أحكام الحرب والصلح. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿براءةً﴾ بالنصب، قال ابن عطية: أي: الزموا، وفيه معنى الإغراء. وقال الزمخشري: اسمعوا براءةً، قال البغوي: لمَّا خرج رسول الله ﷺ[2] إلى تبوك.. كان المافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمره الله بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير[3]: اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، ومن له عهد دون أربعة أشهر فيكمَّل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهدٌ مؤقت.. فأجله إلى مدته مهما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ولما سيأتي في الحديث «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ.. فعهد إلى مدته» وهذا أحسن الأقوال وأقواها، واختاره ابن جرير رحمه الله اهـ.

رُوي[4]: أنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يحجَّ سنة تسع، فقيل له: إن المشركين يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فقال: «لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»، فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، وبعث

---

(١) المراغي.
(٢) البغوي.
(٣) ابن كثير.
(٤) المراح.

معه أربعين آية من صدر براءة، ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليًا على ناقته العضباء، ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يؤذِّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله ﷺ من كل شرك، ولا يطوف بالبيت عريانٌ، فسار أبو بكر أميراً على الحجاج، وعليٌّ بن أبي طالب يؤذِّن ببراءة، فلمَّا كان قبل يوم التروية بيوم.. قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس، وحدثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحجَّ، والعرب في تلك السنة على معاهداتهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج، حتى إذا كان يوم النحر.. قام عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذَّن في الناس بالذي أمر به، وقرأ عليهم أول سورة براءة، وقال عليٌّ: بعثت بأربع: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد.. فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد.. فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في الحج، فقال المشركون لعليٍّ عند ذلك: أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وإنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح، وضرب بالسيوف. ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر حجة الوداع، وقال: «إن الزمان قد استدار...» الحديث.

وقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ مقول لقول محذوف، هو خطاب من الله تعالى للمؤمنين مبين لما يجب عليهم أن يقولوه للمشركين الذين برىء الله ورسوله من عهودهم؛ أي: فقولوا أيها المسلمون للمشركين: سيحوا في الأرض؛ أي: سيروا في نواحي الأرض كيف شئتم، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين، لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتل ولا قتال مدة أربعة أشهر، تبتدىء من عاشر ذي الحجة من سنة تسع للهجرة ـ وهو يوم النحر الذي بلِّغوا فيه هذه الدعوة ـ وتنتهي في عاشر شهر ربيع الآخر من سنة عشر. قال الكلبي: إنّما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك.. فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

والحكمة في تحديد هذه المدة[1]: ليكون لهم فسحة من الوقت للنظر والتفكير في عاقبة أمرهم، والتخير بين الإسلام والاستعداد للقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم، وهذا منتهى ما يكون من السماحة والرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين، حتى لا يقال: إنه أخذهم على غرة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: غير فائتي عذاب الله تعالى، وأن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم، بل للطف بكم؛ ليتوب من تاب منكم؛ أي: اعلموا أني أمهلتكم وأطلقت لكم، فافعلوا كل ما أمكنم فعله من إعداد الآلات وتحصيل الأسباب، فإنكم لا تعجزون الله، بل الله يعجزكم ويأخذكم؛ لأنكم في ملكه ﴿وَ﴾ اعلموا أيضاً ﴿أن الله﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب.

والمعنى[2]: واعلموا أنَّكم لن تعجزوا الله تعالى، ولن تفوتوه فتجدوا مهرباً منه إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله، بل سيسلط عليكم المؤمنين ويؤيِّدهم بنصره الذي وعدهم به، والعاقبة للمتقين، فقد جرت سنة الله بخزي الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة، كما جاء في مشركي مكة ومن نحا نحوهم: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ خبر لمحذوف، تقديره: أي وهذه الآيات الآتي ذكرها أذان وإعلام صادر من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ واصل ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ كافة، غير مختص بقوم دون قوم، واقع ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وهو يوم العيد؛ لأنَّ فيه تمام معظم أفعال الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي، وعن[3] علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر،

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) الخازن.

فقال: «يوم النحر» أخرجه الترمذي، قال: ويروى موقوفاً عليه، وهو أصح. وعن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: «أيُّ يوم هذا؟» فقالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» أخرجه أبو داود. وقيل: هو يوم عرفة؛ لأنَّ الوقوف بعرفه معظم أفعال الحج، ويروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب.

ووصف الحج بالأكبر؛ احترازاً عن العمرة، فهي الحج الأصغر، لأنَّ أعمالها أقلُّ من أعمال الحج؛ إذ يزيد عليها بأمور، كالرمي والمبيت، فكان أكبر بهذا الاعتبار.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ على حذف الجار، والتقدير: أي: هذه الآيات أذان وإعلام صادر من الله ورسوله إلى الناس كافة بأن الله سبحانه وتعالى بريء من موالاة المشركين الناقضين للعهد، ورسوله بريءٌ منهم أيضاً.

فإن قلت[1]: لا فرق بين قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١﴾ وبين قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ فما فائدة هذا التكرار؟

قلت: المقصود من الآية الأولى: البراءة من العهد، ومن الآية الثانية: البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد، والذي يدل على صحة هذا الفرق: أنَّه قال في أولها ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى﴾ يعني بريءٌ إليهم، وفي الثانية: بريء منهم.

والمعنى: وهذا الآتي من الآيات إعلامٌ[2] من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ بالبراءة من عهود المشركين وموالاتهم وسائر خرافات شركهم وضلالهم في وقت يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام، وهو يوم الحج الأكبر الذي هو يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، ويجتمع فيه الحجاج لإتمام مناسكهم في مِنى.

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.

وقرأ الضحاك وعكرمة وأبو المتوكل[1]: ﴿وإذْن﴾ بكسر الهمزة وسكون الذال. وقرأ الحسن والأعرج: ﴿إن الله﴾ بكسر الهمزة والفتح على تقدير: بأن والكسر على إضمار القول على مذهب البصريين، أو لأن الأذان في معنى القول، فكسرت على مذهب الكوفيين، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي وأبو رزين وأبو مجلز وأبو رجاء ومجاهد وابن يعمر: ﴿ورسولَه﴾ بالنصب عطفاً على لفظ اسم إنَّ، وأجاز الزمخشري أن ينصب على أنه مفعول معه، وقرىء بالجر شاذًا، ورويت عن الحسن، وخرجوا على العطف على الجوار، كما أنهم نعتوا وأكدوا على الجوار، وقيل: هي واو القسم، وهذا تخريج ضعيف جدًا، إذ لا معنى للقسم برسول الله ﷺ هنا مع ما ثبت من النهي عن الحلف بغير الله، وروي أن أعرابيًا سمع من يقرأ بالجر، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله.. فأنا بريءٌ منه: فلبَّبه القارىء إلى عمر، فحكى الأعرابيُّ قراءته، فعندها أمر عمر بتعليم العربية، وأما قراءة الجمهور بالرفع، فعلى الابتداء. والخبر محذوف؛ أي: ورسوله بريء منهم، وحذف لدلالة ما قبله عليه، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

ثم أكد ما يجب أن يبلِّغوه بلا تأخير بقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون من الشرك.. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: فالتوب خير لكم في الدارين لا شر؛ أي: قولوا لهم أيها المبلِّغون، فإن تبتم ورجعتم عن شرككم وعن خيانتكم وغدركم، بنقض العهد وقبلتم هدى الإسلام.. فذلك المتاب خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ في هدايته سعادتكم فيهما ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عن المتاب من الشرك ﴿فَاعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾، أي: غير فائتين من عذاب الله، فإن الله قادرٌ على إنزال أشد العذاب بكم، والمعنى: وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة.. فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه، ولا فائتيه، فلن تفلتوا من حكم سننه، ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغلب كما قال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وجحدوا رسالتك ولم

---

(١) الخازن.

يؤمنوا بالله وملائكته واليوم الآخر ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة وهذا من أنباء الغيب التي لا تعلم إلا بوحي من الله عز وجل، وفي استعمال البشارة فيما يسوء ويكره، ضرب من التهكم بهم، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، فالبشارة على سبيل الاستهزاء، كما يقال إكرامهم الشتم وتحيتهم الضرب، أو المعنى أخبرهم بالقتل بعد أربعة أشهر، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج[1]: إنه استثناء من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ الخ والتقدير: براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم، وقال في «الكشاف»: إنه مستثنى من قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والتقدير: فقولوا لهم: سيحوا في الأرض إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط الميثاق ولم يضروكم؛ أي: لم يقع منهم أيُّ نقص وإن كان يسيراً.

وفيه دليلٌ على أنه كان من أهل العهد من خان بعهده، ومنهم من ثبت عليه فأذن الله سبحانه لنبيه ﷺ، بنقض عهد من نقض وبالوفاء لمن لم ينقض إلى مدته ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾؛ أي: ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم، وقرأ عطاء بن السائب الكوفي وعكرمة وأبو زيد وابن السميقع ﴿ينقضوكم﴾ بالضاد المعجمة، وهو على حذف مضاف؛ أي: ثم لم ينقضوا عهدكم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، لدلالة الكلام عليه.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾؛ أي: إلى وقت أجلهم تسعة أشهر، كما سيأتي قريباً، والمعنى[2]: لا تمهلوا الناكثين للعهد فوق أربعة أشهر، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم، بل أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، بشرط أن لا ينقضوا شيئاً من شروط الميثاق، ولا يضاروكم ولا يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم؛ أي: فلا تجعلوا الوافين كالغادرين، وهم بنو ضمرة حيٌّ من كنانة، أمر الله رسوله ﷺ، بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، فإنهم ما غدروا من

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

هذين الوجهين.

وفي ذلك[1] إيماءٌ إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقوداً، وإلى أنَّ العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته، وإلى أنَّ من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدوِّ المعاهد لنا على ذلك العهد بحذافيره، بنصه وفحواه، فإن نقص شيئاً منه وأخل بغرض من أغراضه.. عد ناقضاً له، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ ويدخل في الإخلال مظاهرة أحد من الأعداء على المسلمين؛ لأن المقصود من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعامل بينهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين يتقون نقض العهد، وخفر الذمم وسائر المفاسد التي تخل بالنظام، وتمنع جريان العدل بين الناس.

وفي ذلك إيماء إلى أنَّ مراعاة حقوق العهد تدخل في حدود التقوى، وإلى أن التسوية بين الوفيِّ والغادر منافية لذلك، وإن كان المعاهد مشركاً.

وقد ورد في تنفيذ أمر الله بهذه البراءة والأذان بها؛ أي: التبليغ العلني، أحاديث في الصِّحاح، أشهرها: أنَّ النبي ﷺ جعل أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج سنة تسع، وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحجَّ أنهم يمنعون منه بعهد ذلك العام، ثم أردفه بعليٍّ كرم الله وجهه ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر، لينظروا في أمرهم، وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لنبذ العهود وما يتعلق بها، من أول سورة براءة وهي نحو أربعين آية.

وقد كان من عادة العرب أنَّ العهود ونبذها إنما يكون ممن عاقدها أو من أحد عصبته القريبة، وإنَّ عليًّا اختصَّ بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر، وكان يساعده على ذلك بعض الصحابة كأبي هريرة.

---

(١) المراغي.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذِّنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، ألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب: وأمره أن يؤذِّن ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾: أي: انقضى ومضى وخرج ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؛ أي: الباقي منها من وقت نبذ العهد، وهو يوم النحر، والباقي منها خمسون يوماً ينقضي بانقضاء المحرم، فالمراد بالأشهر الحرم على هذا المعنى الأشهر المعروفة التي هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ثلاثة سرد، واحدٌ فردٌ، وقد وقع النداء والنبذ إلى المشركين بعهدهم يوم النحر، فكان الباقي من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة، خمسين يوماً تنقضي بانقضاء شهر المحرم، فأمرهم الله تعالى، بقتل المشركين حيث يوجدون، وبه قال جماعة من أهل العلم، منهم الضحاك والباقر وروي عن ابن عباس واختاره ابن جرير.

وقيل: المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وسميت حرماً؛ لأن الله سبحانه حرَّم فيها على المسلمين دماء المشركين والتعرض لهم، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم، منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وغيرهم.

وقيل: هي الأشهر المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وقد روي ذلك عن ابن عباس وجماعة، ورجحه ابن كثير، وحكاه عن مجاهد وعمر وابن شعيب ومحمد ابن إسحاق وقتادة وغيرهم، وسيأتي بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين خاصَّةً ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: في أيِّ مكان وجدتموهم من حلٍّ أو حرم، وفي أيِّ وقت، قال الشوكاني[1]: وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك، لا يخرج عنها إلا من

(١) فتح القدير.

خصته السنة، وهو المرأة والصبي والعاجز الذي لا يقاتل، وكذلك يخصص منها أهل الكتاب، الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم، وهذه الآية نسخت كلَّ آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم. انتهى.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾؛ أي: وأسروهم والأخيذ الأسير ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾؛ أي: وامنعوهم من إتيان المسجد الحرام ومن التقلب في البلاد، وقرىء: ﴿وحاصروهم﴾ شاذًّا ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ﴾؛ أي: لأجل مراقبتهم ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: في كل ممر وطريق يسلكونه، لئلا ينبسطوا في البلاد.

والمعنى[1]: فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم عليكم فيها قتال المشركين.. فافعلوا معهم كل ما ترونه موافقاً للمصلحة، من تدابير الحرب وشؤونها؛ لأنَّ الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي منحتموه، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية:

١ - قتلهم في أي مكان وجدوا فيه من حل أو حرم.

٢ - أخذهم أسارى، وقد أبيح هنا الأسر الذي حظر في سورة الأنفال بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الإثخان، وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد.

٣ - حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمعقل أو حصن، بأن يحاط بهم، ويمنعوا من الخروج والانفلات، حتى يسلموا أو ينزلوا على حكمهم بشرط ترضونه، أو بدون شرط.

٤ - القعود لهم كل مرصد؛ أي: مراقبتهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه، ورؤية تجولهم وتقلبهم في البلاد.

وهذه الآية تسمى: آية السيف، إذ جاء الأمر فيها بالقتال، وقد كان مؤجلاً ومنسّأ إلى أن يقوى المسلمون، وكان الواجب عليهم في حال الضعف الصبر على الأذى.

---

(١) المراغي.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك الذي يحملهم على عدواتكم وقتالكم ودخلوا في الإسلام، بأن نطقوا بالشهادتين ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة كما تقيمونها في الأوقات الخمسة، والصلاة مظهر الإسلام وأكبر أركانه وهي مطلوبة من الغني والفقير والأمير والمأمور، وهي حق الله على عباده، تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم وتؤهلهم للقيام بحقوق عباده. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: وأدوا الزكاة المفروضة في أموال الأغنياء للفقراء والمصالح العامة ﴿فَخَلُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: واتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم، إذا كانوا مقاتلين، وبالكف عن حصرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكف عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما سبق من الشرك، وغيره من سيئاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ يرحمهم فيمن يرحم من عباده، وقد جاء في الأثر: «الإسلام يجب ما قبله».

وفي الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجبان لمن يؤدِّيهما حقوق المسلمين، من حفظ الدم والمال، إلا بما يوجب عليه الشرع من جناية تقتضي حدًّا معلوماً أو جريمةٍ توجب تعزيراً أو تغريماً.

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك.. عصموا مني دمائم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

والخلاصة: أن اشتراط الأشياء الثلاثة للكف عن قتال المشركين للتحقق من دخولهم في جماعة المسلمين بالفعل، والتزامهم شرائع الإسلام وإقامة شعائره، إذ مقتضى الشهادة الأولى: ترك عبادة غير الله تعالى، ومقتضى الشهادة الثانية: طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى، واكتفى من أركان الإسلام بالصلاة التي تجب في اليوم والليلة خمس مرات لأنها الرابطة الدينية والروحية

الاجتماعية بين المسلمين، وبالزكاة؛ لأنها الرابطة المالية الاجتماعية، فمن أقامهما.. كان أجدر بإقامة غيرهما.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرت بقتالهم وقتلهم بعد انقضاء الأشهر الحرم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾؛ أي: استأمنك؛ أي: طلب منك الأمان والجوار ليسمع كلام الله منك، أو لحاجة أخرى.. ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فأمنه حتى يسمع قراءتك لكلام الله، ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه، ونقل عن ابن عباس أنه قال: إن رجلاً من المشركين، قال لعلي بن أبي طالب: إن أردنا أن نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله، أو لحاجةٍ أخرى.. فهل نقتل؟ فقال علي: لا، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾؛ أي: ثم أوصله إلى ديار قومه التي يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم، ثم بعد ذلك يجوز قتالهم وقتلهم، والمعنى: اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، إلا من طلب منكم الأمان، ليعلم ما أنزل الله تعالى وأمر به من دعوة الإسلام، فإنَّ بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغاً مقنعاً، ولم يسمعوا شيئاً من القرآن، أو لم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة عليهم، فأعرضوا وعادوا الداعي وقاتلوه؛ لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشرك وتسفيه ما كان عليه آباؤهم منه.

والخلاصة: وإن استأمنك أيها الرسول الكريم أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله، ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه أو ليلقاك، وإن لم يذكر سبباً.. فأجره وأمنه على نفسه وأمواله؛ لكي يسمع أو لكي يراك، فإنّ هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فإن اهتدى وآمن عن علم وإقناع.. فذاك، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن فيه على نفسه، ويكون حُرًّا في عقيدته، حيث لا يكون للمسلمين سلطان عليه، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير غدر.

والمراد بالسماع: أن يسمع المقدار الذي تقوم به الحجة، ويتبين به بطلان الشرك، وحقيقة التوحيد، والبعث، وصدق الرسول في تبلغيه عن الله فإنه إذا ألقى إليه السمع.. لا يلبث أن يظهر له الحق إذا لم تصده العصبية والعدوان للداعي،

فإن لم يفعل ذلك.. كان له شأنه: وكانت له حريته، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين في دار الإسلام وهو على هذا الحال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إجارة المستجير من المشركين، وإعطاء الأمان له إلى أن يسمع كلام الله ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم قوم لا يعلمون﴾؛ أي: لا يفقهون ولا يدرون ما الكتاب وما الإيمان، وما أعرضوا إلا عن جهل وعصبيةٍ واغترارٍ بالقوة وإصرارٍ على الجفوة، فإذا هم شعروا بضعفهم وصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم، وطلبوا الأمان لهذا السبب أو لغرض آخر يترتب عليه إمكان تبليغهم الدعوة وإسماعهم كلام الله.. أجيبوا إلى ذلك؛ لأنَّ هذه الطريق المثلى لتعليمهم وهدايتهم، والرسول صلوات الله عليه إنما أرسل مبشراً ونذيراً.

وفي الآية إيماءٌ إلى أن التقليد في الدِّين غير كاف، وأنه لا بد من النظر والاستدلال؛ لأنه لو كان كافياً.. لوجب أن لا يمهل الكافر بل يقال له: إما أن تؤمن، وإما أن نقتلك؟ فأمهلناه ليحصل له النظر والاستدلال، فإن ظهر على المشرك علامات القبول للحق، ببحثه عن الدليل والتفكير فيه.. أمهل، وترك، وإن ظهر أنه معرض عن الحق.. لم يلتفت إليه ووجب تبليغه إلى مأمنه.

والاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ للتعجب المتضمن للإنكار والاستبعاد وفي الآية إضمار، والمعنى كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله يَأْمَنُون به من عذابه؟ أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد. وقيل[1] معنى الآية: محالٌ أن يثبت لهؤلاء عهدٌ، وهم أضدادٌ لكم مضمرون للغدر، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحدِّثوا به أنفسهم، ثم استدرك على ذلك فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؛ أي: عند قرب أرض الحرم يوم الحديبية، ولم ينقضوا ولم ينكثوا، فلا تقاتلوهم ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾؛ أي: فما داموا مستقيمين لكم على العهد الذي بينكم وبينهم

---

(١) الشوكني.

﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾؛ أي: فدوموا لهم على عهدهم ولا تقاتلوهم، قيل: هم بنو بكر، وقيل: بنو كنانة وبنو ضمرة، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد أحدٌ إلا قريش وبنو الدِّيل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض العهد، وهم بنو ضمرة، وهذا القول هو الصواب وإنما[1] كان صواباً؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد، وذلك قبل فتح مكة؛ لأن بعد الفتح كيف يقول لشيءٍ قد مضى: فما استقاموا لكم.. فاستقيموا لهم، وإنما هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ كما نقصكم قريشٌ ولم يظاهروا عليكم أحداً، كما ظاهرت قريشٌ بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله ﷺ، وجملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا، ويتقون نقضه، تعليلٌ للأمر بالاستقامة المذكور قبله والاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: تعجبيٌ إنكاري أيضاً كرره للتأكيد؛ والتقدير: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله، وعند رسوله، والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم؛ أي: إن يظفروا بكم ويغلبوكم ويعلوا عليكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾؛ أي: لا يحفظوا ولا يراعوا ﴿فِيكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلًّا﴾ أي: قرابة ورحماً، وقرىء ﴿إيلاً﴾ بوزن ريح ﴿وَلَا﴾ يراعون فيكم ﴿ذِمَّةً﴾؛ أي: عهداً؛ أي: لا يتركونكم لأجل القرابة التي بينكم وبينهم ولا للعهد الذي عاهدوه لكم.

والمعنى[2]: كيف لا تقتلونهم وهم إن يغلبوكم لا يحفظوا في شأنكم قرابةً ولا ضماناً، بل يؤذونكم ما استطاعوا، وقوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم عند عدم الظفر، فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...﴾ الخ. أي: يقولون بألسنتهم كلاما حلواً طيباً من الوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، مجاملةً لكم وتطيباً لقلوبكم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تمتنع قلوبهم ذلك الذي يقولونه بألسنتهم من الإيمان والوفاء بالعهد؛ أي تخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين، فإنهم لا يضمرون لكم

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

إلا الشر والإيذاء إن قدروا ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: كاذبون ناقضون للعهد خارجون عن الحق، مذمومون عند جميع الناس، وفي جميع الأديان، والمعنى: هم يخادعونكم[1]، حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسولٍ، يرون أنه يرضيكم، سواء أكان عهداً، أم وعداً أم أيماناً مؤكدة، وقلوبهم مملوءة ضغناً وحقداً ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فهم إن ظهروا عليكم. . نكثوا العهود وحنثوا بالأيمان وفتكوا بكم بقدر ما يستطيعون، وإنما يفعلون ذلك؛ لأنَّ أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء، فليس لهم مروءة رادعةٌ، ولا عقيدة وازعة، ولا يتعففون عن الغدر، وعما يجر إلى سوء الأحدوثة وثلم العرض، وإنما وصف الأكثر؛ لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهودهم، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى، وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم.

فإن قلت:[2] إن الموصوفين بهذه الصفة كفار، والكفر أخبث وأقبح من الفسق، فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم، وما الفائدة في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، مع أنَّ الكفار كلهم فاسقون؟

قلتُ: قد يكون الكافر عدلاً في دينه، وقد يكون فاسقاً خبيث الفسق في دينه، فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين: أنهم نقضوا العهد، وبالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم، فيكون أبلغ في الذم، وإنما قال: أكثرهم، ولم يقل: كلهم فاسقون؛ لأنَّ منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه، وأكثرهم نقضوا العهد، فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقيل[3]: معنى وأكثرهم: وكلهم فاسقون، قاله: ابن عطية والكرماني.

﴿اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾؛ أي: استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها؛ أي: تركوا آيات الله الآمرة بالاستقامة في كل أمر وأخذوا بدلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: عوضاً يسيراً من الدنيا لأجل تحصيل الشهوات، والمعنى استبدلوا آيات الله بالأعراض

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

الفانية والشهوات الزائلة، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء النبي ﷺ، وحملتهم تلك الأكلة على نقض العهد، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ، بسبب تلك الأكلة ﴿فَصَدُّوا﴾؛ أي: منعوا الناس عن ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: عن الدخول في دين الله تعالى، أو صدُّوا الناس عن سبيل البيت الحرام، حيث كانوا يصدُّون الحجاج والعمار عنه، أو معنى فصدوا عن سبيله؛ أي: فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بئس ما كانوا يعملونه من الشرك ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام.

وحاصل المعنى: أنهم[1] استبدلوا بآيات الله الدالة على توحيده بالعبادة وعلى الوحي والرسالة وما فيها من الهداية للناس وعلى البعث والجزاء على الأعمال ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش، وكثرة الأموال، فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام، وما يقتضيه من الوفاء، وصدوا غيرهم أيضاً، وجعله قليلاً؛ لأنه زائلٌ غير باق، وما عند الله باق دائم، وهو خير وأبقى، روي أن أبا سفيان لمَّا أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية.. صنع لهم طعاماً استمالهم به، فأجابوه إلى ما طلب ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: قبح عملهم الذي يعملونه، من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى، والصد عن دين الله، وما جاء به رسول الله ﷺ، من البينات والهدى.

وقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾؛ أي: لا يرقب هؤلاء المشركون الناقضون للعهد ولا يحفظون ﴿فِى مُؤْمِنٍ﴾ أيَّ مؤمن كان، سواء كان منكم أيها المخاطبون، أو من غيركم ﴿إِلًّا﴾؛ أي: قرابةً ورحماً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾؛ أي: ولا عهداً؛ أي: لا يلتفتون إلى قرابته ولا إلى عهده، إذا قدروا عليه.. قتلوه، فلا تبقوا أنتم عليهم، كما لا يبقوا عليكم إذ ظهروا عليكم، ولا تكرار[2] هنا؛ لأن الأول: على الخصوص،

(١) المراغي.
(٢) النسفي.

حيث قال: فيكم، والثاني: على العموم، حيث قال: في مؤمن، كما أشرنا إليه في الحل آنفاً؛ أي: ومن أجل هذا الكفر الذي رسخ فيهم لا يرعون في مؤمن يقدرون على الفتك به قرابةً تقتضي الود، ولا ذمةً توجب الوفاء بالعهد، ولا ربًّا يحرم الخيانة والغدر، فذنب المؤمن عندهم أنه لا ينقض عهداً ولا يستحل غدراً ولا يقطع رحماً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون الناقضون للعهد ﴿هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾؛ أي: المجاوزون للحلال إلى الحرام أو البالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى، والعلة في هذا رسوخهم في الشرك وكراهتهم للإيمان وأهله، فلا علاج لهم إلا الرجوع عن الكفر، والاعتصام بالإيمان، والتمسك بفضائل الأخلاق، وما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ أي: فإن رجع هؤلاء المشركون، الذين أمرتكم بقتالهم عن شركهم بالله تعالى، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أدوها بشروطها وأركانها ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة، كرر[1] هذا الشرط؛ لاختلاف جزائه مع جزاء الأول، إذ جزاء الشرط في الأول تخلية سبيلهم في الدنيا، وفي الثاني أخوَّتهم لنا في الدين، وهي ليست عين تخليتهم، بل سبيلها ﴿فـ﴾ هم ﴿إخوانكم في الدين﴾ الذي أمركم به، لَهُمْ مَالَكُمْ، وعليهم ما عليكم، وبهذه الأخوة يزول كل ما كان بينكم من إحن وعداوات، ولا تعارف أجمل من التعارف في المساجد؛ لإقامة الصلوات، وأداء الصدقات، بمواساة الغني للفقير، وهذه المزية الدنيوية كانوا محرومين منها، إذ كان بعضهم حرباً لبعض إلا ما كان من عهد أو جوار.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: وإنا نبين حجج آياتنا وأدلة أحكامنا، ونوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لقوم يفهمون ما نبين لهم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته، وهذه[2] الجملة اعتراضية، للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين، أو خصال

---

(١) الفتوحات.
(٢) البيضاوي.

التائبين، ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾؛ أي: نقضوا عهودهم التي بينكم وبينهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد ما عاهدوكم على أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم، والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد، كفار قريش، وفي «أبي السعود» ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ عطف[1] على قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ أي: وإن لم يفعلوا ذلك، بل نقضوا أيمانهم من بعد عهدهم الموثق بها، وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القول إلى حسبما ينبىء عنه، قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ﴾ الآية وثبتوا على ما هم عليه من النكث، لا أنهم ارتدوا بعد الإيمان كما قيل اهـ.

﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوا دينكم بالتكذيب، وتقبيح الأحكام، وفي هذا دليل على الذمي، إذا طعن في دين الإسلام وعابه ظاهراً لا يبقى له عهد، وعطف[2] ﴿وَطَعَنُواْ﴾ على ما قبله، مع أن نقض العهد كافٍ في إباحة القتل؛ لزيادة تحريض المؤمنين على قتالهم وقيل معناه: وإن نكثوا أيمانهم بطعنهم في دينكم فيكون عطف تفسيرٍ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: قاتلوا رؤساء المشركين وقادتهم، والمراد: قاتلوا الكفار بأسرهم، فإنهم صاروا بذلك ذوي تقدم في الكفر أحقاء بالقتل والقتال، قال ابن عباس[3]: نزلت في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش، وهم الذين نقضوا عهدهم، وهموا بإخراج الرسول، وقيل: أراد جميع الكفار، وإنما ذكر الأئمة لأنهم الرؤساء والقادة، ففي قتالهم قتال الأتباع، وقال مجاهد: هم فارس والروم، وقيل غير ذلك، وقال ابن عطية: أصوب ما في هذا أن يقال: إنه لا يعني بها معين؛ وإنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين للعهود من الكفرة إلى يوم القيامة من غير تعيين ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾؛ أي: إنهم لا عهود لهم على الحقيقة؛ لأنهم لا يعدون نقضها محذوراً، وهم لمَّا لم يفوا بها.. صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان، وإن أجروها على ألسنتهم.

---

(1) أبو السعود.

(2) زاده.

(3) الخازن.

والمعنى: أي وإن نكث[١] هؤلاء ما أبرمته أيمانهم من الوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم، واستهزؤوا به، وصدوا الناس عنه، ومن ذلك الطعن في القرآن، وفي النبي ﷺ، كما كان يفعل شعراؤهم، الذين أهدر النبي ﷺ، دماءهم.. فقاتلوهم، فهم أئمة الكفر، وحملة لوائه، المقدمون على غيرهم بزعمهم، فهم الأجدر بالقتل والقتال ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾؛ أي: إن عهودهم لا قيمة لها، فهي مخادعة لسانية، لا يقصد الوفاء بها، كما قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: قاتلوهم رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونكث الأيمان ونقض العهود، والعودة إلى قتالكم كلما قدروا عليه.

وفي ذلك[٢] إيماء: إلى أن القتال لا يكون اتباعاً لهوى النفس، أو إرادة منافع الدنيا، من السلب والنهب وإرادة الانتقام، وهذه مزيّة الإسلام إذ جعل الحرب ضرورةً لإرادة منع الباطل وتقرير الحق.

وقرأ الحرميان[٣] - نافع وابن كثير - وأبو عمرو: ﴿أيمة الكفر﴾ بإبدال الهمزة الثانية ياءً، وروي عن نافع مد الهمزة وقرأ باقي السبعة وابن أبي أريس عن نافع بهمزتين وأدخل هشام بينهما ألفاً، وأصله: أأممة، بوزن أفعلة، جمع إمام أدغموا الميم في الميم، فنقلت حركتها إلى الهمزة قبلها، وقرأ الجمهور: ﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الحسن وعطاء وزيد بن علي وابن عامر: ﴿لا إيمان لهم﴾ بكسر الهمزة؛ أي: لا إسلام وتصديق لهم ولا يعطون الأمان بعد النكث والطعن، ولا سبيل إليه، وبقراءة الفتح استشهد أبو حنيفة على أن يمين الكافر لا يكون يميناً، وعند الشافعي يمينهم يمين، وقال: معناه: أنهم لا يوفون بها.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

الإعراب

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: هذه الآيات الآتية براءة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ تقديره: صادرةٌ من الله ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾، معطوف على الجلالة، والجملة الاسمية مستأنفة ومتعلق المبتدأ محذوف اكتفاء بذكره في المنفي وفراراً من التكرار في اللفظ، تقديره: من المشركين؛ أي: من الوفاء بعهودهم إذا نقضوها. والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ كما تقول: برئت إليك من كذا، وقيل: إن ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نعت لها، و﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ خبرها ﴿عَٰهَدتُّم﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: عاهدتموهم ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ حال من الموصول، أو من العائد المحذوف.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَسِيحُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم براءة الله سبحانه، وبراءة رسوله ﷺ، من المشركين، وأردتم بيان ما تقولون لهم.. فأقول لكم: قولوا لهم: سيحوا في الأرض، ﴿سيحوا﴾ فعل وفاعل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق به، الجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف، وجملة القول المحذوف في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة ﴿فَسِيحُوا۟﴾ ﴿أَنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: واعلموا عدم إعجازكم الله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ خبره ومضاف إليه وجملة ﴿أن﴾ معطوفة على جملة ﴿أن﴾ الأولى.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهذه الآية الآتي ذكرها أذان ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة له، أو متعلق به ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أذان﴾ أو صفة له أيضاً، والتقدير: وهذه الآية الآتي ذكرها ﴿أذان﴾ صادر من الله ورسوله، واصل إلى المشركين ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ﴾: ظرف ومضاف إليه ﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ صفة لـ﴿ٱلۡحَجِّ﴾ والظرف متعلق بما تعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقيل[1]: متعلق بـ ﴿أذان﴾ وهو فاسد من وجهين:

أحدهما: وصف المصدر قبل عمله.

والثاني: للفصل بينه وبين معموله بأجنبي وهو الخبر. اهـ «سمين». ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿بَرِيٓءٌ﴾ خبره ﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ متعلق به وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: ببراءة الله من المشركين، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أذان﴾ ﴿ورسولُه﴾: بالرفع، باتفاق السبعة: مبتدأ خبره محذوف، تقديره: ورسوله بريء منهم، وحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ أو معطوف على الضمير المستتر في بريء أو معطوف على محل اسم ﴿أَنَّ﴾ وهذا[2] عند من يجيز ذلك في المفتوحة قياساً على المكسورة وقريء شاذاً بالجر على المجاورة، أو على أن ﴿الواو﴾ للقسم وقرىء شاذًا أيضاً بالنصب، على أنه مفعول معه.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم براءة الله ورسوله منكم، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم..

---

(١) الفتوحات.
(٢) الفتوحات.

فنقول لكم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تُبْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر و﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها ﴿لَّكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: فقولوا لهم أيها المبلِّغون: فإن تبتم.. فهو خير لكم ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿فَاعْلَمُوٓا﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿اعلموا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ والشرطية على كونه جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿أَنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ﴾ خبره ومضاف إليه، وجملة. ﴿إن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ﴾ فعل ومفعول به وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لعذاب.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل النصب على الاستثناء ﴿عَٰهَدتُّم﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول والعائد محذوف، تقديره: إلا الذين عاهدتموهم ﴿مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور حال من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ أو من العائد المحذوف ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف وترتيب ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ جازم وفعل وفاعل ومفعولان إن جعلنا ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولاً ثانياً ويجوز نصبه على المصدرية؛ أي: شيئاً من النقصان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق به ﴿أَحَدًا﴾ مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾. ﴿فَأَتِمُّوٓا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم هذا الاستثناء وأردتم بيان ما يلزمكم فيهم..

فأقول لكم: أتموا إليهم عهدهم ﴿أتموا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿أتموا﴾ على تضمينه بمعنى: أدوا إليهم ﴿عَهْدَهُمْ﴾، مفعول به ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿عَهْدَهُمْ﴾ تقديره: حالة كونه تاماً إلى انقضاء مدتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا قلتم لهم سيحوا في الأرض أربعة أشهر، وأردتم بيان حكمهم إذا انقضت تلك الأشهر.. فأقول ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلْحُرُمُ﴾: صفة له، والجملة في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إذا﴾ والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿فَٱقْتُلُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً ﴿اقتلوا المشركين﴾ فعل وفاعل، ومفعول والجملة، جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة ﴿حَيْثُ﴾ في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الضم، لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بـ ﴿اقتلوا﴾ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿حَيْثُ﴾ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿فَٱقْتُلُوا۟﴾ وكذلك قوله ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟﴾. معطوفان على ﴿فَٱقْتُلُوا۟﴾ ﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿اقعدوا﴾ ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ منصوب على الظرفية بـ ﴿اقعدوا﴾ أو بنزع الخافض والخافض[1] المقدر هو: على، أو الباء الظرفية، أو في.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم إن لم يتوبوا، فإن تابوا... إلخ ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿تَابُوا۟﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تَابُوا۟﴾ ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول معطوف عليه أيضاً، ﴿فَخَلُّوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿خَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية معطوفة على ذلك المحذوف ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لها ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿أَحَدٌ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً، يفسره المذكور بعده، تقديره: وإن استجارك ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿أَحَدٌ﴾ ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٌ﴾ والجملة: جملة مفسرة لذلك المحذوف، لا محل لها من الإعراب ﴿فَأَجِرْهُ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿أجره﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: فعل ومفعول منصوب بأن المضمرة وجوباً، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٌ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره إلى سماعه كلام الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿فَأَجِرْهُ﴾ ﴿ثم﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿أَبْلِغْهُ﴾ فعل ومفعول في محل الجزم، معطوف على ﴿أجره﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿أبلغ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿أنَّ﴾: حرف نصب و﴿الهاء﴾: اسمها ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمٌ﴾ وجملة

﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: سبب عدم علمهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائن بسبب عدم علمهم كلام الله تعالى ودينه والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿يَكُونُ﴾ مقدم عليه وجوباً للزومه الصدارة ﴿يَكُونُ﴾ فعل مضارع ناقص ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ ﴿عَهْدٌ﴾: اسم ﴿يَكُونُ﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَهْدٌ﴾؛ أي: عهد كائن عند الله، أو متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ ﴿وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾: معطوف على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وجملة ﴿يَكُونُ﴾ مستأنفة وقال أبو[1] البقاء: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ اسم يكون ﴿عَهْدٌ﴾ وفي الخبر ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كيف وقدم للاستفهام وهو مثل قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾.

والثاني: أنه للمشركين، و﴿عنده﴾ على هذين: ظرف للعهد، أو لـ ﴿يَكُونُ﴾ أو للجار أو هي وصف الـ ﴿عَهْدٌ﴾.

والثالث: الخبر عند الله وللمشركين تبين، أو متعلق بـ ﴿يَكُونُ﴾ و﴿كَيْفَ﴾ حال من الـ ﴿عَهْدٌ﴾ انتهى. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب على الاستثناء ﴿عَٰهَدتُّمْ﴾ فعل وفاعل ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ظرف متعلق به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: إلا الذين عاهدتموهم ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم الاستثناء المذكور، وأردتم بيان حكمهم.. فأقول لكم ﴿ما﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما

---

(١) العكبري.

﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿ما﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿لَكُمۡ﴾ متعلق به ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿استقيموا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿مَآ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿لَهُمۡۚ﴾ متعلق به، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية محل النصب مقول، لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾.

﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ليكون المحذوفة، تقديرها: كيف يكون عهد للمشركين عند الله وعند رسوله ﷺ، وجملة يكون المحذوفة: مستأنفة ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾ واو الحال و﴿إن﴾ حرف شرط ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلق به ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿فِيكُمۡ﴾ متعلق به ﴿إِلّٗا﴾ مفعول به ﴿وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ معطوف عليه وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب حال من المشركين المحذوف تقديره: كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، حالة كونهم لا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمة، إن يظهروا عليكم؟ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان حالهم عند عدم الظفر، فهو مقابل في المعنى لقوله: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ...﴾ إلخ ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿يُرۡضُونَكُم﴾ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿ثَمَنٗا﴾: مفعول به ﴿قَلِيلٗا﴾ صفة له، والجملة مستأنفة ﴿فَصَدُّواْ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿صدوا﴾

فعل وفاعل ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿اشْتَرَوْا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿سَآءَ مَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿سَآءَ﴾ محذوف تقديره: ساءهم إن قلنا ﴿سَآءَ﴾ متصرف متعد إلى المفعول بمعنى: عابهم ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كانوا يعملونه وجملة ﴿سَآءَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة وفي «الفتوحات»: يجوز في ﴿سَآءَ﴾ أن يكون على بابه من التصرف والتعدي، ومفعوله محذوف، أي: ساءهم الذي كانوا يعملونه، أو عملهم وأن يكون جارياً مجرى بئس، فيحول إلى فعل بالضم، ويمتنع تصرفه، ويصير للذم، ويكون المخصوص بالذم محذوفاً تقديره: عملهم هذا. اهـ. «سمين».

﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ متعلق به ﴿إِلًّا﴾ مفعول به ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ معطوف عليه ﴿وَأُولَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿الْمُعْتَدُونَ﴾ خبر والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَإِن تَابُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: هذا الحكم المذكور فيهم إن لم يتوبوا ﴿فَإِن تَابُوا...﴾ إلخ ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿تَابُوا﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ في محل الجزم معطوفان على تابوا ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً ﴿إخوانكم﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿إخوانكم﴾ والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿نفصل﴾ وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ مفعول به ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿وَطَعَنُواْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الجواب ﴿قاتلوا﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿لَآ﴾ نافية للجنس، تعمل عمل إن ﴿أَيۡمَٰنَ﴾ في محل النصب اسمها ﴿لَهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر ﴿لَآ﴾ وجملة ﴿لَآ﴾ النافية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه وجملة ﴿يَنتَهُونَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لعل﴾، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾: مأخوذ من برىء من الدين، يبرأ براءة، إذا أسقط عنه، وبرىء من الذنب ونحوه، إذا تركه وتباعد عنه، وأصل[1] البراءة في اللغة: انقطاع العصمة، يقال: برئت من فلان، أبرأ براءة؛ أي: انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علاقة، وقيل، معناها: هنا التباعد مما تكره مجاورته، ﴿عَٰهَدتُّم﴾ والمعاهدة[2]: عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها، وكان كل فريق يضع يمينه في يمين الآخر، ويوثقونها بالأيمان، ومن جراء ذلك سميت أيماناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؛ أي: لا عهود لهم ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والسياحة في الأرض: الانتقال والتجول فيها، ويراد بها هنا: حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر، لا يتعرض المسلمون لهم فيها بقتال، يقال: ساح فلان في الأرض، يسيح سياحة وسيوحاً وسيحاناً، ومنه سيح الماء في الأرض وسيح الخيل. ﴿غَيۡرُ

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

﴿مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تفوتونه بالهرب والتحصن ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ والخزي: الذل والفضيحة بما فيه عار ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والأذان: الإعلام بما ينبغي أن يعلم ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ هو يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، ويجتمع فيه الناس لإتمام مناسكهم.

﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: من شروط الميثاق، فلم يقتلوا أحداً منكم ولم يضروكم ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾؛ أي: لم يعاونوا ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ انسلاخ الشهر: تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي، كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المتزمن عن زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله: الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فأستعير لانقضاء الشهر، يقال: سلخت الشهر، تسلخه سلخاً وسلوخاً، بمعنى: خرجت منه، ويقال: سلخت المرأة درعها نزعته قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾.

والحُرُم: واحدها حرام، وهي الأشهر التي حرم الله فيها قتالهم في الأذان والتبليغ بقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾. ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، يقال: رصدت فلاناً، أرصده إذا ترقبته؛ أي: أقعدوا لهم على كل مرصد، قال أبو حيان[1] المرصد: مفعل من رصد يرصد، من باب قتل، يكون مصدراً وزماناً ومكاناً، وقال عامر بن الطفيل:

وَلَقَدْ عَلِمْتَ وَمَا أَخَالُكَ نَاسِيَاً ... أَنَّ الْمَنِيَّةَ لِلْفَتَىٰ بِالْمَرْصِدِ

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ يقال: استجاره إذا طلب جواره؛ أي: حمايته وأمانه، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه، حتى يسمون النصير جاراً ﴿فَأَجِرۡهُ﴾؛ أي: أمنه ﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾؛ أي: مسكنه الذي يأمن فيه على نفسه، وهو دار قومه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: ما الإسلام وما حقيقته، فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة.

﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ يقال: ظهر عليه، إذا غلبه وظفر به ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾

---

(١) البحر المحيط.

يقال: رقب الشيء إذا رعاه وحاذره؛ لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه، ومنه: فلان لا يرقب الله في أموره؛ أي: لا ينظر إلى عقابه ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ والإلُّ القرابة، قال ابن مُقْبل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا   قَطَّعُوا ٱلإِلَّ وَأَعْرَاقَ ٱلرَّحِمْ

وفي «السمين»[1] قوله: ﴿إِلًّا﴾ مفعولٌ به لـ﴿يَرْقُبُوا﴾. وفي ٱلإلِّ أقوال لأهل اللغة:

أحدها: أن المراد به العهد، قاله أبو عبيدة وابن زيد والسدّي.

الثاني: أن المراد به القرابة، وبه قال الفراء.

الثالث: أن المراد به الله تعالى؛ أي: هو اسمٌ من أسمائه.

الرابع: أنَّ الإلَّ الجؤار، وهو رفع الصوت عند التحالف، وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا.. جأروا بذلك جؤاراً.

الخامس: أنه من ألَّ البرق إذا لمع، ويجمع الإلُّ في القلَّة على أُلٍّ، والأصل أألُلٌ، بزنة أفلس، فأبدلت الهمزة الثانية ألفاً، لكونها بعد أخرى مفتوحة، وأدغمت اللام في اللام، وفي الكثرة على إلالٍ، كذئب وذئاب، والألّ بالفتح: قيل: شدة القنوط، قال الهروي: في الحديث: «عجب ربكم من ألكم وقنوطكم» اهـ. وفي «القاموس»: الإلُّ بالكسر: العهد والحلف وموضعٌ والجؤار والقربة والمعدن والحقد والعداوة والربوبية، واسم الله تعالى وكل اسم آخره إل أو إيل فمضاف إلى الله تعالى، والرخاء والأمان والجزع عند المصيبة، ومنه ما روي: «عجب ربكم من إلكم» فيمن رواه بالكسر ورواية الفتح أكثر اهـ.

﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ والذمة والذمام: العهد الذي يلزم من ضيعه الذم، ونقض العهد عندهم من العار، فيكون مما كرر لاختلاف لفظه، إذا قلنا إن الإلَّ العهد أيضاً، فهو كقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وقيل: الذمة[2] الضمان، يقال: هو في ذمتي، أي: في ضماني وبه سمي أهل الذمة، لدخولهم

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

في ضمان المسلمين، وقال: الراغب: الذِّمام: ما يذم الرجل على إضاعته من عهد. وكذلك الذمة والمَذَمَة والمِذَمة. يعني بالفتح والكسر، وقيل: لي ذمة فلا تهتكها، وقال غيره: سميت ذمة؛ لأن كل حرمة يلزمك من تضييعها الذم، يقال لها: ذمة وقال الأزهري: الذمة الأمان، وفي الحديث «يَسْعى بذمتهم أدناهم» اهـ «سمين».

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ يقال: أبى يأبىٰ، إذا اشتد امتناعه. فكل إباء امتناعٌ، من غير عكس، ولم يصب من فسره بمطلق الامتناع، ومجيء[1] مضارعه على يفعل بفتح العين شاذٌ. ومنه قلى يَقْلىٰ في لغةٍ، ومنه آبي اللحم لرجلٍ من الصحابة وقال الشاعر:

أَبَـىٰ ٱلـلَّـهُ إلاَّ عَـدْلَـهُ وَوَفَـاءَهُ ... فَلاَ ٱلنُّكْرُ مَعْرُوْفٌ وَلاَ ٱلْعُرْفُ ضَائِعُ

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي[2] خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء من قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرتها.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ ووزن[3] أئمة أفعلة؛ لأنه جمع إمام، كحمار وأحمرة وزمام وأزمة، والأصل أأممة، فألتقى ميمان، فأريد إدغامهما، فنقلت حركة الميم الأولى للساكن قبلها، وهو الهمزة الثانية، فأدى ذلك إلى اجتماع همزتين ثانيتهما مكسورة، فالبصريون يوجبون إبدال الثانية ياء، وغيرهم يحقق، أو يسهل بين بين، ومن أدخل الألف.. فللخفة حتى يفرق بين الهمزتين.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرارُ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، وفي قوله: ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي

---

(1) البحر المحيط.

(2) المراغي.

(3) الفتوحات.

ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وفي قوله: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وفي قوله: ﴿كَيْفَ﴾ لإفادة التأكيد.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿براءة﴾ لإفادة التفخيم.

ومنها: التقييد بأنها من الله ورسوله، لزيادة التفخيم والتهويل.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأن البشارة بالعذاب تهكم.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿بَرِيٓءٌ﴾ و﴿بَرَآءَةٌ﴾ وبين ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ و﴿فَأَجِرْهُ﴾ وبين ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ و﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أيها المشركون.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنه كناية عن عقد الأمان لهم أربعة أشهر؛ أي: يباح لكم أن تعقدوا الأمان لهم أربعة أشهر بعد نقضهم العهد المطلق، أو المقيد بدونها أو فوقها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ شبه انقضاء الشهر وخروجه بانسلاخ الجلد من الحيوان، بجامع الانفصال في كل، ثم اشتق من الانسلاخ بمعنى الانقضاء، انسلخ بمعنى: انقضى، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية. أو يقال[1]: شبه خروج المتزمن عن زمانه، بانفصال المتمكن عن مكانه، كما ذكره الشوكاني.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ لزيادة التقبيح عليهم، حيث وصفهم بكونهم رؤساء في الكفر، وكان مقتضى الظاهر، فقاتلوهم.

---

(١) الشوكاني.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾؛ لأن[1] النكث في الأصل الرجوع إلى خلف، ثم استعمل في النقض مجازاً، بجامع أن كلاً متأخر عن مطلوبه، وفيه المقابلة أيضاً؛ لأنه مقابل لقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ﴾.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾ لمزيد[2] التشنيع والتقبيح عليهم؛ لأن مقام الذم كمقام المدح، البلاغة فيه الإطناب.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ لأنّ[3] الطعن هنا مجاز عن العيب؛ لأنه حقيقة في الإصابة بالرمح أو العود وشبهه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنه اعتراض بين الشرطين بين قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ لإفادة الحث والتحريض على تأمل ما فصَّله تعالى من الأحكام.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الصاوي.

(٢) الصاوي.

(٣) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنّ الله سبحانه وتعالى لما أمر[1] بقتال أئمة الكفر.. ذكر السبب الذي يبعث على قتالهم، ولعل الله سبحانه وتعالى قد علم أن في نفس

---

(١) المراغي.

جماعة من المؤمنين كرهاً لقتال من بقي من المشركين بعد فتح مكة وظهور الإسلام، لأمنهم من ظهورهم عليهم، ورجائهم في إيمانهم، وعلم أنه يوجد من المنافقين من يزينون لهم ذلك، والله يريد أن تطهر جزيرة العرب من الشرك وأدران الوثنية، ويمحص المؤمنين من النفاق ومثالبه، من جراء هذا أعاد الكرَّة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد، المعتدين عليهم بالحرب، الذين بدؤوهم بالقتال وهموا بإخراج الرسول أو حبسه أو قتله.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر البراءة من المشركين وأنواعاً من قبائحهم توجب البراءة منهم.. ذكروا أنهم موصوفون بصفاتٍ حميدةٍ توجب انتفاء البراءة منها، كونهم عامري المسجد الحرام، روي أنه أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك، وطفق عليٌّ يوبخ العباس، فقال: الرسول ﷺ، واقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول، فقال العباس: تظهرون مساوينا وتكتمون محاسننا، فقال: أو لكم محاسن، قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردّاً عليهم.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنها مكملة[2] لما قبلها، مبينة أنَّ عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون، من عمارة المسجد وسقاية الحاج فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا أعلن براءته وبراءة رسوله من المشركين، وآذنهم بنبذ عهودهم، بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم.. عَزَّ ذلك على بعض المسلمين، وتبرَّم به ضعفاء الإيمان، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

النبيُّ ﷺ، يوم فتح مكة، وكان موضع الضعف، نصرة القرابة وعصبية النسب، إذ كان لا يزال الكثير منهم أولو قرابة من المشركين، يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجةٌ وبطانةٌ منهم.

من أجل هذا، بين الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين، أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد، ونيل ما بشر الله به أهله من رحمته ورضوانه ودخول جناته لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين، وإيثار حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد، والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] أبو الشيخ عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة، حين جعلوا يقتلون بني بكرٍ بمكة، وأخرج عن عكرمة، قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وأخرج عن السدي ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال: هم خزاعة حلفاء النبي ﷺ، يشف صدورهم من بني بكر.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات، أخرج ابن أبي حاتم من طريق عليٍّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: قال العباس، حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد.. لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ...﴾ الآية.

وأخرج مسلم وابن حبان وأبو داود عن النعمان بن بشير، قال: كنت[2] عند رسول الله ﷺ، في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل

---

(١) لباب النقول. (٢) مسلم.

مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة.. دخلت على رسول الله ﷺ لأستفتيه فيما اختلفتم فيه، فدخل بعد الصلاة، فاستفتاه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وأخرج[1] الفريابي عن ابن سيرين قال: قدم عليٌّ بن أبي طالب مكة، فقال للعباس: أي عم، ألا تهاجر، ألا تلحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعمر المسجد وأحجب البيت، فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية وقال لقوم سماهم: ألا تهاجروا ألا تلحقوا برسول الله ﷺ؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ...﴾ الآية كلها، وأخرج عبد الرزاق، عن الشعبي نحوه، وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي، قال: افتخر طلحة بن شيبة والعباس وعليٌّ بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال عليٌّ: لقد صليت إلى القبلة قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ...﴾ الآية كلها.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾؛ أي: هلاَّ تقاتلون أيها المؤمنون ﴿قَوْمًا﴾ من كفار مكة ﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؛ أي: نقضوا عهودهم التي عاهدوكم يوم الحديبية، حيث نقضوها بإعانتهم لبني بكر، الذين هم حلفاؤهم، بإعطاء السلاح لهم على خزاعة، الذين هم حلفاؤكم، وألا هنا: للتحضيض، كما قاله السيوطي في «تفسير الجلالين» وهو الطلب بحثٍّ وإزعاج، ودخول[2] حرف التحضيض على مستقبلٍ حث على الفعل وطلبٌ له، وعلى الماضي توبيخٌ على ترك الفعل، وأدواته خمسةٌ: ألا بالتخفيف، وألاّ بالتشديد، وهلاَّ، ولولا، ولوما، كما ذكرته

(١) لباب النقول.

(٢) الفتوحات القيومية على الآجرومية.

في «الفتوحات القيومية».

وقال أبو حيان[1]: وألا هنا حرف عرض وهو الطلب برفق ولين ومعناه هنا: الحض على قتالهم، وزعموا أنها مركبةٌ من همزة الاستفهام ولا النافية، فصار فيها معنى التحضيض اهـ وليس هذا الزعم بشيءٍ يعتد.

فالمعنى:[2] قاتلوا قوماً اجتمعت فيهم أسبابٌ ثلاثةٌ، كل منها يقتضي قتالهم، فما بالكم باجتماعها؟ وهي نقض العهد، وإخراج الرسول، وقتال حلفائكم ﴿وَهَمُّواْ﴾؛ أي: أرادوا ﴿بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ الكريم محمدٍ ﷺ، من مكة، لكن لم يخرجوه، بل خرج باختياره بإذن الله تعالى له في الهجرة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: والحال أنهم بدؤوكم بالقتال يوم بدر أول مرة؛ لأنهم حين سلمت العير، قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه، أبو بدؤوا بقتال خزاعة، حلفاء النبي ﷺ؛ لأن إعانة بني بكر عليهم بالسلاح قتالٌ معهم، فالإعانة على القتال تسمى قتالاً وقرأ زيد بن عليّ ﴿بدوكم﴾ بوزن رموكم: بغير همزٍ ووجهه: أنه سهل الهمزة من بدأت بإبدالها ياءً، كما قالوا في قرأت قريت، فصار كرميت، فلما أسند الفعل إلى واو الضمير سقطت، فصار بدوكم كرموكم، ذكره أبو حيان في «البحر» والاستفهام في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ للتوبيخ والتقريع؛ أي: أتخافون أيها المؤمنون أن ينالكم منهم مكروه، حتى تتركوا قتالهم لهذه الخشية، ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه فقال: ﴿فَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَحَقُّ﴾ وأجدر وأولى ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك أمره، وقوله: ﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ بدل اشتمال من لفظ الجلالة الواقع مبتدأً؛ أي: فخشية الله تعالى أحق وأولى لكم من خشيتهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مذعنين بأنه تعالى هو الضار النافع فاخشوه، ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتالهم.

وحاصل المعنى: أي قاتلوا هؤلاء المشركين لأسبابٍ ثلاثة:

١ - أنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ

---

(١) البحر المحيط. (٢) الفتوحات.

وأصحابه على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحراراً في دينهم، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بني بكر على خزاعة ـ حلفاء النبي ﷺ ـ ليلاً بالقرب من مكة، على ماءٍ يسمى الهجير، وكان هذا من أفظع أنواع الغدر، ولمَّا علم بذلك الرسول ﷺ. . قال: «لا نُصِرت إن لم أنصركم» وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

٢ ـ أنهم هَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أو حبسه حتى لا يبلِّغ رسالته، أو قتله بأيدي عصبةٍ من بطون قريش، ليتفرق دمه في القبائل فتتعذَّر المطالبة به، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾.

٣ ـ أنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر، حين قالوا بعد العلم بنجاة عيرهم: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر، وتعزف على رؤوسنا القيان، وكذا في أحد والخندق وغيرهما. وبعد أن أورد البراهين والحجج الموجبة لقتالهم، قال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؛ أي: أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجبناً ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾؛ أي: فالله أحق أن تخشوا مخالفة أمره، وترك مخالفة عدوه، إذ المؤمن حق الإيمان لا يخشى إلا الله؛ لأنه يعلم أنه هو الذي بيده النفع والضر، ولا يقدر أحد على مضرة أو نفع إلا بمشيئته، فإن خشي غيره بمقتضى سننه تعالى في أسباب الضر والنفع. . فلا ترجح خشيته على خشية الله، بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره.

وخلاصة ما سلف: أنه بعد تلك الحجج التي تقدم ذكرها، لم يبق من سببٍ يمنع قتالهم إلا الخشية لهم والخوف من قتالهم، وخشية الله أحق وأجدر إن كنتم مؤمنين حقاً، كيف وقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة مع ضعفكم وقوتهم، وقلتكم وكثرة عددهم، وفي الآية إيماءٌ إلى أن المؤمن يجب عليه أن يكون أشجع الناس، وأعلاهم همةً، ولا يخشى إلا الله.

وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم وفند الشبه المانعة من ذلك. .

أمرهم به أمراً صريحاً مع وعده لهم بالنصر وإظهار المؤمنين عليهم، وهذه العدة من أخبار الغيب في وقعةٍ معينة، وقد صدق الله وعده فقال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾؛ أي: قاتلوا أيها المؤمنون المشركين الذين نقضوا العهد وبدؤوا بالقتال، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم؛ أي: قاتلوهم كما أمرتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك.. ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾؛ أي: يقتلهم بسيوفكم ورماحكم وسلاحكم، والمراد بالتعذيب هنا: القتل.

فإن قلت[1]: كيف الجمع بين قوله: هنا ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وبين قوله: في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾؟

قلت: المراد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ عذاب الاستئصال، يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعاً وأنت فيهم، وبالعذاب هنا قتل من نقض العهد، والفرق بين العذابين: أن عذاب الاستئصال يتعدى إلى المذنب وغير المذنب، وإلى المخالف والموافق، وعذاب القتل لا يتعدى إلا إلى المذنب المخالف. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾؛ أي: يذلهم بالقهر والأسر وينزل بهم الذل والهوان ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾؛ أي: يبرىء داء قلوب طائفة ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مما أصابهم من أذى المشركين، ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه.. فإنه يشفى ويفرح بذلك، ويعظم سروره ويصير ذلك سبباً لقوة اليقين وثبات العزية، قال مجاهد والسدي: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وكان يومئذٍ في خزاعة مؤمنون كثير، حيث أعانت قريش بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، حتى قتلوا منهم، ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر، حين أخذ النبيُّ ﷺ وأصحابه ثأرهم منهم يوم فتح مكة ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: يذهب الله سبحانه وتعالى وجد قلوب طائفة من المؤمنين المذكورين وحزنها بما ناله من بني بكر من الفتك، روي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السيف إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر» ذكره البغوي بغير سند.

---

(١) الخازن.

وقد وفى الله سبحانه وتعالى بما وعدهم، من الأمور الخمسة، والآية من المعجزات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في جواب الأمر بالقتال خمسة أمور، وقوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ مستأنفٌ ولم يجزم[1]؛ لأن توبته على من يشاء ليست جزاء على قتال الكفار؛ أي: ويهدي الله سبحانه وتعالى من يشاء هدايته من أهل مكة وغيرهم إلى الإسلام، فيمنُّ عليه بالتوبة من الشرك والكفر، ويهديه إلى الإسلام، كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين، ثم مَنَّ الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة، فأسلموا ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الأزلية بالسعادة، فيتوب عليه ويهديه إلى الإسلام وهو العليم بما لا تعلمون من استعدادهم في الحال والاستقبال ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه لهم من الأحكام، لإقامة دينه وإظهاره على الدين كله.

ومن سننه تعالى: تفاوت البشر في العقائد والأخلاق والأعمال، وقابليَّة التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات، بحسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع.

وقرأت فرقة[2]: ﴿ويذهب غيظ﴾ فعلاً لازماً غيظ فاعل به، وقرأ زيد بن عليّ كذلك، إلا أنه رفع الباء، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ رفعاً وهو استئناف، وقرأ زيد بن عليّ والأعرج وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفيُّ وعمرو بن عبيد وعمر ابن فائد وأبو عمرو ويعقوب فيما روي عنهما: ﴿ويتوبَ الله﴾ بنصب الباء جعله داخلاً في جواب الأمر من طريق المعنى، قيل: ويمكن أن تكون التوبة داخلة في الجزاء.

و﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ بمعنى همزة الاستفهام التوبيخي، وبل التي للإضراب الانتقالي، أي: بل أظننتم أيها المؤمنون ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾؛ أي: أن

---

(١) الكرخي. (٢) البحر المحيط.

يترككم الله سبحانه وتعالى بدون تكليفكم بالقتال الذي سئمتموه ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾؛ أي: والحال أنه لم يظهر الله سبحانه وتعالى الذين جاهدوا منكم بالإخلاص؛ أي: لم يميزهم عن غيرهم، ممن جاهدوا بدون إخلاص، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ﴾ عطف على ﴿جَٰهَدُواْ﴾ داخل في الصلة؛ أي: ولم يظهر الذين لم يتخذوا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَلَا رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿وَلِيجَةً﴾؛ أي: بطانة وأصدقاء من الكفار؛ أي: أم حسبتم أن يترككم الله سدى بلا امتحان بالتكاليف، والحال أنه لم يميز بين المجاهدين المخلصين الذين لم يتخذوا وليجةً وبطانةً من الكفار، وبين غيرهم ممن لم يخلصوا في جهادهم واتخذوا وليجةً من الكفار؛ أي: أم حسبتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق، الذي يستحق به الثواب والعقاب.

والمعنى: كيف تحسبون أنكم تتركون، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص، ولم يتبين المتخذ وليجةً من غير المتخذ؟

والخلاصة[1]: أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم، بغير فتنةٍ ولا امتحانٍ، ولم يتبين المجاهدون المخلصون منكم، الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانةً من المشركين، من المنافقين الذين اتخذوا لأنفسهم وليجة، من المشركين الذين يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة الإسلامية، ويقفونهم على سياسة الأمة المحمدية، كما يفعل المنافقون في كل زمان؟

وقد عبَّر سبحانه عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين، وعن عدم تميزهم من المنافقين وضعفاء الإيمان بعدم علمه بهم؛ لأن عدم علمه بالشيء دليلٌ على عدم وجوده، ولا يظهر هؤلاء الممتازون إلا بالابتلاء بالشدائد، وذلك أنه لما فرض القتال.. تبين المنافق من غيره، ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي أعداءهم، وقد مضت سنته تعالى بأن التكليف الذي يشق على الأنفس هو الذي يمحص ما في

---

(١) المراغي.

القلوب، ويطهر السرائر بقدر ما فيها من حسن الاستعداد، ويبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء استعدادها.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من موالاة المشركين وغيرها، فيجازيكم عليه، فيجب على الإنسان أن يبالغ في أمر النية ورعاية القلب.

وخلاصة المعنى: أظننتم أن تتركوا قبل أن يتم التمحيص والتمييز بين الصادقين في جهادهم، والكاذبين فاسدي السريرة، ومتخذي الوليجة، وهو لم يعلم الصادقين في الجهاد؛ لأنهم لم يتميزوا من غيرهم بالفعل، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود له، إذ لا يخفى عليه شيءٌ من أمركم وهو الخبير بكل ما تعملون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، مناسبةً لقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وقرأ الحسن ويقعوب في رواية رُوَيْسٍ وسلاَّم: بالياء على الغيبة التفاتاً.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يصح ولا يستقيم للمشركين ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ تعالى ومتعبداته بدخولها والقعود فيها وخدمتها، فإذا دخل الكافر بغير إذن المسلم.. عزر، وإن دخل بإذنه.. لم يعزر، لكن لا بد من حاجة، فيشترط للجواز الإذن والحاجة، ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن: (أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد، وهو كافر) حالة كونهم ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ قولاً وفعلاً، حال من فاعل يعمروا؛ أي: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين، عمارة متعبدات الله، والكفر بالله قولاً؛ لأنهم يقولون في طوافهم: لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك، مع قولهم: نحن نعبد اللات والعزى، وفعلاً؛ لأنهم كلما طافوا.. سجدوا للأصنام، فلم يزدادوا بذلك إلا بعداً من الله ومن مساجده.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَعْمُرُوا﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الميم، من عمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.

يعمر، من باب قتل، وقرأ ابن السميقع: ﴿أن يُعمِروا﴾ بضم الياء وكسر الميم، من أعمر الرباعي؛ أي: أن يعينوا على عمارته، وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن والجحدري ويعقوب: ﴿مسجد الله﴾ بالإفراد وقرأ باقي السبعة، ومجاهد وقتادة، وأبو جعفر والأعرج وشيبة: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بالجمع، ومن قرأ بالإفراد: فيحتمل أن يراد به المسجد الحرام لقوله: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أو الجنس، فيندرج فيه سائر المساجد، ويدخل المسجد الحرام دخولاً أوليًّا، ومن قرأ: بالجمع فيحتمل، أن يراد به المسجد الحرام، وإنما جمعه؛ لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، فكان عامره عامر المساجد، وأن يراد به سائر المساجد، كما هو ظاهر اللفظ. وقرأ زيد بن علي ﴿شَٰهِدُونَ﴾ على إضمار ﴿هم شاهدون﴾.

وحاصل الآية: أي ما كان[1] من شأن المشركين ولا مما ينبغي لهم، أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الأعظم، وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة، أو الخدمة والولاية عليه، ولا أن يزوروه حجاجاً أو معتمرين، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر، قولاً وعملاً، بعبادتهم للأصنام، والاستشفاع بها، والسجود لما وضعوه منها في البيت عقب كل شوط من طوافهم، وقولهم حينئذٍ: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً، هو لك تملكه وما ملك.

إذ في عملهم هذا جمع بين الضدين، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية، بعبادته تعالى وحده، وذلك لا يقع إلا من المؤمن الموحد، لكنهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه في العبادة.

وخلاصة ذلك: أنهم يجمعون بين أمرين لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح، عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من الأصنام والأوثان، وقوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾؛ أي: إنهم كفروا كفراً صريحاً، معترفاً به لا تمكن المكابرة فيه، والمراد بالعمارة الممنوعة

---

(١) المراغي.

عن المشركين للمساجد: الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها، كأن يكون الكافر ناظراً للمسجد وأوقافه، أما استخدام الكافر في عمل لا ولاية فيه، كنحت الحجارة والبناء والنجارة.. فلا يدخل في ذلك.

وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجداً بناه كافر، أو أوصى ببنائه أو ترميمه، إذا لم يكن في ذلك ضرر ديني ولا سياسي، كما لو عرض اليهود الآن على المسلمين أن يعمروا المسجد الأقصى، بترميم ما كان قد تداعى من بنائه، أو بذلوا لذلك مالاً.. لم يقبل منهم؛ لأنهم يطمعون في الاستيلاء على هذا المسجد، فربما جعلوا ذلك ذريعةً لادعاء حق لهم فيه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون الكافرون بالله، وبما جاء به رسوله قد ﴿حَبِطَتۡ﴾ وبطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها من عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، وقرى الضيف، وصلة الرحم، ونحو ذلك، مما كانوا يعملونه في دنياهم، فلم يبق له أثرٌ ما في صلاح أنفسهم، ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده، فصارت هباءً منثوراً.

ونحو هذه الآية قوله: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾.

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود ودوام؛ لكفرهم الذي أحبط أحسن أعمالهم ودسَّى أنفسهم، حتى لم يبق لها أدنى استعداد لجوار ربهم في دار الكرامة والنعيم.

وقرأ زيد بن علي[١]: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بالياء نصباً على الحال، وفي النار هو الخبر، كما تقول: في الدار زيد قاعداً ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بنحو البناء والتزيين بالفرش والسرج، وقال أبو حيان[٢]: ويتناول عمارتها رمَّ ما تهدّمَ منها، وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها واعتيادها للعبادة والذكر - ومن الذكر درس العلم، بل هو أجله -، وصونها عما لم تبن له، من الخوض في أحوال الدنيا، وفي

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

الحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد.. فاشهدوا له بالإيمان»، انتهى.

وقرأ الجحدري وحماد بن أبي سلمة، عن ابن كثير: ﴿مسجد الله﴾ بالإفراد وقرأ السبعة وجماعة بالجمع، ذكره في «البحر»، والظاهر: أن الجمع هنا حقيقة؛ لأن المراد جميع المؤمنين العامرين لجميع مساجد أقطار الأرض؛ أي: إنما يصح أن يعمر المساجد عمارة يعتد بها ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ تعالى؛ لأن المساجد موضعٌ يعبدون الله فيه، فمن لم يكن مؤمناً بالله.. لا يبني موضعاً يعبد الله فيه ﴿و﴾ آمن بـ ﴿اليوم الآخر﴾؛ لأن الاشتغال بعبادة الله لا تفيد إلا في القيامة، فمن أنكر القيامة، لا يعبد الله، ومن لا يعبد الله، لا يبني بناءً لعبادة الله تعالى.

ولم[1] يذكر الإيمان بالرسول؛ لأن الإيمان باليوم الآخر إنما هو متلقف من أخبار الرسول، فتضمن الإيمان بالرسول، أو لم يذكر لما علم وشهر من أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما، مقترنين مزدوجين، كأنهما شيءٌ واحدٌ لا ينفك أحدهما عن صاحبه، فانطوى تحت ذكر الإيمان بالله الإيمان بالرسول ﷺ ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بأركانها وآدابها، فإن المقصود الأعظم من بناء المساجد: إقامة الصلوات ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: أدى الزكاة المفروضة لمستحقيها، وإنما اعتبر[2] إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المسجد؛ لأن الإنسان إذا كان مقيماً للصلاة، فإنه يحضر في المسجد فتحصل عمارة المسجد بذلك الحضور، وإذا كان مؤدِّياً للزكاة.. فإنه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين، لطلب أخذ الزكاة، فتحصل عمارة المسجد بذلك الحضور، ولأنَّ[3] الإنسان لا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مقيماً للصلاة، مؤدِّياً للزكاة؛ لأن الصلاة والزكاة واجبان، وعمارة المسجد نافلةٌ، ولا يشتغل الإنسان بالنافلة، إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: ولم يخف في باب الدين غير الله تعالى، ولم يترك أمر الله لخشية

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) الخازن.

الناس، ولم يختر على رضا الله رضا غيره، وإنما قلنا في باب الدين؛ لأن الخشية عن المحاذير جبلية، لا يكاد الرجل العاقل يتمالك عنها.

والمعنى: أن[1] المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله على الوجه الذي بينه في كتابه - من توحيده، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه عباده، ويجزي فيه كل نفس بما كسبت - مع إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الجامع بين أركانها وآدابها، وتدبر تلاوتها وأذكارها، وبذا تكسب من يقيمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه، ومع إعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، ومع خشية الله دون غيره، مما لا ينفع ولا يضر، كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله تعالى، خوفاً من ضرره أو رجاءً لنفعه.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: فيرجوا أولئك الموصوفون بالصفات الأربعة أن يكونوا من المهتدين؛ أي: من الذين سبقت لهم الهداية في علمه؛ أي: فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام، هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حسًّا ومعنًى، بحسب سننه تعالى في أعمال البشر وتأثيرها في نفوسهم، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنان النعيم، لا أولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإسلام، وقيل: (عسى) في كلام الله للوجوب والتحقق، والمعنى حينئذٍ: فحقيقٌ واجبٌ كون أولئك الموصوفين بالصفات السابقة من المهتدين.

وفي ذلك[2] قطعٌ أطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة.. جعل حاله حال من ترجى له الهداية، فكيف بمن هو عار

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

منها؟ وفي ذلك ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة، فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث الواردة في عمارة المساجد وبنائها

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قال: «من غدا إلى المسجد، أو راح.. أعدَّ الله له في الجنة نزلاً، كلما غدا أو راح» متفق عليه. والنزل: ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم.

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله ﷺ، ولامه الناس.. قال: إنكم أكثرتم، وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله.. بنى الله له بيتاً في الجنة» متفق عليه. وأخرجه الترمذي وفي رواية: «بنى الله له في الجنة مثله».

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً، صغيراً كان أو كبيراً.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه الترمذي.

وعن عمرو بن عبسة، أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً ليُذكر الله فيه.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه النسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ بنى لله مسجداً، ولو كمفحص - الموضع الذي تفحص التراب عنه، وتكشفه لتبيض فيه - قطاةٍ لبيضها.. بنى الله له بيتاً في الجنة» أخرجه أحمد.

وروى الشيخان وأبو داود وابن ماجه: أنَّ امرأة كانت تقُمُّ المسجد - تكْنِسُهُ - فماتت، فسأل عنها النبي ﷺ، فقيل له: ماتت، فقال: «أفلا كنتم آذنتموني بها لأصلي عليها، دلوني على قبرها» فأتى قبرها فصلى عليها.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد.. فاشهدوا له بالإيمان». وتلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ . . .﴾ الآية،

أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

والاستفهام في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ للإنكار، وهو كلام مستأنف خوطب به المشركون، التفاتاً من الغيبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا...﴾ إلخ، وقيل: خوطب به المؤمنون الذين تنازعوا أيّ الأعمال أفضل.

والسقاية والعمارة مصدران، كالسعاية والحماية، فالسقاية: إسقاء الحجاج، وإعطاء الماء لهم، والعمارة: تعمير المسجد تعميراً حسياً أو معنوياً، كما مر، ولا بد من تقدير مضاف، ليتفق الموضوع والمحمول، إما في الآخر، والتقدير: أجعلتم أيها المشركون، أو المؤمنون، سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام ﴿كـ﴾ عمل ﴿من آمن بالله﴾ سبحانه وتعالى، أو كإيمان من أمن بالله. وإما في الأول، والتقدير: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام الذين هم المشركون، كمن آمن بالله في الفضيلة وعلو الدرجة، ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن الزبير وغيره: ﴿أجعلتم سُقاة الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرامِ﴾ جمع ساقٍ وعامر، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير مضاف.

والمراد(١): أنه لا ينبغي أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة في الفضيلة كمن آمن بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: في طاعته لإعلاء كلمته، فإنَّ السقاية والعمارة، وإن كانتا من أعمال البر والخير، فأصحابهما لا يدانون أهل الإيمان والجهاد في علوّ المرتبة وشرف المقدار.

والمعنى(٢): أنَّ الله تعالى أنكر عليهم التسوية بين ما كان تعمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير، وإن لم ينتفعوا بها، وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله، وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة، ويفضلونهما على عمل المسلمين، فأنكر عليهم ذلك ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين، وتفاوتهم وعدم استوائهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ تعالى؛ أي:

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

لا تساوي تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر، المجاهدة في سبيله، ودل سبحانه بنفي الاستواء على نفي الفضيلة التي يدعيها المشركون؛ أي: إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين.. فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟!

أي: لا يساوي الفريق الأول الفريق الثاني، لا في صفته، ولا في عمله في حكم الله، ولا في مثوبته وجزائه عليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فضلاً عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركي قريش، الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها.

ثم حكم عليهم بالظلم، وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يهديهم إلى الحق في أعمالهم، ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم، إذ ليس من سننه تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدي الظالم إلى شيء من ذلك، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت، وحفظ مفتاحه، وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذي يزع النفس عن البغي والظلم، ويحبب إليها الحق والعدل، ويرغبها في الخير وعمل البر، ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا للفخر والرياء، وعلى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهما مصدران كما مرَّ، وقرأ عبد الله بن الزبير والباقر وأبو حيوة وابن أبي وجرة السعديُّ وسعيد بن جبير: ﴿سُقاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرامِ﴾ جمع ساق كرام ورماة وجمع عامر، كصانع وصنعة، وكامل وكملة إلا أن ابن جبير نصب المسجد على إرادة

---

(١) البحر المحيط.

التنوين في عمرة، وقرأ الضحاك: ﴿سُقاية﴾ بضم السين ﴿وعمرة﴾ بنى الجمع على فعال، كرخل ورخال الرخل: الأنثى من أولاد الضأن وكان المناسب أن يكون بغيرها، لكنه أدخل الهاء كما دخلت في حجارة.

ثم صرح بالفريق الفاضل، وبين مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله، وبجميع ما يجب الإيمان به، مبتدأ. ﴿وَهَاجَرُواْ﴾؛ أي: فارقوا أوطانهم من مكة إلى المدينة، طلباً لرضا الله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ الكافر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي في طاعته لإعلاء كلمته، لا للحمية والوطنية باذلين ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ النفيسة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ العزيزة ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ خبر المبتدأ؛ أي: أعظم درجة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل، والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد، اللذين رأى بعض المسلمين أو المشركون أنهما من أفضل القربات بعد الإسلام أو أنهما أفضل من الإسلام؛ أي: أحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحبطة الباطلة؛ أي: فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد، بنوعيه النفسي والمالي، أعلى مرتبة وأعظم كرامةً ممن لم يتصف بهما، كائناً من كان، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون ـ المهاجرون المجاهدون ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بمثوبة الله تعالى وكرامته، دون من لم يكن مستجمعاً لهذه الصفات الثلاث، وإن سقى الحاج وعمر المسجد الحرام، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد، ولا ثواب للكافر عليهما في الآخرة، فإن الكفر بالله ورسله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية، وإن فرض فيها حسن النية. ثم بين سبحانه ذلك الفوز العظيم بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾؛ أي: يبشر هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين ﴿رَبُّهُم﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ تعالى، أي: بمنفعة خالصة دائمة، مقرونة بالتعظيم من قبل الله تعالى، جزاء على إيمانهم الخالص ﴿و﴾ بـ ﴿رضوان﴾ كامل لا يشوبه سخط على جهادهم الذي فيه بذل الأنفس والأموال ﴿و﴾ بـ ﴿جناتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم في مقابلة هجرتهم.

أي[1]: يبشرهم ربهم في كتابه على لسان رسوله وعلى لسان ملائكته حين الموت برحمةٍ منه ورضوان كامل من لدنه، لا يشوبه سخط، وجنات تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمه وكماله حال، كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبَّداً، لا نهاية له، لا يموتون ولا يخرجون منها، والتنوين في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم والنعيم[2] المقيم الدائم المستمرَّ، الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الخلود، تأكيدٌ له، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل؛ أي: أعطاهم الله تعالى هذه الأجور العظيمة، لكون الأجر الذي عنده عظيماً، يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

ولمَّا وصف[3] الله سبحانه وتعالى المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال.. قابلهم على ذلك التبشير بثلاث، وبدأ بالرحمة التي هي النجاة من النيران في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة ترك الأوطان، ثم ثلث بالجنات التي هي المنافع العظيمة في مقابلة الجهاد الذي فيه بذل الأنفس والأموال، وإنما خصوا بالأجر العظيم؛ لأنَّ إيمانهم أعظم الإيمان.

وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف وحميد بن هلال[4]: ﴿يَبشُرهم﴾ بفتح الياء وضم الشين خفيفةً. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿ورُضوان﴾ بضم الراء، وتقدم ذكر ذلك في أوائل آل عمران، وقرأ الأعمش: بضم الراء والضاد معاً. قال أبو حاتم: لا يجوز هذا. انتهى، وينبغي أن يجوز فقد قالت العرب: سلطان، بضم اللام، وأورده الصرفيون في أبنية الأسماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾؛ أي: إن ما عند الله من الأجر على الإيمان، وصالح العمل الذي من أشقه الهجرة والجهاد، عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذي تفضل به ومنحه لعباده

---

(1) المراغي.
(2) الشوكاني.
(3) المراح.
(4) البحر المحيط.

المكرمين، ولا سيما على الإيمان الكامل، الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل والسكن، وعلى إنفاق المال الذي هو أحب شيء إلى النفس، وعلى بذل النفس، التي هي أعز شيء على الإنسان.

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء، ما بين روحي وجسماني:

فالأول: الرحمة والرضوان، والرضوان: هو نهاية الإحسان، وهو أعلى النعيم، وأكمل الجزاء، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

والثاني: هو النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾؛ أي: أقاربكم؛ أي: لا تجعلوا آباءكم وإخوانكم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء وبطانةً لأنفسكم، تفشون إليهم أسراركم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ﴾؛ أي: إن أحب الآباء والإخوان الكفر واختاروه ﴿عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بالله ورسوله، وأقاموا عليه وتركوا الإيمان.

والمعنى[1]: أي لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء، تنصرونهم في القتال، وتظاهرون لأجلهم الكفار، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين، وما يستعدون به لقتال المشركين، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان، فإن في ذلك قوةً

---

(١) المراغي.

للمشركين على قتال المؤمنين، دحضاً لشوكتهم، وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام إلى نزول هذه السورة، فقد كتب حاطب بن أبي بلتعة، وهو من أهل بدر، وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركي مكة خفيةً، يعلمهم بما عزم عليه النبي ﷺ من قتالهم؛ ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافؤنه عليه بحماية ما كان له عندهم من قرابة، وفي ذلك نزلت سورة الممتحنة، للنهي عن موالاة أعداء الله وأعدائهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وهم على تلك الحال في الدين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتولون لهم ﴿هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم ولجماعتهم، بوضعهم الموالاة في غير موضعها، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة والمودة في محل العداوة وقد حملهم على هذا الظلم نعرة القرابة وحمية الجاهلية، وذكر[1] الآباء والإخوان لأنهم أهل الرأي والمشورة، ولم يذكر الأبناء هنا لأنهم في الغالب تبع لآبائهم، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿أن استحبوا﴾، بفتح الهمزة، جعله تعليلاً وغيره بكسرها جعله شرطاً.

والخطاب[2] في هذه الآية للمؤمنين كافة وهو حكمٌ باقٍ إلى يوم القيامة، يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وقالت طائفة من أهل العلم: إنها نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة، فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر، ثم حكم على من يتولىٰ من استحب الكفر على الإيمان، من الآباء والإخوان بالظلم، فدل ذلك على أن تولي من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدِّها. ولمَّا نزلت هذه الآية السابقة.. قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا.. ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا، وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: حواشيكم ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ أي: زوجاتكم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾؛ أي: أهلكم الأدنون الذين تعاشرونهم،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

كالأعمام وأبنائهم، وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ بالإفراد بغير ألف. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن: ﴿وعشائركم﴾ بالألف على الجمع ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾؛ أي: أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ﴾ كسادها؛ أي: عدم رواجها وربحها بفراقكم لها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾؛ أي: منازل تحبون الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾؛ أي: أعجب عندكم ﴿مِّنَ﴾ طاعة ﴿اللهِ﴾ والهجرة إلى ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ ﷺ، بالحبِّ الاختياري والقراء على[2] نصب ﴿أحبَّ﴾؛ لأنه خبر ﴿كان﴾ وكان الحجاج بن يوسف يقرأ: ﴿أحبُّ﴾ بالرفع ولحنه يحيى بن يعمر، وتلحينه إياه ليس من جهة العربية، وإنما هو لمخالفة إجماع القراء النقلة، وإلا فهو جائز في علم العربية على أن يضمر في ﴿كان﴾ ضمير الشأن. ويلزم ما بعدها بالابتداء والخبر، وتكون الجملة في موضع نصب على أنها خبر ﴿كان﴾ ﴿و﴾ من ﴿جهادٍ في سبيله﴾؛ أي: في طاعته ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾؛ أي: فانتظروا عذاب الله، مقيمين بمكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقضائه فيكم وهو عقوبته التي تحل بكم عاجلاً أو آجلاً، وهذا أمر تهديد وتخويف، وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة، وفيه بُعد، فقد روي أن هذه السورة نزلت بعد الفتح، ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: لا يرشد القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الضلال، وفي هذا دليلٌ على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا.. وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا، ليبقى الدين سليماً.

ومعنى الآية[3]: قل لهم يا محمد: وإن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها، من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال، والتجارة على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله الذي وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة.. فانتظروا حتى يأتي أمر الله؛ أي: عقوبته التي تحل بكم عاجلاً أو آجلاً.

---

(1) البحر المحيط.
(2) البحر المحيط.
(3) المراغي.

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها في أربعة:

١ ـ مخالطة الأقارب، وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر الباقي بلفظ العشيرة.

٢ ـ الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة.

٣ ـ الرغبة في تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة.

٤ ـ الرغبة في الأوطان والدور التي بنيت للسكنى.

وخلاصة ذلك: إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله، ومن المجاهدة في سبيله.. فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة.

وبتفصيل ما تقدم في الآية نجد أنها حوت أموراً ثمانية من أفضل ما يحب:

١ ـ حب الأبناء للآباء وهو غريزيٌّ في النفوس، فالولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته وطبائعه، من جسمية وخلقية، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم في أسواقهم وفي معاهد الحج، كما قال تعالى حاثًّا على ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٢ ـ حب الآباء للأبناء وهو غريزيٌّ أيضاً، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه، أو أشد، ويحرم نفسه كثيراً من الطيبات إيثاراً له بها في حاضر أمره ومستقبله، ويكابد الأهوال، ويركب الصعاب، ويقوم بتربيته وتعليمه، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣ ـ حب الإخوة وهو يلي في المرتبة حب البنوة والأبوة، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون في الكفاح في الحياة والبيوت التي سلمت فطرة أهلها وكرمت أخلاقهم، يحبون إخوتهم كأنفسهم وأولادهم، ويوقرون كبيرهم ويرحمون

صغيرهم، ويكفلون من تركه أبوه صغيراً فيتربى مع أولادهم كأحدهم.

٤ ـ حب الزوجة، وبالزوجية يتحد بشران، يتمم وجود كل منهما وجود الآخر، وينتجان بشراً مثلهما، ومن ثم امتن الله علينا به فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

٥ ـ حب العشيرة، وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر، في مواطن القتال والنزال، والذود عن الحمى والحريم، وهو يكون على أشده في أهل البداوة ومن على مقربة منهم من أهل الحضر.

٦ ـ حب الأموال المقترفة؛ أي: المكتسبة، وهو أقوى من حب الأموال الموروثة؛ لأنَّ عناء النفس في جمعها يجعل لها في قلبه منزلة لا تكون لما يجيء من المال عفواً.

٧ ـ حب التجارة التي يخشى كسادها في حال الحرب، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة تجارة يخشون كسادها في ذلك الحين؛ لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين، وكانت أسواقها تنصب في موسم الحج، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة.

٨ ـ حب المساكن الطيبة المرضية، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة في مكة، كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكن، لما فيها من المرافق وأسباب الراحة.

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروهاً مبغوضاً لدى النفوس، فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾.

أما حبه تعالى: فيجب أن يكون فوق هذه الأنواع لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام، وتسخير منافع الدنيا للناس، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان في آلاء الله في خلقه، وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وكذلك حب رسوله، يجب أن يكون فوق هذه أيضاً فإنه ﷺ كان المثل الأعلى في أخلاقه وآدابه، وقد أرسله الله تعالى هدايةً للعالمين إلى يوم الدين.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الخارجين من حدود الدين والشريعة، ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد.

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التي يهتدي إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، ومن ثم هم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله.

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل حب الله ورسوله ﷺ:

منها: ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعاً: «ثلاث من كن فيه.. وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

وعنه أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع، والذكر الحق: هو ذكر القلب مع حسن النية وصحة القصد، وتأمُّل سنن الله وآياته في الخلق، وأن تذكر حين رؤية كل شيء من صنع الله تعالى وسماع كل صوت من مخلوقات الله أنه يسبح بحمده تعالى، ويدل على قدرته وحكمته ورحمته.

ومن أقام فرائض الله كما أمر وترك معاصيه كما نهى.. فإنه يصل بفضل الله تعالى إلى المقام الذي أشار إليه في الحديث القدسي: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته.. كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي

يبطش بها، ورجله التي يمشي بها» رواه البخاري.

الإعراب

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

﴿أَلَا﴾ حرف تحضيض مضمَّن معنى التوبيخ ﴿تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة في محل النصب صفة ﴿قَوۡمٗا﴾ ﴿وَهَمُّواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ ﴿بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿هموا﴾ ﴿وَهُم﴾ مبتدأ ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ ظرف، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿بدؤوا﴾ وجملة ﴿بدؤوا﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب حال من واو ﴿هموا﴾ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي مضمن معنى الإنكار ﴿تخشوهم﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة. ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ﴾: مبتدأ وخبر و﴿الفاء﴾: عاطفة مضمنة معنىٰ التعليل، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ على كونها معلَّلة لها ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر بدل اشتمال من المبتدأ؛ أي: فخشية الله أحق وأجدر بكم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُم﴾ فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاخشوا الله تعالى. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بالطلب السابق، والجملة جملة جوابية، لا محل لها من

الإعراب ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿وَيَنصُرْكُمْ﴾ فعل ومفعول معطوف عليه أيضاً وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿ينصركم﴾ ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه معطوف عليه أيضاً ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمٍ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه معطوف عليه أيضاً، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿عَلَىٰ مَن﴾ جار ومجرور متعلق بيتوب ﴿يَشَاءُ﴾ فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: من يشاء التوبة عليه ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان والجملة مستأنفة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى الهمزة التي للاستفهام الإنكاري، وبل التي للإضراب الانتقالي ﴿حَسِبْتُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر ساد[1] مسد مفعولي حسب تقديره: بل أظننتم تركَكم. ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿لَمَّا﴾ حرف نفي وجزم ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لمَّا﴾ والجملة في محل النصب، حال من واو ﴿تُتْرَكُوا﴾ ﴿جَاهَدُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿جَاهَدُوا﴾ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ جازم وفعل وفاعل معطوف على ﴿جَاهَدُوا﴾ على كونها صلة الموصول، أو في محل النصب حال من واو ﴿جَاهَدُوا﴾ تقديره: ﴿جَاهَدُوا﴾ حال كونهم غير متخذين وليجة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَتَّخِذُوا﴾ أو في محل المفعول الثاني إن كان الاتخاذ بمعنى التصيير ﴿وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفان على الجلالة

---

(١) إعراب النحاس.

﴿وَلِيجَةً﴾ مفعول به، أو مفعول أول ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿خَبِيرٌ﴾ خبره ﴿بِمَا﴾ متعلق بـ ﴿خَبِيرٌ﴾ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فعل وفاعل صلة بـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما تعملونه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا﴾ نافية ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه والجملة الفعلية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسماً مؤخراً لـ ﴿كَانَ﴾ تقديره: ما كان عمارة مساجد الله كائنة للمشركين مستحقةً لهم وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حال من واو ﴿يَعْمُرُوا﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بـ ﴿شَٰهِدِينَ﴾ ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ جار ومجرور متعلق به أيضاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ فعل وفاعل والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَفِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿في النار﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة أولئك.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ فعل ومفعول ومضاف إليه ﴿مَنْ﴾ موصولة في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ وكذلك جملة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفة عليه ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ جازم وفعل مجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿ٱللَّهَ﴾ مفعول به.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة مضمنة معنى التعليل أو استئنافية ﴿عَسَىٰ﴾ فعل ماض ناقص من أفعال الرجاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمها ﴿أَن يَكُونُواْ﴾ ناصب وفعل ناقص واسمه ﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ خبره وجملة ﴿يَكُونُواْ﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه خبر ﴿عَسَىٰ﴾ ولكنه في تأويل اسم الفاعل، تقديره: عسى أولئك كونهم مهتدين؛ أي: عسى أولئك كائنين من المهتدين، والمعنى: حق كونهم من المهتدين، وجملة ﴿عَسَىٰ﴾ معطوفة على جملة قوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أو مستأنفة.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري ﴿جعلتم﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ مفعول أول ومضاف إليه ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ معطوف عليه ﴿كَمَنْ﴾ جار ومجرور في محل المفعول الثاني، لـ ﴿جعل﴾ ولكنه على تقدير مضاف كما مر في بحث التفسير؛ أي: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كائنين كإيمان من آمن بالله ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿ٱلْءَاخِرِ﴾ صفة لـ ﴿اليوم﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿من﴾ الموصولة ﴿وَجَٰهَدَ﴾ فعل ماض ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَ﴾ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ متعلق به ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿وَهَاجَرُواْ

﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ معطوفان عليه ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ متعلق به أيضاً ﴿وَأَنفُسِهِمۡ﴾ معطوف على ﴿أموالهم﴾ ﴿أَعۡظَمُ﴾ خبر المبتدأ ﴿دَرَجَةً﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ ﴿أَعۡظَمُ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ متعلق ﴿يُبَشِّرُهُمۡ﴾ ﴿مِّنۡهُ﴾ صفة الرحمة ﴿وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ﴾ معطوفان على رحمة ﴿لَّهُمۡ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿نَعِيمٞ﴾ وهو مبتدأ مؤخر ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة له والجملة الاسمية في محل الجر صفة لجنات. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة من ضمير ﴿لَّهُمۡ﴾ أو من ضمير ﴿يُبَشِّرُهُمۡ﴾ ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿أَبَدًاۚ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عِندَهُۥٓ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر مقدم ﴿أَجۡرٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿عَظِيمٞ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات أي من الإضافة وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، مجزم بـ ﴿لا﴾ الناهية ﴿ءَابَآءَكُمۡ﴾ مفعول أول، ومضاف إليه ﴿وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾ معطوف عليه ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مفعول ثان، لـ ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾ والجملة الفعلية جواب النداء ﴿إِنِ﴾ حرف شرط ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ﴾ فعل وفاعل

ومفعول، في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ متعلق بـ ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾ لتضمينه معنى اختاروا، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها، تقديره: إن استحبوا الكفر على الإيمان لا تتخذوهم أولياء، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿من﴾ اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما على الخلاف المذكور في محله ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً ﴿أولئك﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿مَنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ. . .﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قُلْ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة. وإن شئت قلت ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كَانَ﴾ في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ اسمها ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ﴾ معطوفات على ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿أموال﴾ ﴿وَتِجَٰرَةٌ﴾: معطوف عليه أيضاً ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿تجارة﴾ ﴿أَحَبَّ﴾: خبر كان ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق به ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلق به أيضاً ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة ﴿وَجِهَادٍ﴾: معطوف على الجلالة أيضاً ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿وَجِهَادٍ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾

الشرطية في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية ﴿يَأْتِيَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يَأْتِيَ﴾ والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المضمرة في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى: إلى، تقديره: إلى إتيان الله ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تربصوا﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ يقال: هَمَّ بالشيء يهم هماً ـ من باب رد ـ إذا أراده. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أصله أتخشيونهم تحركت الياء وانفتح ما قبلها، قلبت ألفاً فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار تخشون بوزن تفعون ﴿غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ وفي «المختار» الغيظ غضب كامن للعجز، تقول: غاظه: من باب باع فهو مغيظٌ، انتهى.

﴿وَلِيجَةً﴾ وفي «المصباح» ولج الشيء في غيره يلج ـ من باب وعد ـ ولوجاً دخل، وأولجته إيلاجاً أدخلته، والوليجة البطانة، اهـ ويراد بها هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين، وفي «السمين» والوليجة فعيلة، من الولوج، وهو الدخول والوليجة من يداخلك في باطن أمورك، وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء وليس منه، فهو وليجة، والرجل في القوم وليس منهم يقال له: وليجة ويستعمل بلفظ واحد للمفرد والمثنى والمجموع، وقد يجمع على ولائج وولج، كصحيفة وصحائف وصحف اهـ.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ المساجد جمع مسجد: وهو في الأصل مكان السجود، ثم صار علماً على البيت الذي يعبد الله وحده فيه، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ وعمارة المسجد، تطلق تارةً على لزومه والإقامة فيه للعبادة، أو لخدمته بتنظيفه أو ترميمه، أو نحو ذلك، وتطلق أخرى على زيارته للعبادة فيه، ومنها: النسك المخصوص المسمى

بالعمرة، وفي «المصباح»: عمرت الدار عمراً، من باب قتل، بنيتها والاسم العِمارة بالكسر، اهـ وفي «المختار»: وعمرت الخراب عمراً، من باب كتب فهو عامر؛ أي: معمور، اهـ.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ السقاية: الموضع الذي يسقى فيه الماء في المواسم وغيرها، ولكن المراد بها هنا المصدر؛ أي: إسقاء الحجاج، وإعطاء الماء لهم، وسقاية العباس موضع بالمسجد الحرام، يستقي فيه الناس، وهو حجرة كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم، لا تزال ماثلة إلى الآن، ولكن جعلها السعوديون الآن تحت الأرض، وقد يراد[1] بالسقاية الحرفة، كالحجابة، وهي سدانة البيت، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش، وقد أقرَّهما الإسلام وفي الحديث «كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» وقد كانت قريش تسقي الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام وفي «السمين» قوله ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الجمهور على قرائتهما مصدرين، على فعالة بكسر الفاء، كالصيانة والوقاية والتجارة، ولم تقلب الياء لتحصنها بتاء التأنيث، بخلاف رداءة وعباءة لطرو تاء التأنيث فيهما، وحينئذٍ فلا بد من حذف مضاف، إما من الأول، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كمن آمن بالله، وإما من الثاني، تقديره: أجعلتم السقاية والعمارة كإيمان من آمن، أو كعمل من آمن، كما مر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَعْظَمُ﴾[2]: اسم تفضيل يجوز أن يبقى هنا على بابه من التفضيل، ويكون ذلك على تقدير: اعتقاد المشركين بأنَّ في سقايتهم وعمارتهم فضيلةً، فخوطبوا على اعتقادهم، أو يكون التقدير: أعظم درجة من الذين آمنوا ولم يهاجروا، ولم يجاهدوا، وقيل: أعظم ليس على بابه، بل هو كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

﴿مُسْتَقَرًّا﴾ وكأنه قيل: عظيمون درجة، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: بالمكانة لا بالمكان.

﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ استحب كذا وأحبه بمعنى واحد فالسين والتاء فيه زائدتان ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه اللائق به؛ لأنهم وضعوا المحبة في غير موضعها ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ والعشيرة[1]: الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد، وعشيرة الرجل ذوو قرابته الأدنون الذين يعاشرونه، ومن شأنهم التعاون والتناصر، وهو اسم جمع، وقرأ أبو بكر وحماد: ﴿عشيراتكم﴾ بجمع السلامة، فقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات، وإنما يجمعونها على عشائر جمع تكسير ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ والاقتراف: الاكتساب، يقال: اقترف إذا اكتسب، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه، والتركيب يدور على الدنو، والكاسب يدني الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه، والتجارة: الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، وكسادها عدم نفاقها، لفوات وقت بيعها، بالهجرة ومفارقة الأوطان، يقال: كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له نَفاق ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ جمع مسكن، وهو المنزل المتخذ سكناً، والمراد بها هنا: المنازل التي تعجبهم وتميل إليها أنفسهم، ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله والتربص الانتظار و﴿أمره﴾ عقوبته عاجلاً أو أجلاً، كما مر ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وفي «التحرير» الفسق هنا: الكفر، ويدل عليه ما قابله من الهداية والكفر ضلال، والضلال: ضد الهداية، وإن كان ذلك في المؤمنين الذين لم يهاجروا، فيكون الفسق: الخروج عن الطاعة، فإنهم لم يمتثلوا أمر الله تعالى ولا أمر رسوله ﷺ في الهجرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات من ضروب البلاغة والفصاحة والبيان والبديع أنواعاً:

فمنها: التحضيض المضمن معنى التوبيخ في قوله: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ﴾ وهو

---

(١) الشوكاني.

الطلب بحثٍّ وإزعاج، فالمعنى: قاتلوا قوماً... إلخ.

ومنها: ذكر اسم الجلالة مكان الضمير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾؛ أي: بالقتال؛ لأنه مجاز عن إعانتهم لبني بكر على خزاعة قال أبو السعود: الإعانة على القتال بإعطاء السلاح تسمى قتالاً مجازاً اهـ.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وفي قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾؛ لأنه كلام مستأنف، خوطب به المشركون التفاتاً من الغيبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وفيه أيضاً مجاز الحذف؛ لأنه على تقدير؛ أجعلتم أهل سقاية الحاج كما مر.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ وهو الجمع بين فعلين من نوع واحد، أحدهما منفي والآخر مثبت؛ لأن الأول هنا في قوة المنفي لدخول همزة الاستفهام الإنكاري عليه.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأن المراد النهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من أفراد المشركين، بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

ومنها: مراعاة اللفظ تارةً والمعنى أخرى في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ فيه مراعاة لفظ (من) وقوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ فيه مراعاة معناها.

ومنها: المزاوجة في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ...﴾ إلى آخر الآية وهي أن يزواج؛ أي: يقارن بين أمرين فأكثر في الشرط والجزاء.

ومنها: تعريف جزئي الكلام مع الإتيان بضمير الفصل، إفادة للحصر في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ أي: هم الفائزون لا غيرهم.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وفيه أيضاً تخصيص الصلاة والزكاة بالذِّكر، تفخيماً لشأنهما، وإظهارا لفضلهما.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ للتفخيم والتعظيم؛ أي: برحمة لا يبلغها وصف واصف.

ومنها: الإتيان بصيغة الأمر مراداً به التهديد والوعيد، في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ نظير قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية، في قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ شبه الدوام بالإقامة، فاشتق منه مقيم بمعنى دائم، على طريقة الاستعارة التصريحية.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر فيما قبلها أنّ[1] الخير

(١) المراغي.

والمصلحة للمؤمنين في ترك ولاية أولي القربى من الكافرين، وفي إيثار حب الله ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها، مما يحب.. أبان فيها أن نصر الله للمؤمنين في المواطن الكثيرة، لم يكن بقوة العصبية، ولا بقوة المال، ولا بما يشترى به من الزاد والعتاد، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول، الذي جاءهم بذلك الدين القويم، وإن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين، كان ابتلاءً لهم على عجبهم بكثرتهم، ورضاهم عنها، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية، لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها. وقال أبو حيان[1]: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قدم قوله: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ واستطرد بعد ذلك بما استطرد ذكرهم تعالى نصره إياهم في مواطن كثيرة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لما أمر[2] النبي ﷺ أبا بكر حين أمَّره على الحج سنة تسع من الهجرة أن يبلغ الناس، أنه لا يحج بعد هذا العام مشركٌ، ثم أمر عليًّا أن يتبع أبا بكر، فيقرأ على الناس أول سورة براءة يوم الحج الأكبر وينبذ إليهم عهدهم، وأن الله بريءٌ من المشركين ورسوله.. قال الناس: يا أهل مكة، ستعلمون ما تلقون من الشدة، لانقطاع السبل، وفقد الحمولات، فنزلت هذه الآية لدفع تلك الشبهة، فقال سبحانه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: كان المشركون يجيؤون إلى البيت. ويجيؤون معهم بالطعام، يتجرون فيه، فلما نهوا أن يأتوا البيت.. قال المسلمون: فمن أين لنا الطعام؟ فأنزل الله ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ...﴾ الآية، قال: فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم، وأسلم أهل اليمن، وجاءهم الناس من كل فج.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أحكام المشركين، في إظهار البراءة من عهودهم، وفي إظهار البراءة منهم في أنفسهم، وفي وجوب مقاتلتهم، وإبعادهم عن المسجد الحرام.. أردف ذلك بحكم قتال أهل الكتاب، وبيان الغاية منه، وفي ذلك توطئةٌ للكلام في غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب والخروج إليها في زمن العسرة والقيظ - شدة الحر - وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وهتك حجب كفرهم، وتمحيص المؤمنين، وإن كان النبي ﷺ لم يقاتل فيها الروم، لما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر[1] في الآيات السابقة أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح.. أردف ذلك بشرح المجمل في هذه الآيات، فنقل عنهم، أنهم أثبتوا لله ابناً، وهذا بمنزلة الشرك بالله، فإن طرق الشرك مختلفة، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، يحرمون ويحللون، وأنهم يسعون في إبطال الإسلام وإخفاء الدلائل الدالة على صدق رسوله، وصحة دينه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر في الآيات السالفة أن اليهود والنصارى، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، فعبدوا غيره من دونه.. أردف ذلك بذكر سيرة جمهرة هؤلاء الرؤساء الدِّينيين في معاملاتهم مع الناس، ليعرف المسلمون حقيقة أحوالهم، والدواعي التي تحملهم على إطفاء نورالله، ببيان أن أكثرهم عباد شهوات وأرباب أهواء، وذوو أطماع وحرص على أموال الناس بالباطل، وأنه ما حملهم على مقاومة الإسلام إلا خوف ضياع تلك اللذات، وفوات تلك

---

(١) المراغي.

الشهوات، ثم أوعد الباخلين الذين يكنزون الذهب والفضة في صناديقهم ولا ينفقونها في سبل البر والخير بالعذاب الأليم، وفي نار جهنم يوم يحمى على تلك الأموال المكنوزة، فتصير كالنار التهاباً، ثم تكوى بها الجباه والجنوب والظهور، ويقال لهم: هذا جزاء صنيعكم في الدنيا، منعتموه البائس الفقير، لتتمتعوا به، فكان جزاؤكم أن صار وبالاً عليكم، وميسماً تكتوون به على جنوبكم وظهوركم، فلم تنتفعوا به في دين ولا دنيا.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] البيهقي في «الدلائل»، عن الربيع بن أنس، أن رجلاً قال يوم حنين: لن نغلب من قلة، وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام، يتجرون فيه، فلما نهوا أن يأتوا البيت.. قال المسلمون: من أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير، قال: لمَّا نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.. شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وأخرج مثله عن عكرمة وعطية العوفي والضحاك وقتادة وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى ومحمد بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله في ذلك ﴿وَقَالَتِ

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

﴿ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما[1]: ما أخرجه البخاري عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك، وكتب إلى عثمان - رضي الله عنه - يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها. فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمروا عليَّ حبشياً.. لسمعت وأطعت.

التفسير وأوجه القراءة

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أيها المؤمنون ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ وأماكن ﴿كَثِيرَةٍ﴾ للحرب، توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، وفي مشاهد تلتقون فيها أنتم وهم في صعيد واحد للطعان والنزال إحقاقاً وإظهاراً لدينه.

روى أبو يعلى عن جابر، أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون، قاتل بنفسه في ثمانٍ، منها: بدر، وأُحد، والأحزاب، والمصطلق، وخيبر، ومكة، وحنين، والطائف.

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون، واختار جمع من العلماء، أن المغازي والسرايا كلها ثمانون ولم يقع في بعضها قتال، ونصرهم في كل قتال إما نصراً كاملاً وهو الأكثر، وإما نصراً مشوباً بشيء من التربية على ذنوب اقترفوها، كما في أُحد إذ نصرهم أوّلاً ثم أظهر عليهم العدو، لمخالفتهم أمر القائد الأعظم،

---

(١) البخاري.

في أهم أوامر الحرب، وهو حماية الرماة لظهورهم، وكما في حنين من الهزيمة في أثناء المعركة والنصر التام في آخرها.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾؛ أي: ولقد نصركم الله سبحانه وتعالى أيضاً يوم قتالكم مع هوازن، في وادي حنين، فهوازن قبيلة حليمة السعدية، مرضعة رسول الله ﷺ وحنين اسم واد بين مكة والطائف، بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، وذلك لما فتح رسول الله ﷺ مكة وقد بقيت أيام من شهر رمضان.. خرج في شوال، في تلك السنة، وهي سنة ثمان من الهجرة، متوجهاً إلى حنين لقتال هوازن وثقيف، والظرف في قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ أي: إذ أفرحت وبشرت أنفسكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾؛ أي: كثرة عددكم وعُددكم بدل من يوم؛ أي: نصركم يوم حنين إذ أعجبت أنفسكم كثرة عددكم وعُددكم، إذ كنتم اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتحوا بمكة، وألفان من الطلقاء، وهم الأسراء الذين أخذوا يوم فتح مكة وأطلقوا، وهم أسلموا بعد فتح مكة في هذه المدة القليلة، وكان الكفار من هوازن وثقيف أربعة آلاف فقط، ومعهم أمداد من سائر العرب، فقال قائل منكم - قيل اسمه سلمة بن سلامة الأنصاري - افتخاراً بكثرتكم: لن نغلب اليوم من قلة؛ أي: من أجلها؛ أي نحن كثيرون فلا نغلب، فأحزنت تلك الكلمة رسول الله ﷺ، فكانت الهزيمة عليكم؛ أي: فكانت الهزيمة عقوبة لكم على هذا الغرور والعجب، وتربيةً للمؤمنين حتى لا يغتروا بالكثرة مرةً أخرى ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾، أي: فلم تدفع عنكم كثرتكم ﴿شَيْئًا﴾ من عار الغلب والهزيمة ولم تفدكم في مقاومة العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ الواسعة من شدة الخوف ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾؛ أي: مع رحبها وسعتها، فالباء[1] بمعنى مع، و﴿ما﴾ مصدرية والمعنى: إن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليكم بسبب ما حل بكم من الخوف والوجل، فلم تجدوا وسيلةً للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾؛ أي: انهزمتم حالة كونكم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾؛ أي: مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم، لا تلوون على شيء، وثبت رسول الله ﷺ، وثبت

---

(١) الشوكاني.

طائفة قليلة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث ثم تراجع المسلمون، فكان النصر والظفر لهم.

وقال البراء بن عازب[1]: كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم.. انكشفوا وأكبينا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه ﷺ إلا عمه العباس، وهو آخذ بلجام بغلته، وابن عمه أبا سفيان حرب بن الحارث بن عبد المطلب، وهو آخذ بركابه، وقد أسلم هو والعباس يوم الفتح، وهو ﷺ يركض بغلته الشهباء نحو الكفار، لا يبالي وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» ثم قال للعباس: «ناد المهاجرين والأنصار» وكان العباس رجلاً صيتاً، فجعل ينادي: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقاً واحداً، وأخذ رسول الله ﷺ بيده كفا من الحصى، فرماهم بها، وقال: «شاهت الوجوه» فما زال أمرهم مدبراً وحدهم كليلاً حتى هزمهم الله تعالى، ولم يبق منهم يومئذٍ أحد إلا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: رحمته التي يحصل بها سكون وثبات وأمن ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ ﷺ ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين، هم الذين لم ينهزموا، وقيل: الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم؛ لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا؛ أي: ثم[2] أفرغ الله سكينةً وطمأنينة من عنده على رسوله ﷺ، بعد أن عرض له الأسف والحزن على أصحابه، حين وقوع الهزيمة لهم، فما ازداد إلا ثباتاً وشجاعة وإقداماً على العدو ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا معه، وأحاطوا ببغلته الشهباء وعلى سائر المؤمنين الصادقين، فأذهب روعهم، وأزال حيرتهم، وأعاد إليهم ما كان قد زلزل من ثباتهم وشجاعتهم وخصوصاً حين سمعوا نداءه ﷺ ونداء عمه العباس إذ دعاهم بأمره.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

﴿وَأَنزَلَ﴾ الله تعالى مع هذه السكينة من السماء ﴿جُنُودًا﴾ من الملائكة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، بل وجدتم أثرها في قلوبكم بما عاد إليها من الثبات وشدة البأس، وهم الملائكة أنزلهم لتقوية قلوب المؤمنين، بإلقاء الخواطر الحسنة في قلوبهم، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، لا للقتال؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا في يوم بدر، ﴿وَعَذَّبَ﴾ أعداءكم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله بالقتل والأسر والسبي، وهم قوم مالك بن عوف الدهماني، وقوم كنانة بن عبد يا ليل الثقفي ﴿وَذَٰلِكَ﴾ التعذيب بالقتل والأسر ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ بالله ورسوله في الدنيا، ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب الذي وقع عليهم في الدنيا بالأسر والخذلان ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ التوبة عليه من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تحط بهم خطيئات الشرك وخرافاته، ولم يختم على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً؛ أي: وهو تعالى غفور لهم، يتجاوز عمّا سلف منهم من الكفر والمعاصي، رحيم بهم يتفضل عليهم، ويثيبهم بالأجر والجزاء.

فصلٌ في وفد هوازن وإسلامهم وغنائمهم

وروي عن المسور بن مخرمة وغيره، أن ناساً منهم[1] جاؤوا رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس، وأبر الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، فقال ﷺ «إن ما عندي ما ترون، إن خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً وهي مفاخر الآباء الذراري والنساء، فقام رسول الله ﷺ، فقال: «إن هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنّا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده أسير، وطابت نفسه أن يرده.. فشأنه - أي: فيلزم شأنه - ومن لا.. فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه»،

---

(١) المراغي.

قالوا: قد رضينا وسلمنا، فقال ﷺ: «إنا لا ندري، لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفائكم، فليرفعوا ذلك إلينا» فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا، ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم، فقد كان فيها من الإبل اثنا عشر ألفاً، ومن الغنم ما لا يحصى عدداً، ومن الأسرى ستة آلاف من نسائهم وصبيانهم، وكان فيها غير ذلك، ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفاصيلها، فلا نطيل الكلام بذلك.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ أي: أنجاس فاسدوا الاعتقاد، يشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ويأكلون الميتة والدم، وهي أقذار حسية، ويستحلون القمار والزنا، ويستبيحون الأشهر الحرم، وهي: أرجاس معنوية فمن أجل هذا ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾؛ أي: بعد هذه السنة التي حصل فيها النداء بالبراءة من المشركين، وهي السنة التاسعة من الهجرة؛ أي: لا تمكنوهم بعد هذا العام، أن يدخلوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم، فضلاً عن دخول البيت نفسه وطوافهم فيه عراةً، يشركون بربهم في التلبية، وإذا صلوا.. لم تكن صلاتهم إلا مكاءً وتصدية.

تنبيه: واعلم أن بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام[1]:

١ ـ **الحرم**: فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال، لظاهر الآية، وبذلك قال الشافعي وأحمد ومالك: فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم.. لا يأذن له في دخوله الحرم، بل يخرج إليه بنفسه، أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وأبو حنيفة يجيز للمعاهد دخول الحرم بإذن الخليفة أو نائبه.

٢ ـ **الحجاز**: وهو ما بين عدن إلى ريف العراق في الطول، ومن جدة وماوالاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً، ويجوز للكافر دخولها

---

(١) المراغي.

بالإذن، ولكن لا يقيمون فيها أكثر من ثلاثة أيام، روى مسلم عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، فلا أترك فيها إلا مسلماً» وفي رواية لغير مسلم: وأوصى، فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» فلم يتفرغ لذلك أبو بكر، وأجلاهم عمر في خلافته، وأخرج مالك في «الموطأ» مرسلاً: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وروي عن مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم».

٣ ـ سائر بلاد الإسلام: فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم، وقرأ الجمهور: ﴿نَجَس﴾، بفتح النون والجيم، وهو مصدر نجس نجساً بكسر الجيم وضمها في الماضي؛ أي: قذر قذراً، وقرأ أبو حيوة[1]: ﴿نِجْس﴾ بكسر النون وسكون الجيم، وهو اسم فاعل، من نجس، فخففوه بعد الاتباع، كما قالوا: في كبِد كبْد، وفي كرش كرش، وقرأ ابن السميقع: ﴿أنجاس﴾ فيحتمل أن يكون جمع نجس المصدر، وجمع نجس اسم فاعل.

ولما امتنع المشركون من دخول الحرم، وكانوا يتجرون ويأتون مكة بالطعام، وكانت معايش أهل مكة من التجارات، فخافوا الفقر وضيق العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.. أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون بسبب امتناع المشركين من مكة ﴿عَيْلَةً﴾؛ أي: فقراً بسبب قلة جلب الأقوات، وضروب التجارات التي كان يجلبها المشركون، من أرباب المزارع في الشعاب، والوديان من البلاد ذات البساتين والمزارع، كالطائف وأرباب المتاجر ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ورزقه وعطائه من وجه آخر ﴿إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ذلك، وفضله كثير، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنىٰ مما كانوا قبل ذلك، فقد تعددت وسائل الغنى فيما بعد، وصدق

---

(١) البحر المحيط.

وعده، فأرسل الله تعالى عليهم السماء مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر ميرهم، وأسلم أهل جدة وحنين وأهل اليمن وصنعاء وتبالة، وصاروا يجلبون الطعام لأهل مكة، وأسلم أولئك المشركون، ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب، بما فتح الله عليهم من البلاد، فكثرت الغنائم، وتوجه إليهم الناس من كل فجٍّ، ومهد الله لهم سبل الرزق، من إمارة وتجارة وزراعة وصناعة، وكان نصيب مكة من ذلك عظيماً بكثرة الحاج، وأمن طرق التجارة.

وقيد[1] هذا الغني بمشيئته التي لا يشك مؤمن في حصول ما تتعلق به، لتقوية إيمانهم بربهم واتكالهم عليه دون كسبهم وحده، وإن كانوا مأمورين به، لأنه من سننه في خلقه، ولكن لا يجوز أن ينسوا توفيقه وتأييده لهم، فهو الذي نصرهم وأغناهم، وسيزيدهم نصراً وغنًى.

وقال أبو حيان[2]: وعلق بالمشيئة، لأنه يقع في حق بعض دون بعض، وفي وقت دون وقت. وقيل: لإجراء الحكم على الحكمة، فإن اقتضت الحكمة والمصلحة إغناءكم.. أغناكم، وقال القرطبي: إعلاماً بأن الرزق لا يأتي بحيلة ولا اجتهاد، وإنما هو فضل الله. ويروى للشافعي:

لَوْ كَانَ بِٱلْحِيَلِ ٱلْغِنَىٰ لَوَجَدْتَنِيْ ... بِنُجُوْمِ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاءِ تَعَلُّقِيْ

لَكِنَّ مَنْ رُزِقَ ٱلْحِجَا حُرِمَ ٱلْغِنَىٰ ... ضِدَّانِ مُفْتَرِقَانِ أَيَّ تَفَرُّقِ

وَمِنَ ٱلدَّلِيْلِ عَلَىٰ ٱلْقَضَاءِ وُكَوْنِهِ ... بُؤْسُ ٱللَّبِيْبِ وَطِيْبُ عَيْشِ ٱلأَحْمَقِ

وقرأ ابن مسعود وعلقمة من أصحابه: ﴿عائلة﴾، وهو مصدر كالعاقبة، والعافية والقابلة أو نعت لمحذوف؛ أي: حالاً عائلة. وقيل: معناه: خصلةً شاقةً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، عليم بأحوالكم وبمصالحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لكم، فلا يعطي ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب، وحكيم فيما يشرعه لكم، من أمرٍ ونهي، كأمركم بقتال

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

المشركين بعد انقضاء عهودهم، ونهيكم عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد عامهم هذا، ونهيكم عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم منهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والخطاب في قوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ للنبي ﷺ وأصحابه.

والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله، ولا بمجيء اليوم الآخر؛ لأن[1] اليهود مثنِّية، والنصارى مثلِّثة، فإن قلت:[2] اليهود والنصارى، يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟

قلت: إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين، وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون الحلول، ومن اعتقد ذلك.. فليس بمؤمن بالله، بل هو مشرك بالله، وقيل: من كذب رسولاً من رسل الله.. فليس بمؤمن بالله، واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء، فليسوا بمؤمنين بالله، وأما إيمانهم باليوم الآخر.. فليس كإيمان المؤمنين، وذلك يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون فيها ولا ينكحون، ومن اعتقد ذلك.. فليس إيمانه كإيمان المؤمنين، وإن زعم أنه مؤمن ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى في الكتاب ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: ولا ما حرم رسوله محمد ﷺ في السنة، من الخمر والخنزير، وسائر المحرمات، كالربا وأخذ أموال الناس بالباطل، أو المعنى: ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله المرسل إليهم في التوارة والإنجيل؛ أي: لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوهما وأتوا بأحكام كثيرة من عند أنفسهم.

والمعنى: أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ولا يتمسكون دين الحق، الذي هو دين الإسلام، أو لا يعتقدون صحة دين الإسلام الذي هو الدين الحق، حالة كون هؤلاء المذكورين

---

(١) النسفي. (٢) الخازن.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: من الذين أعطوا التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾؛ أي: قاتلوهم حتى يعطوا الجزية، أو يسلموا؛ أي: حتى يقبلوا إعطاء الجزية لكم، والمراد بإعطائها التزامها بالعقد. وإن لم يجيء وقت دفعها، ذكره في «الفتوحات». والجزية: هي ما يعطي المعاهد من أهل الكتاب على عهده، وهي الخراج المضروب على رقابهم، سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس: أعطى عن يد، وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم، ولا يرسلون بها على يد غيرهم؛ أي: حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً، غير نسيئةً، لا مبعوثاً على يد أحد، ولكن عن يد المعطي إلى يد الآخذ، وقيل: يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم، لأن ترك أروحهم عليهم بقبول الجزية ومنهم نعمة عظيمة ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم أذلاء مقهورون، منقادون لحكم الإسلام، يجرون إلى الموضع الذي يقبض منهم فيه بالعنف، حتى يؤدوها عن يدهم.

وحاصل معنى الآية[1]: قاتلوا أهل الكتاب إذ هم جمعوا أربع صفات، هي العلة في عدواتهم للإسلام، ووجوب خضوعهم لحكمه ما داموا في دار الإسلام، إذ لو أجيز لهم حمل السلاح.. لأفضى ذلك إلى قتال المسلمين في دارهم ومساعدة من يهاجمهم فيها، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي ﷺ لهم وجعلهم حلفاء له، وأجاز لهم الحكم فيما بينهم بشرعهم، وسمح لهم بالعبادة على النحو الذي يريدون، وكذلك فعل مع نصارى الروم في حدود البلاد العربية.

وهذه الأمور الأربعة التي أسند إليهم تركها، هي أصول كل دين إلهي، ومن ثم، أمر بقتال الذين لا يقيمونها، وهي:

١ ـ أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وقد شهد القرآن بأنَّ اليهود والنصارى فقدوا

---

(١) المراغي.

الإيمان، بهدم أساسه، وهو التوحيد، إذ قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يشرعون لهم العبادات، ويحرمون ويحللون، فيتبعونهم، وبذا أشركوهم في الربوبية، ومنهم من أشرك به في الألوهية، كالذين قالوا: عزير ابن الله، والذين قالوا: المسيح ابن الله، أو هو الله.

٢ ـ أنهم ﴿لا﴾ يؤمنون ﴿بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إذ هم يقولون: إن حياة الآخرة حياة روحانية محضة، يكون الناس فيها كالملائكة، لكنا نؤمن بأن الإنسان لا تنقلب حقيقته، بل يبقى مؤلفاً من جسد وروح، ويتمتع بنعيم الأرواح والأجساد، ولا يوجد فيما بين يدي اليهود والنصارى من التوراة نصوص صريحة في البعث والجزاء بعد الموت، بل فيها إشارات غير صريحة في ذلك.

٣ ـ أنهم ﴿لا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فاليهود لا يحرمون ما حرم في شرعهم الذي جاء به موسى، ونسخ بعضه عيسى، ولا يلتزمون العمل بما حرم، فقد استحلوا أكل أموال الناس بالباطل، كالربا وغيره، واتبعوا عادات المشركين في القتال والنفي، ومفاداة الأسرى، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم في التوراة مما لم ينسخه الإنجيل، فأباحوا جميع محرمات الطعام والشراب، إلا ما ذبح للأصنام، فقد ثبت في كتبهم أن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها، وأكلوا أثمانها، وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها.

٤ ـ أنهم ﴿لا يدينون دين الحق﴾ إذ أن ما يتقلدونه إنما هو دين تقليدي، وضعه لهم أساقفتهم وأحبارهم بآرائهم الاجتهادية، وأهوائهم المذهبية، لا دين الحق الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى وعيسى عليهما السلام.

والخلاصة: قاتلوا أيها المؤمنون من وصفوا بتلك الصفات الأربعة إذا وجد منهم ما يقتضي القتال، كالاعتداء عليكم، أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم، كما فعل بكم الروم وكان ذلك سبباً لغزوة تبوك؛ أي: قاتلوهم إلى أن تأمنوا عدوانهم، بإعطائكم الجزية، بشرط أن تكون صادرة عن يد؛ أي: من قدرة واسعة فلا يظلموا ولا يرهقوا، وبشرط أن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم، وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما

يشاهدون من عدلكم، وفضائلكم التي يرونها رأي العين.

فإن أسلموا.. عمَّ الهدى والعدل، وإن لم يسلموا وأعطوا الجزية.. وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم، وإعطاؤهم حريتهم في دينهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون، ويسمون حينئذٍ: أهل الذمة إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله، أما الذين يعقد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق، يعترف به الطرفان.. فيسمون: المعاهدين، أو أهل العهد، ولقب[1] أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب وإن كان عاماً خص به اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين لديها، كما قال تعالى: مخاطباً لمشركي العرب ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

فصلٌ في الجزية

واعلم[2]: أن قدر الجزية أقلها دينار، ولا يجوز أن ينقص عنه، ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط، ويدل عليه ما روي عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ لما وجهه إلى اليمن.. أمره أن يأخذ من كل حالم؛ أي: محتلم ديناراً أو عدله من المعافرية - ثياب تكون باليمن - أخرجه أبو داود، فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ ديناراً، ولم يفرق بين الغني والفقير والمتوسط، وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء، وإنا تؤخذ من الأحرار البالغين، وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط دينارين، وعلى كل فقير ديناراً، وهو قول أصحاب الرأي، ويدل عليه ما روي أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورِق أربعين درهماً، ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام، أخرجه مالك في «الموطأ».

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وقال أصحاب الشافعي: أقل الجزية دينار، لا يزاد على الدينار إلا بالتراضي، فإذا رضي أهل الذمة بالزيادة.. ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغني أربعة دنانير.

وقال العلماء: إنما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل، بخلاف أهل الشرك، حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوارة والإنجيل، قبل النسخ والتبديل، وأيضاً فإن بأيديهم كتباً قديمة، فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد ﷺ وصحة نبوته، فأمهلوا لهذا المعنى، وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب، إقرارهم على كفرهم، بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وإمهالهم، رجاء أن يعرفوا الحق، فيرجعوا إليه، بأن يؤمنوا ويصدقوا إذا رأوا محاسن الإسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله، ولا يدينون دين الحق.. بيَّن في هذه الآية الآتية ما أجمله في تلك فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً، ومن جوز ذلك على الله.. فقد أشرك به؛ لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح، فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ لعائن الله تعالى عليهم؛ أي: قال بعضهم وهم يهود المدينة؛ لأن قول بعضهم لازم لجميعهم وهم سلام ابن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، أو فنحاص بن عازوراء ﴿عُـزَيْرٌ﴾ بن شرخيا ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

روى[1] ابن إسحاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك، وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ كما مر بيان ذلك في الأسباب، وإسناد هذا القول إليهم جملة، وإن كان قد صدر من بعضهم مَبنيٌّ على أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها

---

(١) المراغي.

العامة فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه.. يؤاخذون به كلهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

وسبب هذا القول منهم أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت الذي فيه التوراة، وأنساهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فتضرع عزير إلى الله تعالى ودعاه أن يرد إليه التوراة، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله تعالى، إذ نزل نور من السماء، فدخل جوفه فعادت التوراة إليه، فأعلم قومه، وقال: يا قوم قد آتاني الله تعالى التوراة، وردها علي، فتعلموا منه عن ظهر لسانه، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت، عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت.. فوجدوه مثله، فقالوا: ما جمع التوراة في صدر عزير وهو غلام إلا لأنه ابنه.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾؛ أي: قال بعضهم: ﴿الْمَسِيحُ﴾ عيسى بن مريم ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذا قول القدماء منهم، كانوا يريدون به المحبوب أو المكرم، ثم سرت إليهم وثنية الهنود، فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقةً وعلى أن ابن الله بمعنى ﴿اللَّهِ﴾ وبمعنى روح القدس إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة.

روي أن أتباع عيسى كانوا على الدين الحق، بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة، يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان، حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود، وكان في اليهود رجل شجاع، يقال له: بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال بولس لليهود: إن كان الحق مع عيسى.. فقد كفرنا، والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلنا النار، ودخلوا الجنة، فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا، ثم إنه أتى إلى النصارى. فقالوا: له من أنت؟ قال: أنا عدوكم بولس، قد نوديت من السماء: إنه ليست لك توبة حتى تتنصر وقد تبت، فأدخله النصارى الكنيسة، ومكث سنة في بيت فيها، ولم يخرج منها حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج، وقال: قد نوديت: إن الله قد قبل توبتك،

فصدقوه وأحبوه، وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عهد إلى أربعة رجال، اسم واحد منهم: نسطور، والآخر يعقوب، والثالث ملكان، والرابع، من أهل الروم، فعلَّم نسطوراً أن عيسى ومريم والله آلهة ثلاثة، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان، وأنه ابن الله، وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال عيسى، وعلم رجلاً آخر من الروم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً ولكنه الله، ثم دعا كل واحد منهم في الخلوة، وقال له: أنت خليفتي فادع الناس لما علمتك، وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني وأني غداً أذبح نفسي لمرضاة ربي ثم دخل المذبح فذبح نفسه، فتفرقوا ودعوا الناس إلى مذاهبهم، واختلفوا، ووقع القتال بينهم، فكان ذلك سبب قولهم: المسيح ابن الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي قالوه في عزير وفي المسيح ﴿قَوْلُهُم﴾؛ أي: قول صادر واقع من غير فائدة ولا برهان، يقولونه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وتلوكه ألسنتهم مجرد عن المعنى، خال عن الفائدة، لا يؤيده برهان، ولا يتجاوز حركة اللسان، بل البرهان دال على عكسه، لاستحالة إثبات الولد لمن هو بريءٌ عن الحاجة، واتخاذ الصاحبة.

ووجه[1] تقييده بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا من الفم: أن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان، ولا عضده برهان، كان مجرد دعوى لا معنى تحتها، فارغة صادرة عنهم صدور المهملات، التي ليس فيها إلا كونها خارجةً من الأفواه، غير مفيدة لفائدة يعتد بها، وقيل: إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد، كمافي كتبت بيدي، ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه، لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأشباه ذلك.

---

(١) الشوكاني.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ أي: يشابهون في قولهم ذلك ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلهم، وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

وفي معنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا من قبل أقوال لأهل العلم:

الأول: أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم: واللات، والعزى، ومناة، بنات الله.

القول الثاني: أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين أن الملائكة بنات الله.

الثالث: أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيراً ابن الله، وأن المسيح ابن الله.

وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى دعاء عليهم بالهلاك؛ لأن من قاتله الله.. هلك، وقيل: هو تعجب من شناعة قولهم، وقيل، معنى قاتلهم الله: لعنهم الله تعالى، وطردهم من رحمته ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن توحيد الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وبه تجزم كل العقول، وبلغه عن الله كل رسول إلى قول لا يقبله عقل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله، الذي خلق هذا الكون العظيم، ودبر أمره، ولا ينبغي لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شؤونه ولداً من جنسه، مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون﴾.

وقرأ عاصم والكسائي: ﴿عُزَيْرٌ﴾ منوناً على أنه عربي، وباقي السبعة: بغير تنوين، ممنوع الصرف، للعجمة والعلمية، كعاذر وعيذار وعزرائيل، وعلى كلتا القراءتين فـ﴿ابن﴾ خبر، وقرأ عاصم، وابن مصرف ﴿يضاهؤن﴾، بالهمز، وباقي السبعة: بغير همز، ثم فصل قوله من قبل ﴿يضاهؤن﴾ قول الذين كفروا من قبل بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟﴾؛ أي: اتخذ كل من اليهود والنصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾؛ أي: علماءهم ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾؛ أي عبادهم ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، كالربا والرشوة والخمر والخنزير، وتحريم ما أحل الله تعالى، كالسوائب والبحائر، أو في السجود لهم

﴿وَ﴾ اتخذت النصارى زيادة على ما مر ﴿المسيح﴾ عيسى ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ ربًّا معبوداً بعد ما قالوا: إنه ابن الله.

والمعنى: اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساءهم في الدين أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم، وهم علماء الدين، أرباباً بما أعطوهم من حق التشريع فيهم، وإطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم؛ أي: عبادهم الذين يخضع ويركع لهم العوام أرباباً كذلك.

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين، فاتخاذهم أرباباً يقتضي بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء، مدوناً كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان، ولو غير مدون، سواء قالوه تبعاً لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم، وانفردت النصارى باتخاذهم المسيح ربًّا وإلهاً يعبدونه، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقةً، ويصرحون بذلك، واليهود لم يقصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم، ثم دونوه، فكان هو الشرع العام، وعليه العمل عندهم، والنصارى غيَّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية، واستبدلوا بها شرائع أخرى في العبادات والمعاملات جميعاً، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاؤوا، وحرمان من شاؤوا من رحمة الله وملكوته، والله يقول: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهى عنه من المحرمات.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾؛ أي: اتخذ هؤلاء الكفار ما ذكر أرباباً من دون الله، والحال أنهم ما أمروا في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله عظيم الشأن، هو الله تعالى؛ أي[1] اتخذوا رؤساءهم أرباباً من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الربُّ هو الذي يجب أن يعبد وحده،

---

(١) المراغي.

والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى، ومن اتبعهما فيما جاء به من عند الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً، بما شرعه لهم، وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه، ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ وهذه الجملة صفة لـ﴿إِلَٰهًا﴾؛ أي: لا معبود بحق في الوجود غيره تعالى في حكم الشرع ولا في نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأي والهوى، جهلاً بصفات الألوهية، إذ ظنوا أن لبعض المخلوقات سلطاناً غيبياً، وقدرة على الضر والنفع، من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ما لله، إما بالذات، وإما بالوساطة والشفاعة لديه.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه وتمجَّد اللّه له تعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

﴿يُرِيدُونَ﴾؛ أي: يريد رؤساء اليهود والنصارى ﴿أَن يُطْفِـُٔوا﴾ ويخمدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: دين الله الذي هو دين الإسلام ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي: بتكذيبهم وألسنتهم يعني[1] يريد هؤلاء إبطال دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، بتكذيبهم إياه، وقيل المراد من النور: الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ، وهي أمور:

أحدها: المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي ﷺ، الدالة على صدقه.

وثانيها: القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه.

وثالثها: أن دينه الذي أمر به، وهو دين الإسلام، ليس فيه شيء سوى تعظيم الله، والثناء عليه، والانقياد لأمره، ونهيه واتباع طاعته، والأمر بعبادته والتبري من كل معبود سواه، فهذه أمور نيرة، ودلائل واضحة، في صحة نبوة محمد ﷺ، فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير.. فقد خاب سعيه وبطل عمله.

---

(١) الخازن.

وهذه الجملة تمثيل[1] لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوة نبي الصدق، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم، قد أنارت به الدنيا، وانقشعت به الظلمة، ليطفئه ويذهب أضواءه، ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمداً ﷺ بمزيد النصر، وإعلاء الكلمة، وإظهار الدين بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ويمتنع، ولا يريد كل شيء ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ ويظهر ﴿نُورَهُۥ﴾ ويعلي كلمته، ويتم الحق، الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ.

وخلاصة ما سلف[2]: أنهم يريدون أن يطفؤوا نور الله الذي شرعه لهداية عباده، وركنه الركين، وأساسه المتين: توحيد الربوبية والألهية، فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذي هو كنور القمر، فيجعله بدراً كاملاً يعم نوره الأرض كلها.

وجواب لو في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ محذوف[3] تقديره: ولو كره الكافرون تمام نوره.. لأتمه ولم يبال بكراهتهم، وجملة لو معطوفة على[4] مقدر، تقديره: ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك، وحتى لو كرهوا، كما سيأتي في مبحث الإعراب إن شاء الله تعالى.

والمعنى[5]: ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون بعد تمامه، كما كانوا يكرهونه من قبل، حين بدء ظهوره، فهم يكيدون له ويفترون عليه، ويطعنون فيه وفيمن جاء به، ويحاولون إخفاءه، أما اليهود.. فكانوا في أول الإسلام أشد الناس عداوةً لأهله، فهم في ذلك كمشركي العرب سواء.

ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على النبي ﷺ، قصدوا إطفاء نوره ببث البدع فيه، وتفريق كلمة أهله، كما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعليّ كرم الله وجهه والغلو في ذلك وإلقاء الشقاق بين المسلمين، ثم في

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) الشوكاني.
(٥) المراغي.

الفتنة بين عليّ ومعاوية، ولولا ذلك.. لما قتل أولئك الألوف من صناديد المسلمين، ثم ما كان من منافقيهم من الإسرائيليات الكاذبة التي لا تزال مبثوثة في تضاعيف كتب التفسير والحديث والتاريخ.

وأما النصارى: فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم، وأكرم النجاشي من لجأ إليه من مهاجريهم، ومنعهم من تعدي المشركين عليهم، ثم انقلب الأمر بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب، فتودد اليهود للمسلمين؛ لأنهم أنقذوهم من ظلم النصارى واستعبادهم، وصار نصارى أوروبا المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين، ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد؛ لأنهم رأوا من عدل المسلمين ما فضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم، إلى أن جاءت الحروب الصليبية، فغلا نصارى أوروبا في عداوة المسلمين، ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر، كما هو مشاهد معروف.

ثم بين إتمام نوره فقال: ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى الإله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾ وبعث ﴿رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ، حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي بالقرآن أو بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو دين الإسلام والملة الحنيفية، وهذه الجملة بمنزلة التعليل لما قبلها؛ أي: إنه تعالى كفل إتمام هذا النور بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق، الذي لا يغيره دين آخر ولا يبطله شيء آخر.

ثم ذكر الغاية من إرسال محمد ﷺ، خاتم النبين بدين الحق، فقال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾؛ أي؛ ليعلي هذا الدين، الذي هو دين الإسلام ويرفع شأنه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على جميع الأديان كلها بالحجة والبرهان والهداية والعرفان والسيادة والسلطان، ولم يكن لدين من الأديان مثل ما للإسلام من التأثير الروحي والعقلي والمادي والاجتماعي والسياسي، وإظهاره على الدين كله بأن لا يعبد الله إلا به، فإن المسلمين قد قهروا اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها إلى ناحية الروم والغرب، وغلبوا المجوس

على بلادهم، وغلبوا عباد الأصنام على كثير من بلادهم مما يلي الترك والهند، فثبت أن الذي أخبر الله عنه في هذه الآية قد حصل، وكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً.

وروي عن أبي هريرة أنه قال: هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الإسلام غالباً على جميع الأديان، وتمام هذا إنما يحصل عند نزول عيسى عليه السلام، فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الإظهار.. لأظهره الله تعالى، فجواب ﴿لو﴾ محذوف، كما قدرناه مثل ما مر، سواء بسواء، وقد وصفهم هنا بالشرك بعد أن وصفهم بالكفر، للدلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرسول وتكذيبه، والشرك بالله، وفي الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الأديان يكون بالرغم من جميع الكفار المشركين منهم، وغير المشركين، وهذا آخر الآيات التي أمر عليٌّ بالتأذين بها في موسم الحج.

ولما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان، المتخذين لهم أرباباً.. ذكر هنا حال المتبوعين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾؛ أي: علماء اليهود ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ أي: علماء النصارى ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ليأخذون الأموال من سفلتهم ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾؛ أي: بالوجوه الباطلة، كالرشوة في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع وغير ذلك، وعبر عن أخذ الأموال بالباطل بالأكل؛ لأن المقصود الأعظم من جمع الأموال الأكل، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده، وأثبت هذا الأكل للكثير منهم؛ لأنَّ فيهم من لم يتلبس بذلك، بل بقي على ما يوجبه دينه من غير تحريف ولا تبديل، ولا ميل إلى حطام الدنيا، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان كثير من الذين يدعون العلم في الإسلام، ممن لا يأتي عليه الحصر في كل زمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس؛ أي: يمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن الدخول في دين الله الذي هو دين الإسلام في زمان محمد ﷺ، لئلا يفوتهم ما يأخذونه من سفلتهم، أو يمنعونهم في كل زمان عما كان حقًّا في شريعتهم قبل نسخها، بسبب أكلهم أموال الناس بالباطل.

والمعنى: إن كثيراً من الأحبار والرهبان أشربت قلوبهم حب المال والجاه، فمن أجل حب المال أكلوا أموال الناس بالباطل، ومن أجل حب الجاه.. صدوا عن سبيل الله، فإنهم لو أقروا بصدق محمد ﷺ، وصحة دينه.. لزمهم أن يتابعوه فيبطل حكمهم، وتزول حرمتهم، ومن ثم كانوا يبالغون في المنع من متابعته، وصد الناس عنه.

وأكل الأموال بالباطل: أخذها بغير حق شرعي، ويقع ذلك على صور مختلفة منها:

١ ـ أخذها رشوة لأجل الحكم، أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل، ويقوم به صاحب السلطة الدينية أو المدنية، رسمية كانت، أو غير رسمية.

٢ ـ أخذها بالربا، وهو فاش عند اليهود وأحبارهم، يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين، ويأكلونه معهم، مستحلين له بنص توارتهم المحرفة بدلاً من نهيهم عنه.

٣ ـ أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بنيت بأسمائهم هدايا ونذوراً.

٤ ـ بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد في الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله في قضاء حاجاتهم، وشفاء مرضاهم اعتقاداً منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يرد شفاعتهم، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفاً في الكون، يقضون به الحاجات، من دفع الضر عمن شاؤوا، وجلب الخير لمن أحبوا، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون، وقالوا: إنها لا تنافي التوحيد الذي جاءت به الرسل.

٥ ـ أخذها جعلاً على مغفرة الذنوب، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتَراف، فيأتي الرجل أو المرأة لدى القسيس، أو الراهب الذي يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب، فيخلو به أو بها، فيقص عليه الخاطىء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها، لأجل أن يغفرها له، وهم

يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله.

٦ ـ أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام أو تحريم الحلال؛ إرضاءً لشهوات الملوك وكبار الأغنياء، أو الانتقام من أعدائهم.

٧ ـ أخذها من أموال مخالفيهم في الجنس أو الدين خيانة وسرقةً، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وصدهم عن سبيل الله[1]: هو منعهم الناس عن معرفة الله، معرفة صحيحة، وعبادته على الوجه الذي يرضيه، ولا عجب فهم مشركون غير موحدين ـ كما علمت مما سلف ـ فهم لا يعبدون الله بما شرعه الله، بل بما شرعه البشر واليهود، قد كفروا بالمسيح، وهو المصلح الأكبر في شريعتهم، والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسيين، وجل عبادتهم من صلاة وصيام لم تكن في عهد المسيح، ومن أنكى طرقهم في الصد عن سبيل الله: الطعن في النبي الأعظم ﷺ، والكتاب الكريم؛ أي القرآن.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾؛ أي: يجمعونهما ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾؛ أي: ولا ينفقون تلك الكنوز ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طاعته؛ أي: لا يؤدون زكاتها، فقد أخرج مالك والشافعي عن ابن عمر، قال: ما أُدي زكاته.. فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته.. فهو كنز، وإن كان ظاهراً.

وأخرج ابن عدي والخطيب عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أي مال أديت زكاته.. فليس بكنز».

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾.. كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يبقي لولده مالاً بعده، فقال عمر: أنا أفرج

(١) المراغي.

عنكم، فانطلق وتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم»، فكبر عمر رضي الله عنه ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة، التي إذا نظر إليها الرجل.. سرته، وإذا أمرها.. أطاعته، وإذا غاب عنها.. حفظته»، وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال؛ لكونهما أثمن الأشياء، وغالب ما يكنز، وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ بالواو على الاستئناف، وهو عام يندرج فيه من يكنز من المسلمين، وقرأ ابن مصرف: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بغير واو، وهو ظاهر في كونه من أوصاف من تقدم، ويحتمل الاستئناف والعموم، واختلفوا[١] في المراد بهؤلاء الذين ذمهم بسبب كنز الذهب والفضة، فقيل: هم أهل الكتاب، قاله معاوية بن أبي سفيان؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل، ثم وصفهم بالبخل الشديد، وهو جمع المال، ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه. وقال ابن عباس والسدي: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين، وذلك أنه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل.. حذر المسلمين من ذلك، وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه.

وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين. ووجه هذا القول: أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل، ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال، ومنع الحقوق الواجبة فيه، سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين.

أخرج البخاري عن زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة ـ موضع بين مكة والمدينة ـ فإذا بأبي ذر، فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت في الشام

---

(١) الخازن.

فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذلك كلام، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أُمر عليَّ عبد حبشي.. لسمعت وأطعت.

وإنما قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ ولم يقل: ينفقونهما؛ لأنه أعاد الضمير إلى المال المكنوز، وهي أعيان الذهب والفضة، وقبل أعاد الضمير إلى الفضة؛ لأنه أغلب أموال الناس.

واختلف أهل العلم في المال الذي أديت زكاته، هل يسمى كنزاً أم لا؟ فقال قوم: هو كنز، وقال آخرون: ليس بكنز، ومن القائلين بالقول الأول أبو ذرٍّ، وقيده بما فضل عن الحاجة، ومن القائلين بالقول الثاني: عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وهو الحق لما تقدم من الأدلة المصرحة بأن ما أديت زكاته فليس بكنز.

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: فأخبرهم يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم، جملة تهكمية خبر عن الموصول، وقيل: إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة، لتأثيره في القلب، سواء كان من الفرح أو من الغم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل: منصوب بمحذوف، تقديره: أي: أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم في ذلك اليوم الذي يحمى ويوقد فيه على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم؛ أي: بأن توضع فيها وتضرم عليها النار الحامية، حتى تبيض من شدة الحرارة، وتصير مثلها ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾؛ أي: فتحرق بتلك الكنوز المحماة ﴿جِبَاهُهُمْ﴾؛ أي: جباه كانزيها جمع جبهة وهي أعلى الوجه، والمراد بها ما أقبل منهم كله ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ جمع جنب، والمراد بها جهة اليمين واليسار ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ جمع ظهر، والمراد بها ما أدبر منهم كله؛ أي: فتلصق بجباهم وجنوبهم وظهورهم، حتى

يصل الحر إلى أجوافهم.

وخص[1] الجباه والجنوب والظهور بالذكر لكون التألم بكيِّها أشد، لما في داخلهامن الأعضاء الشريفة وقيل: ليكون الكي في الجهات الأربع من قدام وخلف، وعن يمين وعن يسار، وقيل: لأن الجمال في الوجه، والقوة في الظهر والجنبين والإنسان، إنما يطالب المال للجمال والقوة، وقيل: لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئاً.. تبدو منه آثار الكراهة والمنع، فعند ذلك يكلح وجهه، وتجتمع أسارير جبهته، فيتجعد جبينه، ثم إن كرر السائل الطلب.. نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانباً، ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال.. ولاه ظهره، وأعرض عنه واستقبل جهةً أخرى، وهي نهاية في الرد، وغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل، وهذا دأب مانعي البر والإحسان، وعادة البخلاء، فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة.

وقيل[2]: خصت هذه الأعضاء دون بقية الجسد؛ لأنهم يستقبلون بالوجوه الناس، وأساريرهم منبسطة غبطة لعظم الثروة، ويستقبلون الفقراء ووجوههم منقبضة من العبوس، لينفروا ويحجموا عن السؤال، ولأن الجنوب والظهور كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة، اضطجاعاً واستلقاءً، ويعرضون بها عن لقاء المساكين، وطلاب الحاجات، فلا يكون لهم في جهنم استراحة، فيما سوى الوقوف، إلا بالانكباب على الوجوه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي الآية[3] إيماء إلى أنه يحمىٰ عليها بأعيانها، والله قادر على إعادتها، وأمور الآخرة من عالم الغيب، فلا ندرك كنهها ولا صفتها فنفوض الأمر فيها إلى عالم الغيب، وعلينا الاعتبار بما فيها من إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق.

وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله.. إلا

---

(١) الشوكاني.

(٢) الخازن.

(٣) المراغي.

جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره» وروىٰ عنه «من آتاه الله مالاً، فلم يؤدِّ زكاته... مثل له شجاع - ذكر الحيات - أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه - العظمان الناتئان تحت الأذنين - يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﷺ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾» وتقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم توبيخاً لهم: ﴿هَـٰذَا﴾ الكي جزاء ﴿مَا كَنَزْتُمْ﴾ وجمعتم في الدنيا لمنفعة أنفسكم، فكان اليوم سبب مضرتها، وتعذيبها أو هذا الميسم الذي تكوون به، هو المال الذي كنزتموه لأنفسكم، لتنفردوا بالتمتع به، ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾؛ أي: فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكنزونه وتجمعونه من الأموال، هذا إن قلنا ﴿مَا﴾ موصولة ويصح كونها مصدرية؛ أي: فذوقوا وبال كنزكم له، وجزاء إمساككم إياه، عن النفقة في سبيل الله، وسوء عاقبته وقبح مغبته وشؤم فائدته ومنفعته.

وخلاصة هذا: أن ما كنتم تظنونه من منفعة كنزه لأنفكسم، لا يشارككم فيها أحد.. قد كان لكم ضراً، وعليكم ضداً، فقد صار في الدنيا لغيركم، وعذابه في الآخرة لاحقاً بكم، وإن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذي نراه في المسلمين عامةً، حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدهم عن دينهم، بخل أغنيائهم، إذ لو وجهوا هممهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل، لتعليم النشىء العلوم الدينية والدنيوية، من فنون الحرب، وصنع الأسلحة.. لأمكنهم أن يخرجوا للأمة رجالاً، يحفظون الدين والملك، ويعيدون إليها مجدها الزائل، ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام، ويدخلونهم فيه أفواجاً أفواجاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ بالياء وقرأ الحسن وابن عامر: في رواية ﴿تُحْمَى﴾ بالتاء، وقرأ أبو حيوة: ﴿فيكوى﴾ بالياء، لكون المسند إليه مجازي التأنيث ووقع الفصل أيضاً.

الإعراب

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

﴿تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.

﴿لَقَدْ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿نصر﴾ وعلامة جره الفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، لصيغة منتهى الجموع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ صفة ﴿مَوَاطِنَ﴾ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بفعل محذوف معطوف على ﴿نَصَرَكُمُ﴾ تقديره: ونصركم يوم حنين، ويصح عطفه على محل قوله: ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ عطف ظرف الزمان من غير واسطة في على ظرف المكان المجرور بها، ولا غرابة في نسق ظرف زمان على مكان، أو بالعكس ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ ﴿نصر﴾ المحذوف الذي تعلق به ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ على كونها بدلاً من ﴿يوم﴾ ﴿أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فعل ومفعول ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة في محل الجر، مضاف إليه ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ الفاء عاطفة وجازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على الكثرة ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق به ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة أعجب.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

﴿وَضَاقَتْ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ فاعل ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر ومعية ﴿ما﴾ مصدرية ﴿رَحُبَتْ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: مع رحبها، الجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الأرض تقديره: وضاقت عليكم الأرض حالة كونها متلبسة برحبها وسعتها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿ضاقت﴾ ﴿مُّدْبِرِينَ﴾: حال من تاء ﴿وَلَّيْتُم﴾ مؤكدة لعاملها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول ومضاف إليه،

والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض معطوف على ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿جُنُودًا﴾: مفعول به ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول به؛ لأنَّ رأى بصرية، والجملة في محل النصب صفة لـ ﴿جُنُودًا﴾ ﴿وَعَذَّبَ﴾ فعل ماض معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مفعول به ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه والجملة مستأنفة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿وَعَذَّبَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَتُوبُ﴾ ﴿عَلَىٰ مَن﴾: متعلق بـ ﴿يَتُوبُ﴾ أيضاً ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة صلة من الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: على من يشاء التوبة له ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾: مبتدأ وخبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مبتدأ ﴿نَجَسٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية جواب النداء ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿لا﴾: ناهية ﴿يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْمَسْجِدَ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية، على كونها مفرعة عليها ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَقْرَبُوا۟﴾ ﴿هَٰذَا﴾: صفة لـ ﴿عَامِهِمْ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: جازم، وفعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة تسويفية ﴿سوف﴾: حرف تنفيس ﴿يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إن﴾ حرف شرط جازم ﴿شَآءَ﴾ فعل ماض في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿إن﴾ ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: إن شاء إغناءكم وجواب إن: محذوف دل عليه ما قبله تقديره: إن شاء يغنيكم وجملة إن الشرطية مستأنفة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر أول له ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان له وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور قبله ﴿ٱلْـَٔاخِرِ﴾ صفة لليوم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما حرمه الله ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، حال من اسم الموصول، أو من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أُوتُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل، وهو المفعول الأول لآتىٰ؛ لأنه بمعنى أعطى ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مفعول ثان لـ﴿آتىٰ﴾ والجملة صلة الموصول ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى والمفعول الأول محذوف، تقديره: إياكم، والجملة الفعلية صلة أن

المضمرة، وجملة أن المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى تقديره: إلى إعطائهم إياكم الجزية الجار والمجرور متعلق بـ ﴿قَٰتِلُواْ﴾ ﴿عَن يَدٖ﴾ جار ومجرور حال من واو ﴿يُعۡطُواْ﴾؛ أي: حالة كونهم مسلمين لها بأيديهم لا بواسطة غيرهم ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال ثانية من واو ﴿يُعۡطُواْ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٣٠)﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾: مبتدأ، وخبر والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب مقول ﴿قال﴾ ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه حال، والعامل فيه القول، ويجوز أن يعمل فيه معنى الإشارة، ويجوز أن تتعلقَّ ﴿الباء﴾ بـ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ ذكره أبو البقاء ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: فعل وفاعل ﴿قَوۡلَ ٱلَّذِينَ﴾ مفعول، ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل النصب حال من اليهود والنصارى ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول، ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿كَفَرُواْ﴾ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة مسوقة للدعاء عليهم ﴿أَنَّىٰ﴾ اسم استفهام تعجبي، بمعنى: كيف في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، أو بالحال، مبني على السكون، والعامل فيه ما بعده ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل مرفوع والجملة جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣١)﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾: معطوف على ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾. ﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أو صفة، لـ﴿أَرْبَابًا﴾ أو حال من واو ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾؛ أي: حال كونهم مجاوزين الله ﴿وَٱلْمَسِيحَ﴾ معطوف على أحبارهم ﴿ٱبْنَ﴾ صفة له ﴿مَرْيَمَ﴾ مضاف إليه، والمفعول الثاني بالنسبة إليه محذوف؛ أي: ربًّا وانظر لم ثبتت الألف في ابن هنا مع أنه صفة بين علمين؛ لأن المسيح لقب وهو من أقسام العلم، ذكره في «الفتوحات» ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾ حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من واو ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يعبدوا﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، ﴿إِلَـٰهًا﴾ مفعول به ﴿وَٰحِدًا﴾ صفة أولى لـ ﴿إِلَـٰهًا﴾ وجملة ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لـ ﴿إِلَـٰهًا﴾ والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام والتقدير: وما أمروا إلا لعبادتهم إلهاً واحداً، واللام فيه بمعنى الباء ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة تقديره: أسبحه تعالى سبحاناً؛ أي: أنزهه تنزيهاً وجملة التسبيح مستأنفة ﴿عَمَّا﴾ ﴿عن﴾ حرف جر ﴿ما﴾ موصولة، أو مصدرية، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: عما يشركونه به، أو صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: عن إشراكهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿سبحان﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به، ومضاف إليه. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يريدون إطفاءهم نور الله بأفواههم. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أن

﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فعل ومفعول منصوب بـ ﴿أن﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إلا إتمامه نوره. ﴿وَلَوۡ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة على محذوف، تقديره: ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو لم يكره الكافرون ذلك، وحتى لو كرهوا والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لو﴾ وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو كره الكافرون تمامه.. لأتمه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الموصول والجملة صلة الموصول ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ متعلق بأرسل ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ معطوف على الهدى ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾ متعلق به ﴿كُلِّهِۦ﴾ توكيد لـ﴿ٱلدِّينِۚ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿اللام﴾ تقديره: لإظهاره إياه على الدين كله الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَرۡسَلَ﴾ وجملة ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ معطوفة على محذوف، تقديره: ولو لم يكره المشركون إظهاره.. لأظهره ولو كرهوا ذلك، كما مر في مبحث التفسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: جملة ندائية مستأنفة ﴿إِنَّ كَثِيرٗا﴾: ناصب واسمه﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿كَثِيرٗا﴾ ﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾: معطوف على الأحبار ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ ﴿اللام﴾: لام الابتداء ﴿يأكلون أموال الناس﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ متعلق بـ ﴿يأكلون أموال الناس﴾ أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أكلاً متلبساً بالباطل، أو حال من واو ﴿يأكلون﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يأكلون﴾ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ متعلق به،

ومفعول الصد محذوف، تقديره: ويصدون الناس.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿وَٱلۡفِضَّةَ﴾ معطوف على ﴿ٱلذَّهَبَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَكۡنِزُونَ﴾ ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم ﴿بشرهم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿أَلِيمٖ﴾ صفة لـ ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾.

﴿يَوۡمَ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَلِيمٖ﴾ أو بمحذوف تقديره: بعذاب أليم يصيبهم يوم يحمى ﴿يُحۡمَىٰ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيۡهَا﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: متعلق به و﴿جَهَنَّمُ﴾ ممنوع من الصرف، للعلمية والتأنيث المعنوي، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾ ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿تكوى﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿بِهَا﴾ متعلق به ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾: نائب فاعل ﴿وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾ معطوفان عليه، والجملة الفعلية في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يُحۡمَىٰ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، في محل الرفع خبر المبتدأ ﴿كَنَزۡتُمۡ﴾ فعل وفاعل ﴿لِأَنفُسِكُمۡ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كنزتموه لأنفسكم، والجملة الاسمية مقول لقول محذوف، تقديره: وتقول الملائكة لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم، وجملة القول المحذوف معطوفة على جملة ﴿تكوى﴾ ﴿فَذُوقُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية، ﴿ذوقوا﴾ فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها مفرعة عليها ﴿مَا﴾ موصولة،

أو موصوفة، أو مصدرية في محل النصب مفعول به ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص، واسمه وجملة ﴿تَكْنِزُونَ﴾: خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما كنتم تكنزونه أو جزاء كنزكم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فِي مَوَاطِنَ﴾؛ أي: أماكن كثيرة ـ جمع موطن ـ وهو مقر الإنسان، ومحل إقامته، كالوطن، والمراد بالمواطن: مشاهد الحرب ومواقعها. وفي «المصباح» الوطن: مكان الإنسان ومقره، والجمع أوطان، مثل: سبب وأسباب، والموطن مثل الوطن، والجمع مواطن كمسجد ومساجد، والموطن أيضاً: المشهد من مشاهد الحرب اهـ. قال الشاعر:

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلاَيَ طِحْتُ كَمَا هَوَىٰ ... بِأَجْرَامِهِ مِنْ قِنَّةِ ٱلنِّيْقِ مُنْهَوِيْ

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وحنين: واد بين مكة والطائف، على ثلاثة أميال من الطائف، وثمانية عشر ميلاً من مكة، وقيل: وادٍ إلى جنب ذي المجاز، وغزوته: تسمى غزوة أوطاس وغزوة هوازن، وهوازن: قبيلة حليمة السعدية، وكانت تلك الغزوة في شوال، سنة ثمان عقيب رمضان، الذي وقع فيه فتح مكة، قال الشاعر:

نَصَرُوْا نَبِيَّهُمْ وَشَدُّوْا أَزْرَهُ ... بِحُنَيْنٍ يَوْمَ تَوَاكُلَ ٱلأَبْطَالُ

﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾؛ أي: لم تدفع الكثرة والإغناء إعطاء ما يدفع الحاجة ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ وفي «المختار» الرحب بالضم: السعة، يقال: منه فلان رحيب الصدر، والرحب بالفتح الواسع وبابه ظرف وقرب، والمصدر رحابة كظرافة، ورحب كقرب ﴿مُّدْبِرِينَ﴾؛ أي: هاربين ولا تلوون على شيء ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ والسكينة: الهيئة النفسية التي تحصل من سكون النفس واطمئنانها، وهي ضد الانزعاج، وقد تطلق على الرزانة والوقار، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ النجس: من نجس الشيء، من باب فهم إذا كان قذراً غير نظيف، والاسم النجاسة، وفي «الخطيب»: النجس مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمفرد والتثنية والجمع،

وفي «القاموس» النجس بالفتح والكسر وبالتحريك، وككتف عضد ضد الطاهر، وقد نجس كسمع وكرم اهـ وفي «المصباح»: إنه من باب تعب، وفي لغة من باب قتل اهـ.

وقال الراغب: النجاسة: القذارة، وهي ضربان: ضرب يدرك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، وهذا ما وصف الله به المشركين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ويقال: نجسه إذا جعله نسجاً، ونجسه أزال نجسه، ومنه تنجيس العرب، وهي شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبي، ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان، والناجس والنجيس داء خبيث لا دواء له اهـ.

والمعنى: إنما المشركون ذوو نجس، لأن معهم الشرك، الذي هو بمنزلة النجس، أو أنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسات بعينها، مبالغةً في وصفهم بها، وعن ابن عباس أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ، وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين، ذكره في «الفتوحات».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة: الفقر يقال: عال الرجل يعيل عيلاً وعيلةً؛ من باب باع إذا افتقر، فهو عائل، وأعال كثر عياله، وهو يعول عيالاً كثيرين؛ أي: يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم، وفي «المصباح» العيلة بالفتح: الفقر، وهو مصدر عال يعيل، من باب سار إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِيْ ٱلْفَقِيْرُ مَتَىٰ غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِيْ ٱلْغَنِيُّ مَتَىٰ يَعِيْلُ

والجمع عالة، وهو في تقدير فعلة مثل كافر وكفرة، وعيلان بالفتح: اسم رجل، ومنه: قيس بن عيلان قال بعضهم: ليس في كلام العرب عيلان، بالعين المهملة إلا هذا. اهـ. وفي «المختار» وعيال الرجل من يعولهم، وواحد العيال عيِّل، كجيِّد، والجمع عيائل كجيائد، وأعال الرجل كثرت عياله، فهو معيل. والمرأة معيلةٌ قال الأخفش: أي: صار ذا عيال، اهـ ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ والفضل: العطاء والتفضل: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ يقال: فلان يدين بكذا، إذا اتخذه

ديناً وعقيدةً، ودين الحق: هو الدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على أنبيائه، وهو من دان يدين، من باب باع يبيع.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ والجزية: ضرب من الخراج، يضرب على الأشخاص، لا على الأرض، وجمعها جزًى بالكسر وفي «البحر»: الجزية: ما أخذ من أهل الذمة على مقامهم في بلاد الإسلام، سميت بذلك لأنهم يجزونها؛ أي: يقضونها، أو لأنا نجزي بها من مُنَّ عليهم بالإعفاء عن القتل. اهـ ووزنها فعلة، من جزى يجزي، كرمى يرمي إذا كافأ عما أسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن ﴿عَن يَدٍ﴾ واليد: السعة والقدرة وفي «زاده»: اليد قد تجعل كنايةً عن الانقياد، يقال: أعطى فلان بيده إذا سلم وانقاد؛ لأن من أبى وامتنع.. لم يعط يده، بخلاف المطيع المنقاد، كأنه قيل: قاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن طيب نفس وانقياد، دون أن يكرهوا عليه، فإذا احتيج في أخذها منهم إلى الإكراه.. لا يبقى عقد الذمة اهـ.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ والصَّغار، والصغر: ضد الكبر، ويكون في الأمور الحسية والمعنوية، والمراد به هنا: الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التي بها تصغر أنفسهم لديهم، بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بالتنوين: أي: تنوين الصرف وتركه قراءتان سبعيتان فالأولى بناءً على أنه عربي، وليس فيه إلا علة واحدة، والثانية بناء على أنه أعجمي، ففيه العلتان العلمية والعجمة، وعلى كل هو مبتدأ و﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبر، فلذلك ثبتت الألف في ابن؛ لأنها لا تحذف منه، إلا إن كان صفة. اهـ شيخنا، ذكره في «الفتوحات» وعزير: هو الذي يسميه أهل الكتاب عزرا، وينتهي نسبه إلى العازار بن هارون ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ أي: يشابهون ويحاكون، قرأ العامة: يضاهون بضم الهاء بعدها واو، وقرأ عاصم: بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة بعدها واو، كما مر في مبحث القراءة، فقيل: هما بمعنى واحد، وهو المشابهة، وفيه لغتان ضاهأت وضاهيت، بالهمزة والياء والهمزة لغة ثقيف، وقيل: الياء فرع عن الهمزة، كما قالوا: قرأت وقريت وتوضأت وتوضيت وأخطأت وأخطيت، اهـ

«سمين» وفي «المصباح» ضاهأه مضاهأة، مهموز عارضه وباراه، ويجوز التخفيف، فيقال: ضاهيته مضاهاة، وهي مشاكلة الشيء بالشيء وفي الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة، الذين يضاهون خلق الله»؛ أي: يعارضون بما يعملون، والمراد المصورون، اهـ. ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جملة أصلها الدعاء، ثم كثر استعمالها، حتى قيلت على وجه التعجب في الخير أو الشر، وهم لا يريدون الدعاء ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ والإفك: صرف الشيء عن وجهه، يقال: أفك فلان؛ أي: صرف عقله عن إدراك الحقائق، ورجل مأفوك العقل.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ والأحبار: جمع حبر ـ بالفتح والكسر ـ وهو العالم من اليهود، والكسر أفصح؛ لأنه يجمع على أفعال دون فعول، وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيد: هو بالفتح، وقال الأصمعي: لا أدري أنه بالفتح أو بالكسر. وكعب الحبر ـ بالكسر ـ: منسوب إلى الحبر الذي يكتب به؛ لأنه كان صاحب كتب، والحبرة كالعنبة برد يماني، والجمع حبر كعنب، وحبران والرهبان جمع راهب، وهو لغة الخائف، وعند النصارى: هو المتبتل المنقطع للعبادة، وهم علماء النصارى، كما أن الأحبار علماء اليهود.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ حيث شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي، بضيق الأرض مع سعتها على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿نَجَسٌ﴾؛ أي: هم كالنجس في خبث

بواطنهم واعتقاداتهم، فحذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً، أو هو مجاز عن خبث الباطن وفساد العقيدة، فيكون استعارة لذلك، كما في «الشهاب».

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾؛ لأنهم إنما نهوا عن الاقتراب للمبالغة في المنع من دخول الحرم، ونهي المشركين أن يقربوا راجع إلى نهي المسلمين عن تمكينهم من ذلك، اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ لأنه كناية عن الانقياد والاستسلام.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ومنها: اللف والنشر المرتب في قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ لأن أحبارهم راجع لليهود، ورهبانهم راجع للنصارى.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله ﴿أَرْبَابًا﴾؛ أي: كالأرباب في الطاعة والعبادة لهم جمع رب، وهو الإله؛ لأنه حذف فيه الأداة ووجه الشبه وهو الاتباع والطاعة لهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ شبه تكذيبهم بآيات الله، بإخماد النار، فاستعار له اسم المشبه به ثم اشتق من الإطفاء، بمعنى التكذيب يطفئوا بمعنى: يكذبوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿نور الله﴾ حيث شبه شرائع الله سبحانه وتعالى التي منها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة وحججه النيرة الدالة على وحدانيته بالنور الحسي، كالشمس بجامع الاهتداء في كل؛ لأنها يهتدى بها إلى الصواب والحق، كما يهتدى بالنور الحسي إلى المحسوسات.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي قوله: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ وقوله: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ الآية، مناسبة[1]

---

(١) البحر المحيط.

هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر أنواعاً من قبائح أهل الشرك، وأهل الكتاب.. ذكر أيضاً نوعاً منه، وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى؛ لأنه حكم في وقت بحكم خاص، فإذا غيروا ذلك الوقت.. فقد غيروا حكم الله تعالى، وهذه الآيات[1] عود على بدء إلى الكلام في أحوال المشركين، وقد كان الكلام في قتال أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ من قبيل الاستطراد، اقتضاه ما قبله، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[2]: أن الكلام السابق في حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم، من خروجهم من هداية الدين في العقائد والأعمال، والفضائل التي تهذب النفوس وتزكيها، والكلام هنا في غزوة تبوك، والمراد بها: قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام، وجميعهم نصارى، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها.

قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما توعد من لم ينفروا مع الرسول ﷺ، وتثاقلوا حين استنفرهم، وضرب لهم من الأمثال ما ضرب.. أتبعه بالأمر الجزم الذي لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد في التخلف، وترك الطاعة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما رغبهم في الجهاد في سبيل الله، وبين أن فريقاً منهم تباطؤوا وتثاقلوا.. أردف ذلك ببيان أن فريقا منهم تخلفوا عنه، مع ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد، وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنوه ﷺ في القعود والتخلف ليأذن لهم.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن جرير عن أبي مالك، قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرَّم صَفراً، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية، قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وحين أمرهم بالنفير في الصيف، حين طابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟...﴾ الآية، أخرج[2] ابن أبي حاتم، عن نجدة بن نفيع، قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ، أحياءً من العرب، فتثاقلوا عنه فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فأمسك عنهم المطر، فكان عذابهم.

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن حضرمي، أنه ذكر له أن أناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً، أو كبيراً فيقول: إني آثم فأنزل الله ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي، قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ، لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾؛ أي: إن عدد الشهور التي تتكون منها السنة القمرية ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: في حكمه وتقديره وعلمه، لا عند الناس أهل الجاهلية؛ لأنهم كانوايجعلونه ثلاثة عشر شهراً أو أربعة عشر، ليتسع لهم الوقت، وفي قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ رد عليهم؛ أي إن عدد شهور السنة في حكمه تعالى، لا بالنظر إلى ما ابتدعه الناس ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة ولا نقصان، مثبتة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: مرتبة على هذا الترتيب المعروف فيها أول ما خلق الله السموات والأرض فقوله[1]: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ بدل من قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ والتقدير: إن عدد شهور السنة عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض اثنا عشر شهراً، هي المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة.

وفائدة الإبدالين: تقرير الكلام في الأذهان؛ لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله تعالى في كتاب الله، وثابت في علمه من أول ما خلق الله هذا العالم.

ويجوز أن يكون ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ صفة اثنا عشر؛ أي: اثنا عشر شهراً مثبتة في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ، وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء، ونزلت به الكتب، وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً وبعضها أكثر وبعضها أقل.

والمعنى: أن[2] مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهراً فيما كتبه الله وأثبته من نظام سير القمر، وتقديره: منازل منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن، والمراد بقوله: يوم خلق السموات والأرض الوقت الذي خلقهما فيه باعتبار تمامه، ونهايته في جملته، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله، وخلق كل منهما وما فيهما، وقال «البيضاوي»: والمعنى أن هذا الأمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة اهـ. والمراد بها شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل، وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم، وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم كالعدد ومدة الحمل والرضاع وآجال الدين.

وأيام هذه الشهور[1] ثلاث مئة وخمسة وخمسون يوماً، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورةً تامةً، وهي ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية، فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء، وتارة في الصيف.

قال المفسرون: وسبب نزول هذه الآية، من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية، فكان يقع حجهم تارة في وقته، وتارة في المحرم، وتارة في صفر، وتارة في غير ذلك من سائر الشهور، فأعلم الله عز وجل أن عدة شهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها، وهو قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: في علمه وحكمه اثنا عشر شهراً اهـ «خازن».

﴿مِنْهَآ﴾؛ أي: من تلك الشهور الاثني عشر ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾؛ أي: محترمةٌ ثلاثةٌ سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد رجب، كما ورد ذلك في السنة المطهرة، وإنما سميت[2] حرماً: لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال، حتى إن أحدهم لو لقي قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه في هذه

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

الأربعة أشهر.. لم يزعجه، ولما جاء الإسلام.. لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً، ولأن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف، وكذلك السيئات أيضاً أشد فيها من غيرها، فلا يجوز انتهاك حرمتها ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تحريم الأشهر الأربعة هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي[1]: الدِّين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانت العرب وَرِثوه منهما، فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها، حتى أحدثت النسيء فغيروا، وقيل: أراد بالدين القويم: الحكم الذي لا يغير ولا يبدل، والقيِّم هنا بمعنى الدائم الذي لا يزول، وقيل: المعنى ذلك؛ أي: كون شهور السنة اثني عشر شهراً هو الدين القيم، أي: الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوفى، فالدين إذاً بمعنى الحساب، كما في قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه - يعني حاسب نفسه - وعمل لما بعد الموت».

فالواجب على المسلمين الأخذ بهذا الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم وبيعاتهم وأجل ديونهم، وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾، أي: في هذه الأشهر الحرم الأربعة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها، وقيل: الضمير يعود إلى الأشهر كلها الحرم وغيرها.

والمعنى: فلا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات؛ لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصي والفساد مطلقاً في جميع الأوقات إلى الممات.

والقول الأول أولى، وهو قول أكثر المفسرين، وقال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً.

فإن قلت: لِمَ خص هذه الأربعة بالتحريم؟

قلت: إن الأنفس[2] مجبولة بطبعها على الظلم والفساد، والامتناع عنه على

---

(١) البيضاوي. (٢) الخازن.

الإطلاق شاق على النفس، فخص الله سبحانه وتعالى بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام، ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات، فربما تركها في باقي الأوقات، فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة، سبباً لترك الظلم والمعاصي في غيرها من الأشهر، فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعض، بمزيد التشريف والتعظيم، وكذلك الأمكنة أيضاً.

وقد ذهب[1] جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ، لهذه الآية ولقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولقوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف، ويجاب عنه بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم، كما في الآية المذكورة، فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم، للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه، وأما ما استدلوا به من أنه ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام، وهو ذو القعدة، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما.. فقد أُجيب عنه بأنه لم يبتدىء محاصرتهم في ذي القعدة، بل في شوال، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه، وبهذا يحصل الجمع.

وعبارة «المراغي» هنا قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2]؛ أي: فلا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظم حرمتها، وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضي ترك المحرمات فيها، تنشيطاً للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها ويطهرها، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه، ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة، كالصلوات الخمس، وخص يوم الجمعة

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين تذكيراً وموعظة حسنة تقوي في المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى، وخص رمضان بوجوب صيامه في كل سنة، وخص أياماً معدودات من ذي الحجة بأداء مناسك الحج، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً للسفر لأداء النسك، وحرم مكة وما حولها في جميع السنة، لتأمين الحج والعمرة التي تؤدىٰ في كل وقت، وحرم رجب في وسط السنة، لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه، انتهت.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم ﴿كَمَا﴾ أنهم ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛ أي: بأجمعهم مجتمعين على قتالكم.

والمعنى[1]: تعاونوا وتناصروا على قتالهم، ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم، وكونوا عباد الله مجتمعين، متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين، كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة.

وفيه[2] دليل على وجوب قتال المشركين، وأنه فرض على الأعيان، إن لم يقم به البعض.

والمعنى: أي[3] قاتلوهم جميعاً، وكونوا يداً واحدةً على دفع عدوانهم وكف أذاهم، كما يقاتلونكم كذلك، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره، لا للانتقام ولا للعصبية ولا لكسب المال، كما هو دأبهم في قتال قويهم لضعيفهم، فأنتم حينئذٍ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: مع أوليائه، الذين يخشونه في أداء المأمورات واجتناب المنهيات بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم، لما

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتق الظلم والعدوان في الأرض، وأسباب الفشل والخذلان في القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء، ومخالفة سنن الله في الاجتماع.. يكن الله معه ومن كان الله معه، فلا يغلبه أحد.

وقرأ ابن القعقاع وهبيرة عن حفص[1]: بإسكان العين مع إثبات الألف في ﴿ٱثْنَا عَشَرَ﴾ وهو جمع بين ساكنين على غير حده كما روي: «التقت حلقتا البطان». بإثبات ألف حلقتا، وقرأ طلحة: بإسكان السين ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾؛ أي: إن تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، كتأخير حرمة المحرم إلى صفر ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: كفر زائد على الكفر الأصلي الذي كان فيهم من الكفر بالله ورسوله، أي: إن تأخير الحرمة التي جعلها لشهر واحد وشرعها فيه إلى شهر آخر وجعلها له كفر بما شرعه الله تعالى في ذلك الشهر، زائد على كفرهم بالله ورسوله، وإنما سمى الله سبحانه وتعالى النسيء زيادة في الكفر؛ لأنه نوع من أنواع كفرهم ومعصيةٌ من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والمعنى: هو زيادة كفر على كفرهم، وسبب هذه الزيادة أنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحرم، ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسيء، فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحرم، فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم؛ لأن ضم هذا العمل إلى الأنواع المتقدمة من الكفر زيادة في الكفر.

وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها.. قاتلوا فيها وحرموا غيرها، فإذا قاتلوا في المحرم.. حرموا بدله شهر صفر، وهكذا في غيره، وكان الذي يحملهم على هذا أنَّ كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة بعضهم على بعض، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ويقع بينهم بسبب ذلك القتال، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يَضُرُّ بِهِم تواليها، وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضها ويحرمون مكانه

---

(١) البحر المحيط.

بقدره من غير الأشهر الحرم، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر.. أخروه إلى ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا، يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوايحجون في كل شهر عامين، فحجوا في ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذا باقي شهور السنة، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة، ثم حج رسول الله ﷺ، في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجة شهر ذي الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض فيما روى الشيخان وغيرهما عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟»، قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه»، ثم قال: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»، قلنا: نعم، قال: «اللهم اشهد».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، مهموزاً على وزن فعيل، وقرأ الزهري وحميد

---

(١) البحر المحيط.

وأبو جعفر وورش عن نافع والحلواني: ﴿النسيّ﴾ بتشديد الياء من غير همز، وروي ذلك عن ابن كثير، سهل الهمزة بإبدالها ياءً، وأدغم الياء فيها كما فعلوا من نبيء وخطيئة، فقالوا: نبي وخطية بالإبدال والإدغام، وفي كتاب «اللوامع»: قرأ جعفر بن محمد والزهري والأشهب: ﴿النسي﴾ بالياء من غير همز، مثل الندي وقرأ السلمي وطلحة والأشهب وشبل ﴿النسء﴾، بإسكان السين، وقرأ مجاهد: ﴿النُسوء﴾ على وزن فعول، بفتح الفاء، وهو التأخير ورويت هذه عن طلحة والسلمي.

وقوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ ابن مسعود[1] وحفص وحمزة والكسائي ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد مبنياً للمجهول، وهو المناسب لقوله: ﴿زين﴾ الآتي، والمعنى أن كبارهم أضلوهم وحملوهم على ذلك النسيء، والتأخير وقرأ باقي السبعة وابن مسعود في رواية عنه والحسن ومجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون ويعقوب: بضم الياء وكسر الضاد مبنياً للفاعل، والمعنى حينئذ يضل الله بالنسيء والتأخير الذين كفروا، أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم، أو المعنى يضل به رؤساء الذين كفروا تابعيهم، والآخذين بأفعالهم، وهذا المعنى أحسن في تفسير قراءة من قرأ: ﴿يضل﴾ بالبناء للفاعل، كما في «الخازن» ورويت قراءة البناء للفاعل عن الأعمش وأبي رجاء.

وفي «زاد المسير» قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد والمعنى: أنهم يكتسبون الضلال به اهـ.

وقرأ أبو رجاء: ﴿يَضَلُّ﴾ بفتحتين من ضللت بكسر اللام، أضل بفتح الضاد، منقولاً فتحها من فتحة اللام، إذ الأصل أضلل، وقرأ النخعي ومحبوبٌ عن الحسن: ﴿نُضِلُّ﴾ بالنون المضمومة وكسر الضاد؛ أي: نضل نحن.

﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾؛ أي: يحلون هذا النسيء والتأخير؛ أي: يحلون هذا المؤخر تحريمه ﴿عَامًا﴾؛ أي: في العام الذي يريدون أن يقاتلوا في المحرم ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾؛

---

(١) البحر المحيط.

أي: ويحرمون التأخير ﴿عَامًا﴾ آخر وهو العام الذي يتركون المحرم على تحريمه؛ أي: يفعلون ذلك التحليل عاماً والتحريم عاماً آخر ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا﴾؛ أي: ليوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿عِدَّةَ﴾؛ أي: عدد ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ من الأشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة، ولا ينقصون ولا ينظرون إلى أعيان الأربعة الأشهر، التي حرمها الله تعالى ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بخصوصه يعني المحرم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم ما أحلوا شهراً من الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال، إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة، كما حرم الله، فيكون ذلك موافقة في العدد، لا في الحكم، وقال ابن عباس: الذين شرعوا النسيء هم بنو مالك من كنانة، وكانوا ثلاثةً، قيل: أول من شرعه عمرو بن يحيى، وقيل: رجل، يقال له نعيم بن ثعلبة، وقيل غير ذلك.

وكان من عادتهم في ذلك أن يقوم رجل من كنانه في أيام منى، حيث يجتمع الحجيج، فيقول: أنا الذي لا يرد قضاء لي، فيقولون: صدقت، فأخر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالاً، ثم صاروا ينسؤون غير المحرم ويسمون النسيء باسم الأصل، فتغير أسماء الشهور كلها، فيسمون صفر محرماً وربيع الأول صفراً، وهكذا، وبذلك يعلم أن النسيء تشريع ديني ملتزم غيّروا به ملة إبراهيم، اتباعاً للهوى وسوء التأويل، ومن ثم سماه الله زيادة في الكفر؛ أي: إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله، زائد على شركهم بالله وكفرهم به، إذ حق التشريع له وحده، فمنازعته في ذلك شرك في ربوبيته، وهم يضلون به سائر الكفار، الذين يتبعونهم فيه ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم إذ واطؤوا عدة ما حرم الله من الشهور في ملته، ولم يزيدوا ولم ينقصوا، وإن قدموا وأخروا مع أن المقصد في ذلك العدد والتخصيص، لا مجرد العدد، وإذا لم يفعلوا ذلك.. فقد استحلوا ما حرم الله تعالى.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾؛ أي: زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي

يعملونها، ومن جملتها النسيء، حتى حسبوا هذا القبيح، حسناً بهذه الشبهة الباطلة، إذا اكتفوا بالعدد، ولم ينقصوا منه شيئاً، ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: المصرين على كفرهم المستمرين عليه، فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.

أي: لا يهديهم إلى الحكمة في أحكام شرعه وجعلها مبنية على مصالح الناس في دينهم ودنياهم، أفراداً وجماعات، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين، من آثار الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم وما يوسوس لهم به الشيطان، فيوقعهم في الشقاء والخسران.

وقرأ الأعمش وأبو جعفر[1]: ﴿ليواطيوا﴾ بالياء المضمومة، وقرأ الجمهور: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ زيد بن علي: ﴿زَيَّن لهم سوءَ أعمالهم﴾ بفتح الزاي والياء والهمزة، والأولى أن يكون المعنى: زَيَّن لهم ذلك الفعل سوء أعمالهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع، بعد رجوعه ﷺ من الطائف، وفيما لابسها من هتك ستر المنافقين، وضعفاء الإيمان وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق إلا آيتين جاءتا في آخرها، وإلا ما جاء في أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرياً على سنة القرآن في أسلوبه الذي اختص به.

وتبوك موضع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، فهي تبعد عن المدينة (٦١٠كم)، أربع عشرة مرحلة، وعن دمشق (٦٩٣كم).

---

(١) البحر المحيط.

غزوة تبوك

وكان السبب في هذه الغزوة: ما بلغ رسول الله ﷺ والمسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة، من أن هرقل جمع أهل الروم وأهل الشام، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء، وكان ﷺ قليلاً ما يخرج في غزوة إلا ورّىٰ عنها بغيرها، إلا ما كان من غزوة تبوك، وذلك لبعد المسافة وشدة الزمان وكثرة العدو، ليأخذ الناس أهبتهم، فأمرهم بالجهاد وبعث إلى مكة وقبائل العرب، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله، وهي آخر غزواته ﷺ، وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، فجهز عشرة آلاف، وأنفق عليها عشرة آلاف دينار، غير الإبل والخيل وهي تسع مئة بعير ومئة فرس، وغير الزاد وما يتعلق بذلك، حتى ما تربط به الأسقية فقال النبي ﷺ: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها» وأنفق غيره من الأغنياء، وأول من جاء بالنفقة أبو بكر، فجاء بجميع ماله، أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بنصف ماله وجاء ابن عوف بمئة أوقية، وجاء العباس بمال كثير، وكذا طلحة، وبعثت النساء بكل ما يقدرون عليه من حليهن، فلما تجهز رسول الله ﷺ بالناس وهم ثلاثون ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وكان الخيل عشرة آلاف فرس.. خلَّف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل: عليَّ بن أبي طالب وتخلف عبد الله بن أبي، ومن كان معه من المنافقين، بعد أن خرجوا إلى ثنية الوداع متوجهاً إلى تبوك، وعقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر، ورايته العظمى للزبير، وراية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواءً ورايةً، ولمَّا نزلوا بتبوك وجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة من مائها، فمضمض بها فاه، ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت، وارتووا هم وخيلهم وركابهم، وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل: عشرين ليلة، فأتاه يُحَنَّةُ ـ بضم التحتية وفتح الحاء المهملة والنون المشددة، ثم تاء تأنيث ـ بن رؤبة ـ بضم الراء فهمزة ساكنة فموحدة ـ صاحب أيلة وأهدى له بغلة بيضاء فكساه النبي ﷺ رداء، وصالحه على إعطاء الجزية بعد أن عرض عليه الإسلام، فلم يسلم فكتب له ولأهل أيلة كتاباً تركه عندهم ليعملوا به

وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك، وأشاروا عليه بعدم مجاوزتها، فانصرف هو المسلمون راجعين إلى المدينة، ولمَّا دنا من المدينة.. تلقاه الذين تخلفوا، فقال لأصحابه: «لا تكلموا رجلاً منهم، ولا تجالسوهم، حتى آذن لكم» فأعرض عنهم المسلمون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه إلى آخر ما في القصة، اهـ من «سيرة الحلبي».

والاستفهام في قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ للإنكار والتوبيخ؛ أي: أي شيء يمنعكم من ذلك و﴿ما﴾: مبتدأ و﴿لكم﴾: خبره وجملة ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ حال من ضمير المخاطبين وأصله تثاقلتم فأبدلت التاء ثاء، ثم أدغمت في الثاء، ثم اجتلبت همزة الوصل توصلاً إلى النطق بالساكن، وقرأ ابن مسعود والأعمش ﴿تثاقلتم﴾ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ ظرف لهذه الحال مقدم عليها، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا بما جاء به محمد ﷺ، أي شيء ثبت لكم من الأعذار حال كونكم متثاقلين ومشتهين الإقامة في أرضكم في وقت قول الرسول لكم انفروا؛ أي: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله ﷺ «إذ استنفرتم.. فانفروا» والاسم النفير اهـ «خازن».

أي: يا أيها الذين آمنوا، ما الذي عرض لكم، مما يخل بالإيمان أو بكماله، من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم، وإخلادكم إلى الراحة واللذة في الأرض، حين قال لكم الرسول: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق، الذي هو سبيل سعادتكم، فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ وكان من أسباب تثاقلهم أمور:

١ ـ الزمن كان وقت حر شديد.

٢ ـ أنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين.

٣ ـ أنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام.

٤ ـ أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر؛ لأن رجباً وافق أكتوبر في تلك السنة، فاقتضى اجتماع هذه الأسباب تثاقل الناس عن تلك الغزوة.

روى ابن جرير عن مجاهد، قال: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين، وبعد الطائف أمروا بالنفير في الصيف حين اخترمت النخل ـ اجتني ثمرها ـ وطابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج، فقالوا: منا الثقيل، وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله.

وكان من دأب النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يوري بغيرها، لما تقتضيه المصلحة من الكتمان، إلا في هذه الغزوة، فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر.

وكانت حكمة[١] الله في إخراجهم، وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالاً تمحيص المؤمنين وخزي المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين، والاستفهام في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ استفهام توبيخ وتعجب؛ أي: أرضيتم بالحياة الدنيا وغرورها ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بدل نعيم الآخرة؛ أي: أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلاً من سعادة الآخرة الكاملة الباقية، ومن يفعل ذلك.. فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: فما التمتع بلذائذ الدنيا ﴿فِى﴾ مقابلة نعيم ﴿ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل السرور القليل سفه.

أي: فما هذا الذي تتمتعون به في الدنيا مشوباً بالمنغصات والآلام إذا قيس بما في الآخرة من النعيم المقيم والرضوان من المولى إلا شيء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلاً منه.

روى أحمد ومسلم والترمذي عن المسور أن النبي ﷺ، قال: «والله ما في

---

(١) المراغي.

الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم ثم يرفعها فلينظر بم يرجع». أي: إن نعيم الدنيا في قلته وقلة زمنه، إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله.

وفي الآية[١] دليل على وجوب الجهاد في كل حال، وفي كل وقت؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر، فلو لم يكن الجهاد واجباً.. لما عاتبهم على ذلك التثاقل، ويؤيد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا﴾؛ أي: إن لم تخرجوا أيها المؤمنون إلى ما طلبكم الرسول ﷺ للخروج إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي وجيعاً[٢] في الآخرة؛ لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة، وقيل: إن المراد به احتباس المطر في الدنيا، قال نجدة بن رفيع: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب، فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم؛ أي[٣]: يهلكهم الله بسبب فظيع هائل، كقحط وظهور عدو ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ عنكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم وأطوع يطيعونه ويطيعون رسوله؛ لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس، وقيل: هم أهل اليمن، نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ وإعزاز دينه فإن سارعوا معك إلى الخروج إلى حيث استنفروا.. حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل، وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه.. حصلت النصرة بغيرهم، وحصلت العُتْبَىٰ لهم، لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم.

والمعنى: أن الله يأتي بعد إهلاككم بدلكم بقوم مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا، كأهل اليمن وأبناء فارس، والضمير في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ إما[٤] راجع إلى الله؛ أي: ولا تضروا الله بتثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه شيئاً من الضرر،

---

(١) الخازن.
(٢) الخازن.
(٣) البيضاوي.
(٤) الخازن.

فهو سبحانه الغني عنكم في كل أمر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وكل من في السموات والأرض مسخر بأمره، ولكن جعل للبشر شيئاً من الاختيار، ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم، وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإما عائد على محمد؛ أي: ولا تضروا محمداً ﷺ شيئاً من الضرر، فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: والله سبحانه قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه، وقادر على إهلاككم والإتيان بغيركم إن أصررتم على عصيان رسوله، وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه، ممن يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولا يخشون في الحق لومة اللائمين، كما قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

ثم رغبهم ثانية في الجهاد، فأبان لهم أنه تعالى المتكفل بنصره على أعداء دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وهو قد فعل ذلك به، وهو في قلة من العدد والعدو في كثرة، فكيف وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾؛ أي: إن لم تنصروا الرسول الذي استنصركم في سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله، وأعداء رسوله ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: فسينصره الله بقدرته وتأييده؛ كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: حين أجمع المشركون على القتل به واضطروه إلى الخروج والهجرة، حال كونه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق، وقرأت[1] فرقة: ﴿ثاني اثنين﴾ بسكون ياء ﴿ثاني﴾ قال ابن جني: حكاها أبو عمرو ووجهه: أنه سكن الياء تشبيهاً لها بالألف وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدل بعض، والغار ثقب في الجبل المسمى ثوراً، وهو المشهور بغار ثور، وهو جبل قريب من مكة؛ أي: فقد نصره الله إذ هما في غار جبل ثور، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدل ثان؛ أي: حين يقول محمد ﷺ، لصاحبه في الغار، وهو أبو بكر الصديق، لمَّا رأى منه أمارة الحزن ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ولا تخف

---

(١) البحر المحيط.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَعَنَا﴾ بنصره ومعونته وحفظه وتأييده، فلن يطلع المشركون علينا، ولن يصلوا إلينا، والمراد بالمعية الولاية الدائمة، التي لا يحوم حول صاحبها شيء من الحزن، اهـ «كرخي».

وكان[1] الصديق قد حزن على رسول الله ﷺ، لا على نفسه فقال له: يا رسول الله، إذا مت أنا.. فأنا رجل واحد، وإذا مت أنت.. هلكت الأمة والدين.

روي: أن قريشاً ومن بمكة من المشركين تعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فأمره الله تعالى أن يخرج أول الليل إلى الغار، فخرج هو وأبو بكر أول الليل إلى الغار، وأمر ﷺ علياً أن يضطجع على فراشه، ليمنع السواد من طلبه، حتى يبلغ إلى ما أمر الله به، فلما وصل إلى الغار.. دخل أبو بكر فيه أولاً يلتمس ما فيه، فقال له النبي ﷺ: «مالك؟» فقال: بأبي أنت وأمي الغار مأوى السباع والهوام، فإن كان فيه شيء كان بي لا بك، وكان في الغار جحر فوضع عقبه عليه؛ لئلا يخرج ما يؤذي الرسول، فلما طلب المشركون الأثر وقربوا.. بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره فجعل يمسح الدموع عن خده، وروي لما دخلا الغار.. بعث الله تعالى حمامتين، فباضتا في أسفله والعنكبوت نسجت عليه، فقال ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم»، فجعلوا يترددون حول الغار، ولا يرون أحداً، وقصة خروجه ﷺ من مكة إلى المدينة، هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث، فراجعها، إن أردت تمامها.

روى البخاري ومسلم من حديث أنس، قال: حدثني أبو بكر قال: كنت مع النبي ﷺ، في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه.. لأبصرنا تحت قدميه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، وقال[2] أبو بكر رضي الله عنه شعراً من بحر البسيط:

قَالَ ٱلنَّبِيُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوَقِّرُنِي ... وَنَحْنُ فِي سَدَفٍ مِنْ ظُلْمَةِ ٱلْغَارِ

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.

لاَ تَخْشَ شَيْئاً فَإِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُنَا   وَقَدْ تَكَفَّلَ لِيْ مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تَخْشَىٰ بَوَادِرَهُ   كَيْدُ ٱلشَّيَاطِيْنِ قَدْ كَادَتْ لِكُفَّارِ
وَٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ طُرّاً بِمَا صَنَعُوْا   وَجَاعِلُ ٱلْمُنْتَهَىٰ مِنْهُمْ إِلَىٰ ٱلنَّارِ

وخلاصة ذلك[1]: إن لا تنصروه بالنفر لما استنفركم له.. فإن الله قد ضمن له النصر، فهو ينصره كما نصره في الوقت الذي اضطرّه المشركون إلى الهجرة، حين كان ثاني اثنين في الغار، وكان صاحبه قد ساوره الحزن، فقال له: لا تحزن إن الله معنا، ونحن لا نكلف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾؛ أي: طمأنينته التي يسكن عندها القلب ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على رسوله، وقيل: على صاحبه أبي بكر، لأن الرسول معصوم عن الخوف ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾؛ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ﴾ من عنده ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأُحد، وقيل: بل هم ملائكة أيده بهم في حال الهجرة، يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار، ويصرفونها عنهما، فقد خرج والشبان المتواطؤون على قتله وقوف ولم ينظروه.

وهذه[2] الجملة معطوفة على جملة ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كلمة الشرك وهي دعوتهم إليه ونداؤهم للأصنام هي ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ أي: السافلة الحقيرة الزاهقة المنمحقة المضمحلة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ وهي دينه المبنيُّ على أساس توحيده تعالى، والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة، والخالي من شوائب الشرك، وخرافات الوثنية، أو كلمة لا إله إلا الله، وكلمة الدعوة إلى الإسلام ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ أي: العالية الظاهرة بظهور نور الإسلام وإزالة سيادة المشركين في تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وأتى بضمير الفصل تأكيدا لفضل كلمته في العلو وإشعاراً بأنها المختصة به دون غيرها.

---

(١) المراغي.   (٢) المراح.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ بتشديد الياء ومجاهد ﴿وأيده﴾ بالتخفيف وقرأ[2] الأعمش ويعقوب: ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب حملاً على جعل؛ أي: وجعل كلمة الله وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف، وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم وقال أبو حيان وقراءة الجمهور بالرفع أثبت في الأخبار وعن أنس رأيت في مصحف أبيٍّ ﴿وجعل كلمته هي العليا﴾ انتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب على أمره قاهر على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لخلقه إذ يضع الأشياء في مواضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته، وأذل من ناوأه من المشركين.

﴿ٱنفِرُواْ﴾؛ أي: اخرجوا أيها المؤمنون مع نبيكم إلى غزوة تبوك حالة كونكم ﴿خِفَافًا﴾ في الخروج لنشاطكم له ﴿و﴾ حالة كونكم ﴿ثقالا﴾ عنه لمشقته عليكم، وقيل: منفردين ومجتمعين، وقيل: فقراء وأغنياء وقيل: شباباً وشيوخاً، وقيل: رجالاً وفرساناً، وقيل: ذوي عيال وغير ذوي عيال، وقيل: ذوي أشغال وغير ذوي أشغال، وقيل: أصحاء ومرضى، وقيل: عزاباً ومتأهلين، وقيل غير ذلك.

وقيل[3]: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ الآية، وقيل: هي محكمة وليست بمنسوخة، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ وإخراج الضعيف والمريض بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ من باب التخصيص، لا من باب النسخ، على فرض دخول هؤلاء تحت قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ والظاهر عدم دخولهم تحت العموم.

والصحيح[4]: القول الأول وأنها منسوخة، ولأن الجهاد من فروض

---

(1) البحر المحيط.
(2) الشوكاني.
(3) الشوكاني.
(4) الخازن.

الكفايات، ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك، وأن النبي ﷺ خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال، فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفاية ليس على الأعيان، ومحل[1] النسخ قوله: ﴿وَثِقَالًا﴾، وأما ﴿خِفَافًا﴾ فلا نسخ فيه على كل قول والله أعلم.

أي: انفروا على كل حال من يسرٍ أو عسرٍ، وصحة أو مرض، وغنى أو فقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك، مما ينتظم في مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة في الجملة.

فإذا أعلن النفير العام.. وجب الامتثال إلا حال العجز التام، وهو ما بينه الله تعالى في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ويؤيد هذا التعميم في عموم الأحوال قول أبي أيوب الأنصاري، وقد شهد المشاهد كلها، إلا غزوة واحدة، قال الله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً، وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدي النبي وعمله، ففتحوا البلاد وسادوا العباد، لكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغني بألفاظه، ذلوا وضعفوا واستكانوا، وسادتهم الشعوب الأخرى، وتقوض ملكهم من أطرافه وأصبحوا من المستضعفين، وصاروا عبيداً لأعدائهم.

﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ أعداءكم الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ويفسدون في الأرض وابذلوا ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في إقامة ميزان العدل وإعلاء كلمة الحق، فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه.. وجب عليه ذلك، ومن قدر على أحدهما، وجب عليه ما كان في مقدرته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي أمرتم به من النفر والجهاد الذي هو الوسيلة في حفظ كيان الأمم وعلو كلمتهم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من القعود والتثاقل في دينكم ودنياكم، أما في الدين فلا سعادة إلا لمن ينصر الحق، ويقيم العدل، باتباع هدى الدين والعمل بالشرع الحكيم، وأما في الدنيا، فإنه لا

---

(١) الفتوحات.

عزَّ للأمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية التي هي وسيلة لدفاع العدو وكبح جماحه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه، فانفروا وجاهدوا في سبيل الله وبادروا إليه وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون، فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه.

ولما أمرهم بالنفير تخلف بعض المنافقين، لأعذار ضعيفة، وتخلف ناس آخرون من المؤمنين، فأنزل الله في أثناء السفر قوله ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ أي: متاعا قريب المنال وغنيمةً سهلة المأخذ، والعرض: ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: متوسطاً بين القريب والبعيد، يعني: سهلاً قريباً ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ في الخروج إلى تبوك طمعاً في تلك المنافع؛ أي لخرجوا معك.

والمعنى[1]: لو كان ما دعوتهم إليه منفعة قريبة المنال ليس في الوصول إليها كبير عناء وسفراً هيناً، لا تعب فيه ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ وأسرعوا بالنفر إليه إذ حب المنافع المادية والرغبة فيها طبيعي في الإنسان، ولا سيما إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال، وكان من يسعى إليها ممن لا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب المقيم والأجر العظيم، كأولئك المنافقين.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافة التي تقطع بمشقة، والشقة[2]: السفر البعيد؛ لأنه يشق على الإنسان سلوكه، فتخلفوا عن الجهاد، بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة.

أي: ولكنَّك ٱستنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفراً شاقاً، لأنك استنهضتهم وقت الحر وزمن القيظ، وحين الحاجة إلى الكن، فتخلفوا جبناً وحباً للراحة والسلامة.

والخلاصة: لو كان العرض قريباً، والغنيمة سهلة، والسفر قاصداً.. لاتبعوك، طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم، ولكن لما كان السفر بعيداً

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

وكانوا يتعظمون غزو الروم، لا جرم أنهم تخلفوا لهذا السبب.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا رجع النبي ﷺ من هذا الجهاد، يحلفون بالله، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ أي: المتخلفون عن الغزو عند رجوعك من غزوة تبوك، وهم عبد الله بن أبي وجُدُّ بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهم، كما قال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ قائلين ﴿بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ الخروج إلى الجهاد بوجود الزاد والراحلة وانتفاء الأعذار المانعة منه ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى غزوة تبوك، فما كان تخلفنا إلا لاضطرار، وقال البيضاوي: هذه[1] الجملة سادة مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات، لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه اهـ.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب بامتهان اسم الله بالحلف الكاذب، لستر نفاقهم وإخفائه، تأييداً للباطل بالباطل، وتقويةً للإجرام بالإجرام، فإن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك، روي أنه ﷺ قال: «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع».

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أيمانهم وحلفهم بالله، وقولهم: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، فهم كانوا للخروج مطيقين، إذ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء الأجسام ذوي يسرة في المال، وقرأ الأعمش وزيد بن علي ﴿لَوُ استطعنا﴾ بضم الواو، فرَّ من ثقل الكسرة على الواو، وشبهها بواو الجمع، عند تحريكها لالتقاء الساكنين، وقرأ[2] الحسن: بفتحها، كما جاء ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ بالأوجه الثلاثة، ثم عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ في إذنه لمن تخلف عنه من المنافقين، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يا محمد، ما وقع منك، من ترك الأولى والأكمل؛ أي: عفا عنك ما أدَّاك إليه اجتهادك من الإذن لهم حين استأذنوك وكذبوا عليك في الاعتذار، والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ للعتاب من الله تعالى لرسوله ﷺ، حيث

---

(١) البيضاوي. (٢) البحر المحيط.

وقع منه الإذن في القعود لمن استأذنه قبل أن يتبين له من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه ومن هو كاذب فيه، والعتاب: هو لوم الحبيب حبيبه على أمر غير لائق به؛ أي: لأي سببٍ، ولأي شيء أذنت لهم في القعود والتخلف كما أرادوا، وهلا تأنيت في الإذن لهم وتوقفت عنه ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾؛ أي: حتى ينجلي وينكشف لك ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في اعتذارهم بعدم الاستطاعة من جهة المال، أو من جهة البدن ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما يعتذرون به؛ أي: حتى يتبين لك الفريقان فتعامل كلّاً بما ينبغي أن يعامل به، فإن الكاذبين لا يخرجون أذنت لهم أو لم تأذن، فكان من الأجدر بك والأولى لك، أن تتلبث أو تمسك عنه اختباراً.

والمعنى: عفا الله عنك يا محمد، ما كان منك من إذنك لهؤلاء المنافقين، الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك.

روي عن مجاهد في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ هم ناس قالوا: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم، فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم، فاقعدوا. وقال ابن عباس، لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذٍ، حتى نزلت سورة براءة، قيل[1]: إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما: أخذه للفداء وإذنه للمنافقين، فعاتبه الله عليهما، وفي ذكر العفو عنه ﷺ ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه لرسوله ﷺ.

فإن قلت: هذا العتاب المذكور هنا، يعارض ما رخص له ﷺ في سورة النور، بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؟

قلتُ: يمكن الجمع بين الآيتين، بأن العتاب هنا متوجه إلى الأذن قبل الاستثبات، حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات، والله أعلم.

---

(١) البيضاوي.

قال القاضي عياض في كتابه «الشفاء»[1]: وليس عفا هنا بمعنى: غفر، بل كما قال النبي ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق» ولم تجب عليهم قط؛ أي لم يلزمكم ذلك، ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول: (العفو لا يكون إلا عن ذنب) مَنْ لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا عنك؛ أي: لم يلزمك ذنب، ثم ذكر سبحانه: أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في القعود عن الجهاد بلا عذر، بل كان من عادتهم أنه ﷺ إذا أذن لواحد منهم بالقعود.. شق عليه ذلك، فقال: ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في ﴿أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله بل الخلص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن، فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف من غير عذر، فحيث استأذنك هؤلاء في التخلف كان ذلك مظنةً للتأني في أمرهم، بل دليلاً على نفاقهم، ذكره أبو السعود.

والمعنى: ليس[2] من شأن المؤمنين بالله - الذي كتب عليهم القتال - وباليوم الآخر الذي يوفى فيه كل عامل جزاء ما عمل، أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، إذا جد ما يدعو إلى ذلك، بل يُقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ بل هم يستعدون له وقت السلم بإعداد القوة ورباط الخيل وهم بالأولى لا يستأذنونك في التخلف عنه بعد إعلان النفير العام، وأقصى ما يقع من فريق منهم هو التثاقل والتباطؤ إذا كان النصر بعيداً.

واعلم: أنه قد تقدم لنا أن هذه السورة تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين، ومن ثم نقل البغوي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شؤونهم بهذا التفصيل حتى

---

(١) الخازن بتصرف.

(٢) المراغي.

نزلت هذه السورة، وهذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يسارعون إلى طاعته؛ أي: والله عليم بمن خافه فاتقاه باجتناب ما يسخطه، وفعل ما يرضيه بالمسارعة إلى طاعته في عدوه، وجهادِهِ بماله ونفسه، وليس من دأبهم أن يستأذنوا بالتخلف كراهيةً للقتال. وفي[1] الآية إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات ولا فضائل العادات كقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، وسائر أعمال المعروف.

ثم صرح بما فهم من الكلام السابق زيادة في التوكيد والتقرير، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ يا محمد في التخلف عنْ الجهاد معك من غير عذر ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بتوحيده (و) لا بـ ﴿اليوم الآخر﴾ وهم المنافقون، فهؤلاء يرون بذل المال مغرماً يفوت عليهم بعض المنافع، وهم لا يرجون ثواباً عليه كما يرجو المؤمنون، ويرون الجهاد بالنفس آلاماً ومتاعب، وذكر[2] الإيمان بالله أولاً، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين؛ لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله، قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطف على الصلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجاء بالماضي، للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم، وهو الشك، وأنما أضاف[3] الشك والارتياب إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً، فإذا دخله الشك، كان ذلك نفاقاً؛ أي: إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم؛ أي: شكت قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ﴾ حال كونهم ﴿فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المفرق قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ أي: يتحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين.

والمعنى: فهؤلاء الذين يتسأذنونك ليسوا بمؤمنين، بل كانوا مرتابين حائرين، لا يهتدون إلى طريق الصواب، ولا يعرفون الحق، فلم تطمئن به قلوبهم، ولم تذعن له نفوسهم فهم متحيرون في أمرهم، مذبذبون في عملهم، يوافقون المؤمنين فيما سَهلَ أداؤه من عبادات الإسلام، من صلاة وصيام،

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) الخازن.

ويلتمسون الخلاص فيما شق عليهم من تكاليفه، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة للهرب من القيام بشيء منها.

وقد جاء في بعض الروايات: أن عدد هؤلاء كان تسعةً وثلاثين رجلاً ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ إلى الغزو معك ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: لهيؤوا للخروج ﴿عُدَّةً﴾؛ أي: أهبةً من الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك، مما يحتاج إليه المسافر لمثل هذا السفر البعيد، وقد كانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾؛ أي: ولكن لم يرد نهوضهم للخروج معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أي: حبسهم بالكسل.

أي: ولو[1] كانوا صادقين فيما يدعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك.. لأعدوا له عدة، ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يُحتاج إليه، لما تركوا إعداد العدة وتحصيلها قبل وقت الجهاد، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى الكلام: أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو عدةً، ولكن كره الله انبعاثهم وخروجم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا، ولكن تثبطوا؛ لأن كراهة الله انبعاثهم، تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانعباث: الخروج؛ أي: حبسهم الله عن الخروج معك، وخذلهم؛ لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس.. أفسدنا وحرضنا على المؤمنين، وقيل المعنى: لو أرادوا الخروج.. لأعدوا له عدة، ولكن ما أرادوه؛ لكراهة الله له.

والانبعاث في الأصل[2]: توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشيء بقوة، كبعث الرسل وبعث الموتى، والتثبيط: التعويق عن الأمر والمنع منه.

والخلاصة: كره الله نفيرهم وخروجهم مع المؤمنين، لما فيه من الضرر العائق لهم عما أحبه من نصرهم، فثبطهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف التي هي مقتضى سننه من تأثير النفاق فيها، ومن ثم لم يعدوا للخروج عدته،

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

لأنهم لم يريدوه، وإنما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من المخالفة والعصيان.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾؛ أي: قال لهم الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة: تخلفوا مع المتخلفين، وقيل: قاله بعضهم لبعض، وقيل: قاله لهم رسول الله ﷺ غضباً عليهم، وقيل: هو عبارة عن الخذلان؛ أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، خذلاناً لهم، ومعنى ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾؛ أي: مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان، وفيه من الذم لهم والإزراء عليهم والتنقيص بهم ما لا يخفى.

أي: وقال لهم الرسول ﷺ بعبارة تدل على السخط لا على الرضا: اقعدوا مع الأطفال والزمنى والعجزة والنساء، وهم قد حملوه على ظاهره لموافقته لما يريدون.

وها هنا يتوجه سؤال، وهو أن خروج المنافقين مع رسول الله ﷺ إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة، فإن كان فيه مصلحة.. فلم قال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؟ وإن كان فيه مفسدةٌ، فلم عاتب نبيه ﷺ في إذنه لهم في القعود؟

والجواب عن هذا السؤال: أن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبره بتلك المفسدة بقوله: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ بقي أن يقال: فلم عاتب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟ فنقول: إنه ﷺ أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وقيل: إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالقعود، اهـ «خازن».

وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية ﴿عُده﴾ بضم العين من غير تاء. قال صاحب «اللوامح»: لما أضاف.. جعل الكناية نائبةً عن التاء، فأسقطها. وقال أبو حاتم: هو جمع عدةٍ كبرةٍ وبرٍّ ودرةٍ ودرٍ، وقرأ زر بن حبيش

وأبان عن عاصم: ﴿عِدَّهُ﴾ بكسر العين وهاء إضمار. قال ابن عطية: وهو عندي اسم لما يعد كالذبح والقتل للعدو، سمي قتلاً إذ حقه أن يقتل، وقرىء أيضاً: ﴿عِدَّة﴾ بكسر العين وبالتاء دون إضافةٍ أي: عدةٌ من الزاد والسلاح.

الإعراب

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾.

﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿عِدَّةَ﴾ اسمها ﴿الشُّهُورِ﴾ مضاف إليه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿عِدَّةَ﴾؛ لأنه مصدرٌ ﴿اثْنَا عَشَرَ﴾ عدد مركب، معرب الصدر مبنيُّ العجز ﴿اثْنَا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وعلامة رفعه الألف، نيابةً عن الضمة؛ لأنه ملحق بالمثنى ﴿عَشَرَ﴾ جزء خبر مبني على الفتح، لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً ﴿شَهْرًا﴾ منصوب على التمييز ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه صفة لأثنى عشر أو بدل من ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية متعلق بـ ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ إن قلنا إنه مصدر لا جثةٌ، أو بدلٌ ثان من ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ فعل ومفعول ﴿وَالْأَرْضَ﴾ معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿مِنْهَا﴾ جار ومجرور حال من ﴿أَرْبَعَةٌ﴾؛ لأنها صفة نكرة قدمت عليها ﴿أَرْبَعَةٌ﴾ مبتدأ ﴿حُرُمٌ﴾ خبر، والجملة الاسمية في محلِ الرفع صفة لـ﴿اثْنَا عَشَرَ﴾ أو مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿الدِّينُ﴾ خبر ﴿الْقَيِّمُ﴾ صفه لـ ﴿الدِّينُ﴾ والجملة مستأنفة ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أن تحريمها هو الدين القيم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم ﴿لا تظلموا﴾ جازم وفعل وفاعل ﴿فِيهِنَّ﴾ متعلق به ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به ﴿كَافَّةً﴾ حال من واو ﴿وَقَاتِلُوا﴾ أو من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ ولكنه مصدر جامد في

تأويل المشتق، كما سيأتي في مبحث التصريف، تقديره: حالة كونكم أو كونهم مجتعين، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه و﴿ما﴾ مصدرية ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿كَآفَّةٗ﴾ إما حال من واو الفاعل، أو كاف المخاطبين، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، تقديره: كقتالهم إياكم ﴿كَآفَّةٗ﴾ الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: وقاتلوا المشركين كافة، قتالاً كائناً كقتالهم إياكم كافة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ أو مستأنف، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إنَّ﴾ في تأويل مصدر سادٌّ مسد مفعولي علم؛ أي: واعلموا كون الله مع المتقين.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ متعلق بـ ﴿زِيَادَةٞ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة ﴿يُضَلُّ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿به﴾ متعلق به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثان لـ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفعل صلة الموصول ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿عَامٗا﴾ ظرف متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الموصول، أو مفسرة للضلال لا محل لها من الإعراب ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ معطوف على ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يواطئوا﴾ فعل وفاعل منصوب بأن المضمرة بعد لام كي ﴿عِدَّةَ مَا﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: عدة ما حرمه، وجملة ﴿يواطىء﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور ﴿باللام﴾ تقديره: لمواطأتهم عدة ما حرمه الله، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يحرمونه﴾ ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿يحلوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿يواطئوا﴾ ﴿مَا﴾ في محل النصب مفعول ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾

فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما حرمه ﴿زُيِّنَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ نائب فاعل، ومضاف إليه، والأصل زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنه ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ فعل ومفعول به ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُۗ﴾ والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة و﴿ها﴾ حرف تنبيه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل الرفع صفة لـ ﴿أي﴾ وجملة النداء مستأنفة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة صلة الموصول ﴿مَا﴾ للاستفهام الإنكاري التوبيخي، في محل الرفع مبتدأ ﴿لَكُمْ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: أي شيء ثابت لكم، والجملة الاسمية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، لا جواب لها ﴿قِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصِّيغة ﴿لَكُمُ﴾ متعلق به ﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نائب فاعل محكي، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ والظرف متعلق بـ ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ الآتي وإن شئت قلت: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿قِيلَ﴾، ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ فعل ماض وفاعل ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من كاف المخاطبين في ﴿لَكُمُ﴾ والتقدير: أيُّ شيء ثبت لكم من الأعذار، حال كونكم متثاقلين في وقت قول الرسول لكم: انفروا؛ أي: أخرجوا في سبيل الله ﴿أَرَضِيتُم﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي التعجبي الإنكاري ﴿رضيتم﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ﴾ متعلق به ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة للحياة والجملة الاستفهامية مستأنفة ﴿مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ﴾ جار ومجرور حال من ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما ذكره أبو البقاء: أي: حالة كونها بدلاً من الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿ما﴾ نافية

﴿مَتَـٰعُ﴾ مبتدأ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مضاف إليه ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من المبتدأ، على رأي سيبويه، تقديره: حالة كونه منسوباً إلى الآخرة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿قَلِيلٌ﴾ خبر المبتدأ والجملة الاسمية مسوقة لتعليل النفي المفهوم من الجملة الاسمية، والتقدير: لا ترضوا الحياة الدنيا بدل الآخرة لكون متاع الدنيا قليلاً. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف من حيث المعنى، تقديره: فما متاع الحياة الدنيا محسوباً في الآخرة، فمحسوباً: حال من متاع، وقال الحوفي: إنه متعلق بـ ﴿قَلِيلٌ﴾ وهو خبر المبتدأ، قال: وجاز أن يتقدم الظرف على عامله المقرون بإلا؛ لأن الظروف تعمل فيها روائح الأفعال، ولو قلت: ما زيد إلا عمراً يضرب.. لم يجز، اهـ «سمين».

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في لام ﴿لا﴾، ﴿لا﴾ نافية ﴿تَنفِرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بإن الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بإن الشرطية، على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به، أو مفعول مطلق ﴿أَلِيمًا﴾ صفة لـ ﴿عذابا﴾ والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ معطوف على ﴿يعذب﴾ وفاعله ضمير يعود على الله ﴿قَوْمًا﴾ مفعول به ﴿غَيْرَكُمْ﴾ صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾ لأنه بمعنى مغايرين إياكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على يعذب أيضاً﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول ثان ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ متعلق بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾.

﴿إِلَّا﴾ ﴿إِنْ﴾ حرف شرط جازم مبني بسكون على النون المدغمة في لام

﴿لا﴾ النافية، ﴿لا﴾ نافية ﴿تَنصُرُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول مجزوم بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فسينصره الله تعالى، وجملة الشرط مع جوابه المحذوف مستأنفة ﴿فَقَدْ﴾ ﴿الفاء﴾ تعليلية ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بـ ﴿لام﴾ التعليل المقدرة المدلول عليها بـ ﴿الفاء﴾ التعليلية المتعلقة بالجواب المحذوف، الذي قدرناه آنفاً ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، متعلق بـ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿ثَانِيَ﴾ منصوب على الحال من الهاء في ﴿أَخْرَجَهُ﴾ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ مضاف إليه، ولكنه في تأويل مشتق، تقديره: إذ أخرجه الذين كفروا، حالة كونه واحداً من اثنين؛ أي: حالة كونه منفرداً عن جميع الناس، إلا أبا بكر الصديق، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان، في محل النصب على الظرفية، والظرف بدل من ﴿إِذْ﴾ قبله بدل بعض من كل، فيفرض زمن إخراجه ممتداً، بحيث يصدق على زمن استقرارهما في الغار، وزمن القول المذكور، والبدل في هذا وما بعده بدل بعض من كل، ولا بد من هذا التكلف لتصح البدلية، وإلا فزمن الإخراج مباين لزمن حصولهما في الغار، إذ بين الغار ومكة مسيرة ساعة ﴿هُمَا﴾ مبتدأ ﴿فِى ٱلْغَارِ﴾ خبره، والجملة في محل الجر مضاف إليه.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى ﴿يَقُولُ﴾ فعل مضارع ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إِذْ﴾ والظرف بدل أيضاً من ﴿إِذْ﴾ الأولى بدل بعض من كل ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُ﴾ وإن شئت قلتَ: ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَحْزَنْ﴾ فعل

مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على أبي بكر، والجملة في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها ﴿مَعَنَا﴾ ظرف متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل و﴿الفاء﴾ عاطفة الجملة على جملة قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ مفعول به ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ ﴿أنزل﴾ ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أنزل﴾ ﴿بِجُنُودٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَيَّدَ﴾ ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فعل وفاعل ومفعول به وجازم؛ لأنَّ رأى بصرية، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿جنود﴾ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل ومفعول أول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿أيد﴾ ﴿كَفَرُوا۟﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ مفعول ثان لجعل ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿هِىَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْعُلْيَا﴾ خبر المبتدأ والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان، والجملة مستأنفة أو معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان من واو ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ معطوف على ﴿أموالكم﴾ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾ خبره ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَيْرٌ﴾ والجملة مستأنفة ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿كُنتُمْ﴾ فعل واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجملة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾ وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن كنتم تعلمون خيريته.. فلا تتثاقلوا عنه، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ

بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَوْ﴾ حرف شرط ﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ما فهم من السياق، تقديره: لو كان ما دعوتهم إليه ﴿عَرَضًا﴾ خبرها ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿عَرَضًا﴾ ﴿وَسَفَرًا﴾ معطوف على ﴿عَرَضًا﴾ ﴿قَاصِدًا﴾ صفة ﴿سفراً﴾ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية ﴿اتبعوك﴾ فعل وفاعل ومفعول وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَـٰكِنۢ﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿بَعُدَتْ﴾ فعل ماض ﴿عَلَيْهِمُ﴾ متعلق به ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ فاعل وجملة الاستدراك معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة الاستدراك ﴿لَوِ﴾ حرف شرط ﴿ٱسْتَطَعْنَا﴾ فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوِ﴾ ﴿لَخَرَجْنَا﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوِ﴾ ﴿خرجنا﴾ فعل وفاعل ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف حال من فاعل ﴿خرجنا﴾؛ أي: حالة كوننا مصاحبين بكم، وجملة ﴿خرجنا﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعاً، كما في «الفتوحات» وجملة ﴿لَوِ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: وسيحلفون لكم. قائلين: لو استطعنا.. لخرجنا معكم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة بدل من جملة قوله ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره والجملة الاسمية مستأنفة ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَكَـٰذِبُونَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿كاذبون﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ سادة مسد مفعولي عَلم معلقة عنها باللام.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿عَنكَ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لِمَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر ﴿م﴾ اسم استفهام إنكاري، في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة، فرقاً بينها وبين الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَذِنتَ﴾ المذكور بعده ﴿أَذِنتَ﴾ فعل وفاعل ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به أيضاً، وجاز تعلقهما بعامل واحد مع اتحادهما لفظاً لاختلاف معناهما؛ لأن الأولى للتعليل،

والثانية للتبليغ، كما في «الجمل» والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية، ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ ﴿لَكَ﴾ متعلق به ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل وجملة ﴿صَدَقُوا﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ تقديره: إلى تبين الذين صدقوا وظهورهم لك، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَذِنتَ﴾ ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فعل ومفعول معطوف على ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد، وعلم هنا بمعنى: عرف.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل والجملة مستأنفة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل، صلة الموصول ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ ناصب وفعل وفاعل ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ معطوف عليه والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: في مجاهدتهم بأموالهم وأنفسهم، والجار المحذوف متعلق بـ ﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبتدأ وخبر ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ متعلق به والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معطوف على الجلالة ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فعل وفاعل، معطوف على جملة الصلة ﴿فَهُمْ﴾ مبتدأ و﴿الفاء﴾ تفريعية عاطفة، ﴿هم﴾ مبتدأ. ﴿فِي رَيْبِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ وجملة ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مفرعة معطوفة على جملة ﴿ارتابت قلوبهم﴾.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَوۡ أَرَادُوا۟ ٱلۡخُرُوجَ﴾ حرف شرط وفعل وفاعل ومفعول ﴿لَأَعَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل، جواب ﴿لو﴾ و﴿اللام﴾ رابطة للجواب ﴿لَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿أعدوا﴾ ﴿عُدَّةً﴾ مفعول به وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لكن﴾ حرف استدراك ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفعل ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ مفعول به، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ فعل ومفعول و﴿الفاء﴾ عاطفة وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿كَرِهَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة ﴿ٱقۡعُدُوا۟ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ نائب فاعل محكى لـ ﴿قيل﴾ وجملة ﴿قيل﴾ معطوفة على جملة ﴿ثبطهم﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ ﴿عِدَّةَ﴾ اسم مصدر لعد الشيء، يعده: من باب رد إذا أحصاه، والشهور: جمع شهر، وهو في الأصل اسم للهلال، سميت به الأيام؛ أي: إن عدد شهور السنة القمرية ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ والكتاب: هو اللوح المحفوظ ﴿حُرُمٌ﴾ بضمتين واحدها حرام من الحرمة، بمعنى: التعظيم ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾: الدين: الشرع، والقيم: الصحيح المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿كَآفَّةً﴾: مصدر في موضع الحال، كما تقدم في مبحث الإعراب، ومعناه: جميعاً ولا يثنى ولا يجمع ولا تدخله أل ولا يتصرف فيه بغير الحال، اهـ. كرخي.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ والنسيء: من نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة إذا أخره؛ أي: الشهر الذي أنسىء تحريمه؛ أي: أخر عن موضعه وقال الكسائي: يقال: نسأه وأنسأه إذا أخره، وقال الجوهري وأبو حاتم: النسيء فعيل، بمعنى: مفعول من نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخرته، ثم حول إلى نسيء كما حول مقتول إلى قتيل، ورجل ناسيء وقوم نسأة، مثل فاسق وفسقة، انتهى. وقال الطبري: النسيء بالهمز معناه: الزيادة، انتهى، فإذا قلت أنسأ الله أجله، بمعنى: أخر، لزم من ذلك الزيادة في الأجل، فليس النسيء مرادفاً للزيادة، بل قد يكون منفردا عنها في بعض المواضع، وإذا كان النسيء مصدراً كان الإخبار عنه بمصدر واضحاً، وإذا

كان بمعنى مفعول فلا بد من إضمارٍ إما في النسيء؛ أي: إن نسأ النسيء، أو في زيادة؛ أي: ذو زيادة، وبتقدير هذا الإضمار يُردُّ على ما يرد على قوله: ولا يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ لأنه يكون المعنى: إنما المؤخر زيادة، والمؤخر الشهر، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر ذكره في «البحر».

وفي «المختار»: والنسيئة كالفعيلة التأخير، وكذا النسآء، بالفتح والمد، التأخير والنسيء في الآية، فعيل بمعنى: مفعول، من قولك نسأه، من باب: قطع؛ أي: أخره فهو منسوء فحول منسوء إلى نسيء، كما حول مقتول إلى قتيل، والمراد: تأخيرهم حرمة المحرم إلى صفر، انتهى.

﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ النفر والنفور: الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط، يقال: نفرت الدابة والغزال، نفوراً ونفر الحجيج من عرفات نفراً واستنفر الملك العسكر إلى القتال، وأعلن النفير العام، فنفروا خفافاً وثقالاً وفي «الخازن» يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه، ومنه قوله ﷺ «إذا استنفرتم، فانفروا» والاسم النفير، اهـ ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾؛ أي: تباطأتم وملتم عن الجهاد إلى القعود في الأرض، وأصله تثاقلتم، فأبدلت التاء ثاءً مثلثة ثم أدغمت في الثاء، ثم اجتلبت همزة الوصل، توصلا إلى النطق بالساكن، فصار اثاقلتم ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمتاع ما يتمتع به من لذات الدنيا ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ والغار: النقب العظيم في الجبل، والمراد هنا غار جبل ثور، يجمع على غِيران، مثل: تاج وتيجان وقاع وقيعان، والغار أيضاً نبت طيب الريح، والغار أيضاً: الجماعة والغاران: البطن والفرج، وألف الغار منقلبةٌ عن واوٍ، اهـ «سمين».

﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ والصاحب: هو أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ سكينته والسكينة: سكون النفس واطمئنانها، وهو ضد الانزعاج والاضطراب و﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي التوحيد و﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هي الشرك والكفر.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا على الصفة التي يخفف عليكم الجهاد فيها، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها، وهذان الوصفان يدخل تحتهما

أقسام كثيرة، كما أشرنا إليها في مبحث التفسير.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ والعرض بفتحتين: ما يعرض لك من متاع الدنيا ومنافعها، مما لا ثبات له ولا بقاء، وليس في الوصول إليه كبير عناء ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ ويقال: سير قاصد، وسفر قاصد؛ أي: هين لا مشقة فيه، من القصد وهو الاعتدال ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ والشقة الطريق، لا تقطع إلا بعناء ومشقة، فهي مشتقة من المشقة كما في «السمين» ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ والعفو: التجاوز عن التقصير، وترك المؤاخذة عليه ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ إنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان، فإذا دخله الشك، كان ذلك نفاقاً اهـ «خازن».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين يحلون ويحرمون في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ وبين ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وبين كلمة ﴿ٱللَّهِ﴾ وكلمة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ وبين قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وبين ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ و﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

ومنها: التكرار في قوله ﴿كَآفَّةً﴾ وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ وفي لفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿الآخرة﴾ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ...﴾ إلخ.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وفي قوله: ﴿أعدوا له عدة﴾ وفي قوله: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؛ أي: أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ من إطلاق الكل، وإرادة البعض؛ لأن المراد بها الشهور القمرية.

ومنها: إبهام الفاعل استهجاناً له في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ إن كان المزين الشيطان، أو للتفخيم إن قلنا: المزين هو الله.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار؛ لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها، بالنسبة للآخرة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ لأنها استعارة عن الشرك، كما أن كلمة الله استعارة عن الإيمان والتوحيد، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾؛ لأنه استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على سالكها.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ إظهاراً بعظم فضله، وجلالة قدره.

ومنها: تقديم المسرة على المضرة، في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ حيث قدم العفو على العتاب، وقد أحسن من قال: إن من لطف الله بنبيه: أن بدأه بالعفو قبل العتب.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنه أسند الإرتياب والشك إلى القلب؛ لأنه محل المعرفة والإيمان، فإذا دخله الشك كان ذلك نفاقاً كما مرَّ.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن استئذانهم في التخلف عن القتال إنما كان ستراً لنفاقهم وتغطية لعصيانهم.. أردف ذلك ببيان المفاسد التي كانت تنجم من خروجهم لو خرجوا وحصرها في أمور ثلاثة:

١ ـ الاضطراب في الرأي وفساد النظام.

٢ ـ تفريق الكلمة بالسعي فيما بينكم بالنميمة.

٣ ـ أنَّ فيكم ناساً من ضعفاء الإيمان، يسمعون كلامهم ويقبلون قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنها سيقت لبيان أقوالٍ قالها المنافقون، بعضها قيلت جهراً، وبعضها أكنوه في أنفسهم، وأعذارٍ سيعتذرون بها غير ما سبق منهم، وشؤونٍ أخرى لهم أكثرها من أنباء الغيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر اعتذار المنافقين بالمعاذير الكاذبة، وتعللاتهم الباطلة في التخلف عن القتال، وذكر ما يجول في نفوسهم من كراهتهم للرسول ﷺ والمؤمنين، وأنهم يتربصون بهم الدوائر.. أردف ذلك ببيان أن نفقاتهم على الجهاد في هذه الحال، طوعاً أو كرهاً، لن يتقبلها الله تعالى، ولا ثواب لهم عليها، لما يبطنونه في صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر الله تعالى، فهم إن فعلوا شيئاً من أركان الدين.. فإنما يفعلونه رئاء الناس، وخوفاً على أنفسهم من الفضيحة إذا هم تركوها، وإن أموالهم الكثيرة إنما هي عذاب لهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ...﴾ الآيتين، مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أن المنافقين يظهرون غير ما يضمرون، فإذا هم طلبوا الإذن خوف الفتنة كانوا كاذبين، وذكر أنهم يتمنون أن تدور الدوائر على المؤمنين.. أردف ذلك بذكر غلوهم في النفاق، وأنهم لا يتحرجون أن يحلفوا الأيمان الفاجرة لستر نفاقهم خوف الفضيحة، وأنهم يتمنون أن يجدوا أي السبل للبعد عن المؤمنين، فيلجؤوا إليها مسرعين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما

قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] ذكر أن المنافقين لا يتحرجون عن كاذب الإيمان إذا وجدوا في ذلك طريقاً لخدعة المؤمنين في تصديقهم بأنهم مؤمنون كما هم مؤمنون، كي يأمنوا جانبهم، وأنهم يجدون في البعد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. أردف ذلك بذكر سوءة أخرى من سوآتهم، وهي: أنهم يتمنون الفرص للطعن على النبي ﷺ، حتى يوقعوا الريب في قلوب ضعفاء الإيمان من المسلك الذي يوافق أهواءهم، وقد وجدوا من ذلك قسمة الصدقات والمغانم، فولجوا هذا الباب، وقالوا ما شاؤوا أن يقولوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] من يعيب الرسول في قسم الصدقات، بأنه يعطي من شاء ويحرم من يشاء، أو يخص أقاربه أو يأخذ لنفسه ما بقي، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون.. بيَّن تعالى مصرف الصدقات، وأنه ﷺ إنما قسم على ما فرضه الله تعالى.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[3]: ما أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك.. قال للجدِّ بن قيس: «يا جُدَّ بن قيس، ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، إني امرؤٌ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أُفْتَتِن، فأْذن لي ولا تفتنِّي، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّىٓ...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، من حديث جابر بن عبد الله، مثله وأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس، أن النبي ﷺ، قال: «اغزوا، تغنموا بنات بني الأصفر». فقال ناس من المنافقين: إنه ليفتنكم بالنساء، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط. (٣) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن جابر بن عبد الله، قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: قال الجدُّ بن قيس: إني إذا رأيت النساء.. لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينك بمالي. قال: ففيه نزلت هذه الآية ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ قال: لقوله: أعينك بمالي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل» قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: «دعه، فإن له أصحاباً، يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ينظر في قذذه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل، إحدى يديه ـ أو قال: ثدييه ـ مثل ثدي المرأة» أو قال: «مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين غفلة من الناس» قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني سمعت من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ، قال: فنزلت فيهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وروى[2] ابن جرير عن داود بن أبي عاصم: قال: أتى النبي ﷺ بصدقةٍ فقسمها ها هنا وها هنا، حتى ذهبت ورأى ذلك رجلٌ من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت هذه الآية.

---

(١) البخاري.

(٢) المراغي.

ومجموع الروايات يدل على أن أشخاصاً من منافقي المدينة قالوا ذلك لحرمانهم من العطية، ولم يقله أحد من المهاجرين، ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبي ﷺ في منى.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ شروع في بيان المفاسد التي تترتب على خروجهم؛ أي: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود ﴿فِيكُمْ﴾؛ أي: في جيشكم وفي جمعكم، وقيل: في بمعنى: مع؛ أي: معكم ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: إلا فساداً وشراً، وأصل الخبال: اضطراب ومرض يؤثر في العقل، كالجنون، والمراد به هنا الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف، قيل: هذا الاستثناء متصل والمستثنى منه محذوف، والمعنى: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، والمتصل ما كان المستثنى فيه من جنس المستثنى منه، فالخبال بعض المستثنى منه المحذوف؛ لأنه داخل في الشيء، وقيل: منقطع، والمعنى: ما زادوكم قوةً ولا شدةً، ولكن خبالاً، وقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ معطوف على ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ والمفعول محذوف؛ أي: ولأسرعوا ركائب نمائمهم وإفساداتهم ﴿خِلَالَكُمْ﴾؛ أي: بينكم.

والمعنى: ولأسرعوا بينكم بالإفساد، بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين، وقال الحسن: معناه: لأسرعوا بالنميمة، وخط في المصحف ﴿ولا أوضعوا﴾ بزيادة الألف؛ لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من تلك الألف أثرٌ في الطباع، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً، وفتحها ألفاً أخرى، ونحوه: أو لا أذبحنه ذكره النسفي.

وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿ما زادكم﴾ بغير واو؛ أي: ما زادكم خروجهم إلا خبالا وفساداً، وقرأ محمد بن القاسم: ﴿لأسرعوا بالفرار﴾ وقرأ مجاهد

(١) البحر المحيط.

ومحمد بن زيد: ﴿ولأوفضوا﴾؛ أي: أسرعوا كقوله: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ وقرأ ابن الزبير: ﴿ولأرفضوا﴾ بالراء من رفض، إذا أسرع في مشيه رفضاً ورفضاناً، والخلال جمع الخلل، وهو الفرجة بين الشيئين، وجملة قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ حال[1] من فاعل أوضعوا؛ أي: ولأسرعوا فيما بينكم، حال كونهم باغين؛ أي: طالبين لكم الفتنة؛ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، وذلك أنهم يقولون للمؤمنين: لقد جمعوا لكم كذا وكذا، ولا طاقة لكم بهم، وإنكم ستهزمون منهم، وسيظرون عليكم، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل.

والمعنى: يطلبون لكم، ما تفتنون به بإلقاء الرعب في قلوبكم، وبإفساد نياتكم، وقيل معناه: يطلبون لكم العيب والشر، وجملة قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ حال إما من مفعول ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أو من فاعله، وجاز ذلك؛ لأن في الجملة ضميريهما، قال مجاهد: يعني وفيكم في خلالكم عيون لهم، يؤدون إليهم أخباركم، وما يسمعون منكم، وهم الجواسيس، فاللام على هذا المعنى للتعليل، وقال قتادة: وفيكم مطيعون لهم، يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم، وذلك؛ لأنهم يلقون إليهم أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب، فيقبلونها منهم، فاللام على هذا المعنى لتقوية التعدية، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

فإن قلت: كيف[2] يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع المنافقين؟

قلتُ: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤساءهم، فإذا قالوا قولاً.. ربما أثر في قلوب ضعفة المؤمنين، في بعض الأحوال. اهـ «خازن».

ومعنى الآية[3]: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود معكم.. ما زادوكم قوة ومنعة وإقداماً كما هو الشأن في القوى المتحدة في العقيدة

---

(١) الفتوحات.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

والمصلحة، بل زادوكم اضطراباً في الرأي، وضعفاً في القتال، ومفسدةً للنظام، كما حدث مثل ذلك في غزوة حنين، فقد ولى المنافقون الأدبار في أول المعركة، وولى على أثرهم ضعفاء الإيمان من طلقاء فتح مكة، ومن ثم اضطرب نظام الجيش، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر وتفكير، كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال، ولأوضعوا؛ أي: ولأسرعوا في الدخول فيما بينكم، سعياً بالنميمة، وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تثبيطكم عن القتال، وتهويل أمر العدو، وإيقاع الرعب في قلوبكم، وفيكم ناس من ضعفاء الإيمان، أو ضعفاء العزم، يسمعون كلامهم، فإذا ألقوا إليهم شيئاً مما يوجب ضعف العزائم.. قبلوه، وفتروا بسببه عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغي.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم علماً يحيط بظواهرهم وبواطنهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر، وبما هم مستعدون له في كل حال مما وقع، ومما لم يقع، فأحكامه فيهم على علم تام، لا ظن فيه ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول ﷺ في الإذن لهم، ولا ينافي[1] حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله ﷺ ما تقدم من عتابه على الإذن لهم في التخلف؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل، فعوتب ﷺ على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب، ولهذا قال الله فيما يأتي في هذه السورة ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ الآية، وقال في سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين.

والخلاصة: أن وجه[2] العتاب على الإذن في قعودهم مع ما قص الله تعالى من المفاسد التي تترتب على خروجهم أنهم لو قعدوا بغير إذن منه.. لظهر نفاقهم

---

(١) الشوكاني.　　(٢) المراغي.

بين المسلمين باديء ذي بدء فلم يستطيعوا مخالطتهم ولا السعي فيما بينهم بالأراجيف وقالة السوء التي يقبح أثرها وتسوء عاقبتها.

والذي تثبته هذه الآية: أن خروجهم شرٌ لا خير فيه، وهو ضعف لا قوةٌ، ولكنه ﷺ لم يكن يعلم أنهم لا يخرجون إذا لم يأذن لهم، فهذا من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله وهو لم يعلمه قبل نزول هذه الآيات.

وقد كان من حكمة الله تعالى في تربية رسوله ﷺ وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده فيها، لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه، فيحرصوا على العمل بها ولا يحكموا أهواءهم فيها، وكذلك كان السلف الصالح يسيرون على نهجه ويهتدون بهديه.

وعزتي وجلالي ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: لقد ابتغى وطلب هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين وتفريق شملهم؛ أي: لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنكم ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين يوم أحد، حين انصرف بأصحابه عنكم، حين اعتزل بثلث الجيش، في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحدٍ، وطفق يقول للناس: أطاع النبي الولدان ومن لا رأي له، فعلام نقتل أنفسنا، وكان من رأيه عدم الخروج إلى أحد، فرجع بمن اتبعه من المنافقين، وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة فيرجعون، ولكن عصمهما الله تعالى من الفتنة.

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾؛ أي: ودبروا لك المكايد والحيل في إبطال دينك ورد أمرك، فكان لهم خوض مع اليهود ومع المشركين في كل ما فعلا من عدواته ﷺ وقتال المؤمنين، وقرأ مسلمة بن محارب[1]: ﴿وقلَبوا﴾ بتخفيف اللام.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ غاية لمحذوف تقديره: واستمروا على تقليب الأمور وتدبير المكايد لك وإثارة الفتنة بين المسلمين وتنفير الناس عن قبول

---

(١) البحر المحيط.

الحق، حتى جاء الحق والنصر الإلهي الذي وعده لك ربك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ظهر دين الله وعلا شرعه وغلب دينه بظهور الأسباب التي تقوي شرع محمد ﷺ، كالتنكيل باليهود الغادرين الناكثين للعهود، والنصر على المشركين بفتح مكة، ودخول الناس في الإسلام أفواجاً ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؛ أي: والحال، أنهم كارهون لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم أنف منهم.

وفي الآيتين[1] تسليةٌ لرسوله ﷺ والمؤمنين على تخلف المنافقين، وبيان ما ثبطهم الله تعالى، لأجله، وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم، تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن، ولذلك عوتب عليه. ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك يا محمد ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود في المدينة ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾؛ أي: ولا توقعني في الفتنة؛ أي: في العصيان والمخالفة، بأن لا تأذن لي فإنك إن منعتني من القعود، وقعدت بغير إذنك.. وقعت في الإثم، وقيل معناه: لا توقعني في الهلكة بالخروج، وقيل معناه أي: ومن المنافقين ناسٌ يستأذنوك في التخلف عن القتال، حتى لا يفتنوا بنساء الروم، روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: لجد بن قيس: يا جد، هل لك في جلاد بني الأصفر؛ أي: في جهاد ملوك الروم، قال الجد: يا رسول الله، قد علمت الأنصار أنى مغرم بالنساء، فلا تفتني ببنات بني الأصفر، وإني أخشى إن رأيتهن.. أن لا أصبر عنهم، ولكني أعينك بمالي، فقال رسول الله ﷺ، وهو معرضٌ عنه: «قد أذنت لك» فنزلت الآية، كما سبق في مبحث الأسباب، وبنو الأصفر هم أولاد الأصفر بن روم بن عيصو بن إسحاق، أو لأن جيشاً من الحبشة غلب عليهم، فوطىء نساءهم فولد لهم أولادٌ صفر، اهـ «قاموس».

---

(١) الخازن م.

وقد ردَّ الله شبهته وشبهة من وافقه عليها، بقوله: ﴿أَلَا﴾؛ أي: انتهبوا أيها المخاطبون ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ العظيمة، وهي فتنة التخلف عن الجهاد، والاعتذار الباطل، ﴿سَقَطُواْ﴾؛ أي: وقعوا.

والمعنى[1]: أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة، فإن أعظم أنواع الفتن الكفر بالله ورسوله، والتمرد عن قبول التكليف؛ أي[2]: فليعلموا أنهم بمقالتهم هذه سقطوا، وتردوا في هاوية الفتنة، حيث اعتذروا بالمعاذير الكاذبة، من حيث يزعمون إتقاء التعرض للإثم، ثم بالنظر إلى جمال نساء الروم، وشغل القلب بمحاسنهم، وفي التعبير[3] بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة.

وقرأ ورشٌ[4]: بتخفيف همزة ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ بإبدالها واواً لضمة ما قبلها، وقال النحاس ما معناه: إذا دخلت الواو أو الفاء على إئذن، فهجاؤها في الخط ألف وذال، ونون بغير ياء، أو ثم فالهجاء ألف وياء وذال ونون، والفرق: أن ثم يوقف عليها، وتنفصل بخلافهما، وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ولا تُفتني﴾ بضم التاء الأولى من أفتن، الرباعي، قال أبو حاتم: هي: لغة تميم، وهي أيضاً قراءة ابن السميقع، ونسبها ابن مجاهد إلى إسماعيل المكي، وجمع الشاعر بين اللغتين فقال:

لَئِنْ فَتَنَتْنِيْ فَهِيَ بِٱلأَمْسِ أَفْتَنَتْ سَعِيْداً فَأَمْسَىٰ قَدْ قَلاَ كُلَّ مُسْلِمِ

وقرىء[5]: ﴿سقط﴾؛ أي: مراعاة للفظ من.

ثم توعدهم على ذلك، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مشتملة عليهم من جميع الجوانب، لا يجدون عنها مخلصاً، ولا يتمكنون من

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.
(٤) البحر المحيط.
(٥) أبو السعود.

الخروج منها بحال من الأحوال.

أي: وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله، وجحد آياته وكذب رسله، جامعةٌ لهم يوم القيامة، وكفى بها نكالاً ووبالاً. وهذا وعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها، وبيانٌ بأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار، وإنما تحيط النار بمن أحاطت بهم خطاياهم، حتى لا رجاء في توبتهم منها، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا محمد في بعض الغزوات، كيوم بدر ﴿حَسَنَةٌ﴾ من ظفر أو غنيمةٍ أو انقياد بعض ملوك الأطراف ﴿تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي: تحزنهم لشدة عداوتهم لك، والحسنة: كل ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوهما؛ أي: إن كل ما يسرك من النصر والغنيمة، كما حدث يوم بدر يورثهم كآبة وحزناً لفرط حسدهم وشدة عدواتهم، ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿مُصِيبَةٌ﴾؛ أي: شدة، وإن صغرت كانكسار جيش وهزيمة كما حدث يوم أحد ﴿يَقُولُوا۟﴾ معجبين بآرائهم حامدين ما صنعوا ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾؛ أي: أخذنا حذرنا وعملنا بالحزم، ولزمنا بالاحتياط حين اعتزلنا عن المسلمين، وتخلفنا عن الخروج معهم للقتال، وجاملنا مع الكفرة ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذه المصيبة، ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك.

والمعنى: احتطنا لأنفسنا، وأخذنا بالحزم، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم من المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾؛ أي: وينصرفوا ويرجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث التي يقولون فيها هذا القول، أو يعرضوا عن النبي ﷺ، ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فرح البطر والشماتة، ومسروررون بما أصابك من المصيبة وبسلامتهم منها.

فإن قلت: لم قابل الله هنا الحسنة بالمصيبة، ولم يقابلها بالسيئة، كما قال: في سورة آل عمران ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟﴾؟

قلت: لأن الخطاب هنا للنبي ﷺ، وهي في حقه مصيبة يثاب عليها، لا

سيئة يعاتب عليها، والتي في آل عمران خطاب للمؤمنين اهـ «شهاب».

ثُمَّ لما قالوا هذا القول.. أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيب عليهم بقوله: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين، الذين يفرحون بمصائبك ويحزنون بمسارك بياناً، لبطلان اعتقادهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ أي: إلا ما خط لنا، وكتب علينا في اللوح المحفوظ، بحسب سننه تعالى في خلقه، من نصر وغنيمة، أو تمحيص وشهادة، ولا يتغير ذلك بموافقتكم أو مخالفتكم، فالأمور كلها بقضائه تعالى.

والمعنى: لن يصيبنا، ولن يحصل لنا خيرٌ ولا رخاء، ولا أمن، ولن يقع علينا شر ولا شدة ولا خوف، إلا وهو مقدر لنا، مكتوب علينا عند الله سبحانه وتعالى، فإذا صرنا مغلوبين صرنا مستحقين للأجر العظيم، وإن صرنا غالبين صرنا مستحقين للثواب في الآخرة، وفزنا بالمال الكثير والثناء الجميل في الدنيا ﴿هُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: ناصرنا ومتولي أمورنا بتوفيقنا ونصرنا، وجاعل العاقبة لنا، ومظهر دينه على جميع الأديان ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون، وليتقوا به؛ أي: فنحن نتوكل عليه ونلتجأ إليه، فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمةٍ.

ومن حق[1] المتوكل على الله وحده أن يقوم بما أوجبه عليه في شرعه، ويهتدي بسننه في خلقه، من الأخذ بأسباب النصر المادّية والمعنوية، كإعداد العدة، وإتقاء التنازع الذي يولد الفشل ويفرق الكلمة، ثم بعد ذلك يكل الأمر إلى الله فيما لا تصل إليه الأيدي من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح.

ويقابل التوكل بهذا المعنى إتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها، حتىٰ إذا أدركهم العجز خانهم الصبر، وأدركهم اليأس، حين حلول البأس واتكال ذوي الأوهام الذين يتعلقون بالأماني والأحكام حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم.. نكصوا على أعقابهم، وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين، وهو إنما

---

(١) أبو السعود.

وعد أولياءه لا أولياء الشيطان وذوي الخرافات والأوهام وقرأ[1] ابن مسعود، وابن مصرف: ﴿هل يصيبا﴾ مكان ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ وقرأ ابن مصرف أيضاً، وأَعْيَنُ قاضي الري: ﴿هل يصيبنا﴾ بتشديد الياء، وهو مضارع فَيْعَلَ، نحو: بيطر، لا مضارع فَعَّلَ، إذ لو كان كذلك لكان صوب مضعف العين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ وتنتظرون ﴿بِنَآ﴾ أيها الجاهلون ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين الحسنتين، إما النصرة، أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، فالنصرة مآلها إلى الغلبة والاستيلاء، والشهادة مآلها إلى الجنة، والحسنى: تأنيث الأحسن، والاستفهام[2] فيه للتقريع والتوبيخ مع الإنكار؛ أي: ما تنتظرون بنا إلا إحدى الحالتين الشريفتين، النصر أو الشهادة، وذلك لأن[3] المسلم إذا ذهب إلى الغزو، فإن صار مغلوباً مقتولاً.. فاز بالاسم الحسن في الدنيا، وهي الرجولية والشوكة، وبالثواب العظيم الذي أعده الله للشهداء في الآخرة، وإن صار غالباً.. فاز في الدنيا بالمال الحلال، والاسم الجميل، وفي الآخرة بالثواب العظيم، وقرأ البزي وابن فليح: ﴿هل تربصون﴾ بإظهار اللام، وتشديد التاء، وقرأ الكوفيون: بإدغام اللام في التاء، وقرأ الباقون: بإظهار اللام، وتخفيف التاء، ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر المؤمنين ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِكُمْ﴾ أيها المنافقون إحدى السوأتين؛ أي: إحدى الحالتين الخسيستين، إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾؛ أي: بقارعة سماوية، لا كسب لنا فيها، كما فعل بالأمم المكذبة لرسلها، كأن ينزل عليكم صاعقةً من السماء، كما نزلت على عاد وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر؛ أي: أو أن يأذن لنا بقتالكم إن أغراكم الشيطان بإظهار كفركم؛ أي: إنَّ[4] المنافق إذا قعد فيه بيته.. كان مذموماً منسوباً إلى الجبن وضعف القلب، والرضا بأمر يشاركه فيه النسوان والصبيان والعاجزون، ثم يكون أبداً خائفاً على نفسه وولده وماله، وإن إذن الله في قتله.. وقع في القتل والأسر والنهب مع

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراح.

(٤) المراح.

الذل، وإن مات.. انتقل إلى العذاب الدائم في الآخرة.

والمعنى: أو يصيبكم بأيدي المؤمنين، بأن يظفرنا بكم، ويظهرنا عليكم، وقرأ ابن محيصن[1]: ﴿إلا حدى﴾ بإسقاط الهمزة، قال ابن عطية: فوصل ألف إحدى، وهذه لغة، وليست بالقياس، وهذا نحو قول الشاعر:

يَـابَـا ٱلْـمُـغِـيْـرَةِ رُبَّ أَمْـرٍ مُـعْـضَـلِ

وقول الآخر:

إِنْ لَـمْ أُقَـاتِـلْ فَـٱلْـبِـسَـنِّـيْ بُـرْقُـعَـا

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا إحدى الحالتين الشريفتين ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ أي: منتظرون وقوعكم في إحدى الحالتين الخسيستين، وقال الحسن[2]: فتربصوا مواعيد الشيطان، إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

والمعنى: فتربصوا بنا إنا معكم متربصون من عاقبتنا وعاقبتكم، إن أصررتم على كفركم، وظهر أمركم، فنحن على بينة من ربنا، ولا بينة لكم، فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا، والدين لا يأمر بقتل المنافق ما دام يظهر الإسلام، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين القائلين: ذرونا نكن مع القاعدين، ونعينكم بالأموال، كالجد بن قيس وأشباهه حين قال للنبي ﷺ: إئذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، كما مر في مبحث الأسباب.

﴿أَنفِقُواْ﴾ أموالكم ﴿طَوْعًا﴾ واختياراً؛ أي: من غير إلزام من الله ورسوله ﴿أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: إلزاماً، منهما وسمى[3] الإلرام إكراهاً؛ لأن إلزام المنافقين بالإنفاق كان شاقاً عليهم كالإكراه.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.

والمعنى[1]: أنفقوا طائعين، من قبل أنفسكم أو مكرهين بالإنفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ﴾ ذلك الإنفاق؛ لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله، وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين.. فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله، بل أنفقه رياء وسمعة، فإنه لا يقبل منه.

وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي النساء والأحقاف[2]: ﴿كرها﴾ بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في الأحقاف: بالضم، من المشقة، وفي النساء والتوبة: بالفتح، من الإكراه، والباقون: بفتح الكاف في جميع ذلك.

وقال الشوكاني قوله: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء؛ لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين.. فلن يتقبل منكم، وقيل: هو أمر في معنى الخبر؛ أي: أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم، فهو كقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول.

وجملة قوله: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم، والفسق: التمرد والعتوُّ، والمراد به هنا: الكفر؛ أي: لأنكم كنتم قوما منافقين؛ أي: كافرين في الباطن.

وخلاصة معنى الآية: قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين: أنفقوا من أموالكم ما شئتم في الجهاد، أو في غيره من النفقات التي أمر الله بها وحث في شرعه عليها حال التطوع تقيةً وحفظاً للنفس وكرهاً وخوفاً من العقوبة، فمهما أنفقتم فلن يتقبل منكم ما دمتم في شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة، لأنكم قوم فاسقون؛ أي: خارجون من دائرة الإيمان، والله إنما يتقبل من المؤمنين.

ثم بين سبحانه وتعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾؛ أي: وما منع هؤلاء المنافقين قبول نفقاتهم ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ

---

(١) المراح. (٢) الخازن.

﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: إلا كفرهم بالله وبرسوله ﷺ، والاستثناء[1] من أعم الأشياء؛ أي: ما منعهم قبول نفقاتهم شيءٌ من الأشياء إلا كفرهم و﴿ما﴾ عطف عليه.

وقرأ حمزة والكسائي وزيد بن علي[2]: ﴿أنْ يُقْبل﴾ بالياء، وباقي السبعة: بالتاء، و﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾ بالجمع، وزيد بن علي بالإفراد، وقرأ الأعرج بخلاف عنه: ﴿أن تقبل﴾ بالتاء، من فوق نفقتهم بالإفراد، وفي هذه القراءات، الفعل مبني للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿أن نَقْبَل منهم نفقتهم﴾ بالنون ونصب النفقة، وقال الزمخشري: وقراءة السلمي: ﴿أن نقبل منهم نفقاتهم﴾ على أن الفعل لله تعالى. انتهى.

والمعنى: أي وما منع[3] قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق، وكفرهم برسالة رسوله، وما جاء به من الهدى والبينات ﴿و﴾ إلا أنهم ﴿لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾؛ أي: وإلا عدم إتيانهم مواضع فعل الصلاة ومساجدها إلا وهم كسالى، جمع كسلان؛ أي: متثاقلون في الإتيان إلى الصلاة، وذلك؛ لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً، فلذلك ذمهم مع فعلها، والمعنى: ولا يصلون إلا رياء وتقية، لا إيماناً بوجوبها، ولا قصداً إلى ثوابها واحتساباً لأجرها، ولا تكميلاً لأنفسهم بما شرعه الله تعالى، لأجلها لأنها لا يأتونها إلا وهم متثاقلون كسالى، لا تنشرح لها نفوسهم، ولا تنشط لها أبدانهم، ﴿و﴾ إلا أنهم ﴿لا ينفقون﴾ أموالهم في مصالح الجهاد وغيره ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لذلك الإنفاق غير طيبة به أنفسهم، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم تضرب عليهم ينتفع بها المؤمنون، وهم ليسوا منهم، فلا نفع لهم بما أنفقوا لا في الدنيا - وهو واضح - ولا في الآخرة، إذ لا يؤمنون بها.

والحاصل: أنه جعل[4] المانع من القبول، ثلاثة أمور:

(١) أبو السعود.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

الأول: الكفر.

والثاني: أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل والتثاقل؛ لأنهم لا يرجون ثواباً، ولا يخافون عقاباً، فصلاتهم ليست إلا رياءً للناس، وتظهراً بالإسلام الذي يبطنون خلافه.

والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون، ولا ينفقونها طوعاً؛ لأنهم يعدون إنفاقها وضعاً لها في مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله.

وعبارة «زاده»: أي[1] ما منعهم قبول نفقتهم إلا كفرهم وكسلهم في إتيان الصلاة، وكونهم كارهين الإنفاق. انتهت.

فإن قيل[2]: الكفر سبب مستقل، لعدم القبول، فما وجه التعليل بمجموع الأمور الثلاثة، وعند حصول السبب المستقل، لا يبقى لغيره أثر؟

قلنا: أجاب الإمام بأنه إنما يتوجه على قول المعتزلة، القائلين: بأن العلل مؤثرة في الحكم، وأما أهل السنة، فإنهم يقولون هذه الأسباب معرفةٌ غير موجبة للثواب ولا للعقاب، واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائزٌ. اهـ **«شهاب»**.

والخطاب في قوله: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ يا محمد ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾؛ أي: كثرة أموالهم ﴿ولا أولادهم﴾؛ أي: ولا كثرة أولادهم، الخطاب للنبي ﷺ، ولكن المراد جميع المؤمنين، والسامعين، أي فلا تعجبك أيها السامع كثرة أموالهم ولا أولادهم التي هي من أكبر النعم وأجلها ولا يجولن بخاطرك أنهم قد صفا لهم، نعيمها في الدنيا، وقد حرموا ثوابها في الآخرة، فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾؛ أي: بتلك الأموال والأولاد ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما يحصل لهم من الغم والحزن، عندئذٍ

---

(١) زاده.

(٢) الشهاب.

يغنمها المسلمون، ويأخذوها قسراً من أيديهم، مع كونها زينة حياتهم، وقرة أعينهم، وكذا في الآخرة، يعذبهم بعذاب النار، بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يحق التصدق به.

وقيل[1]: إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا: هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما، فإذا حصلا، ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما، ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما، فعلى هذا القول لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية، وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصلٌ لكل أحد من بني آدم، مؤمنهم وكافرهم، فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا؟

وأجيب عن هذا الإيراد: بأنَّ المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا التعذيب، وهو أنَّ المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة، وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا، فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا، وأما المنافق.. فإنه لا يعتقد كون الآخرة له، وأنه ليس له فيها ثواب، فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة، والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا، فثبت بهذا الاعتبار أنَّ المال والولد، عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين.

وقال مجاهد وقتادة[2]: في الآية تقديم وتأخير، تقديرها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة؛ لأنهم منافقون، فهم ينفقون كارهين، فيعذبون بما ينفقون ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: ويريد الله سبحانه وتعالى، أن تخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم كافرون، لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء، وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة، فيعذبون بها في الآخرة إثر ما عذبوا بها في الدنيا، لموتهم على الكفر الذي يحبط أعمالهم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: ويحلف هؤلاء المنافقون بالله للمؤمنين كذباً إذا جالسوهم ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾؛ أي: لمن جملتكم في الدين، والملة، والانقياد لرسول الله ﷺ ولكتاب الله سبحانه ﴿وَمَا هُم﴾؛ أي: والحال أنهم ليسوا ﴿مِّنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم، دون بواطنهم؛ أي: ليسوا من أهل ملتكم ودينكم بل هم أهل شك ونفاق ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾؛ أي: يخافونكم، فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ أي: يخافون أن ينزل بهم، ما نزل بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون لكم الإسلام، ويحلفون لكم تقيةً منكم، لا عن حقيقة ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾؛ أي: لو وجد هؤلاء المنافقون ﴿مَلْجَـًٔا﴾؛ أي مهرباً وحرزاً، يلتجؤون إليه، ويحفظون فيه نفوسهم، تحصناً منكم، من رأس جبل أو قلعه أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ جمع مغارة، بمعنى: غار؛ أي: كهوفاً في الجبل، يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾؛ أي: مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات؛ أي: سرباً تحت الأرض يندسون ويختفون فيه منكم كالآبار، وأنفاق اليربوع، وقوله: أو مغارات أو مدخلاً من عطف الخاص على العام، لدخولهما في الملجأ ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لالتجؤوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه؛ أي: لو حصلوا واحداً من هذه الثلاثة، لولَّوا إليه؛ أي لصرفوا وجوههم ورجعوا إليه؛ أي: إلى أحد هذه الوجوه الثلاثة، التي هي شرُّ الأمكنة ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أنهم ﴿يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون إليه إسراعا لا يرد وجوههم عنه شيء، لشدة تأذيهم من الرسول، ومن المؤمنين من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام، والمعنى: لو[1] وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة، لولَّوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين.

والخلاصة:[2] أنهم لشدة كرههم للقتال معكم، ولبغض معاشرتهم إياكم ولعظيم الخوف من ظهور نفاقهم لكم، يتمنون الفرار منكم، والعيش في مكان يعتصمون به من انتقامكم منهم، حتى لو استطاعوا السكنى في الحصون والقلاع، أو في كهوف الجبال ومغاراتها، أو في أنفاق الأرض وأسرابها.. لولَّوا إليه

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

مسرعين، كالفرس الجموح، لا يردهم شيء عن ذلك.

وإنما وصفهم الله سبحانه وتعالى بتلك الأوصاف، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ مع كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم؛ لأنهم كانوا بين عشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، ولم يقدروا على ترك ذلك وفراقه، فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإخفاء الكفر، ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ، ولأهل الإيمان به، وبالغ الحقد عليهم.

وعبارة «زاده» هنا: أي إنهم[1] وإن كانوا يحلفون لكم أنهم منكم، إلا أنهم كاذبون في ذلك وإنما يحلفون خوفاً من القتل، ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى بعض الحصون والغيران، والسروب التي تحت الأرض، لدخلوه تستراً عنكم واستكراهاً لرؤيتكم ولقائكم، انتهت.

وقرأ الجمهور: ﴿مُدَّخلا﴾ وأصله مدتخل، مفتعل، من ادَّخل، وهو بناء تأكيد ومبالغةٍ، ومعناه: السرب والنفق في الأرض كما مر وقال النحاس: الأصل فيه متدخلٌ، قلبت التاء دالاً، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ومسلمة بن محارب وابن محيصن ويعقوب وابن كثير بخلاف عنه ﴿مَدْخَلا﴾ بفتح الميم من دخل الثلاثي. وقرأ محبوب عن الحسن: ﴿مُدْخَلاً﴾ بضم الميم من أدخل الرباعي، وروي ذلك عن الأعمش وعيسى بن عمر، وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش ﴿مُدَّخَّلاً﴾ بتشديد الدال والخاء معا، أصله متدخَّلٌ، فأدغمت التاء في الدال وقرأ أُبيٌّ ﴿مُنْدَخلاً﴾ بالنون من إنْدخَل، وقال أبو حاتم قراءة أُبيٍّ ﴿مُتْدَخَّلاً﴾ بالتاء وقرأ الأشهب العقيلي ﴿لوالوا إليه﴾؛ أي: لتابعوا إليه، وسارعوا، وروى ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نوفل، عن أبيه عن جده، وكانت له صحبةٌ أنه قرأ: ﴿لوالوا إليه﴾ من الموالاة، وأنكرها سعيد بن مسلم، وقال: أظنها ﴿لَوألوا﴾ بمعنى للجؤوا إليه، وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي: وهذا مما جاء فيه

---

(١) زاده.

فاعل وفعل بمعنى واحد، ومثله ضاعف وضعف، انتهى. وقال الزمخشري: وقرأ أبيٌّ ﴿متدخلاً لوألوا إليه﴾؛ أي: لاالتجؤوا إليه، انتهى، وعن أبيّ ﴿لَولَّوا وجوههم إليه﴾ وقرأ أنس بن مالك والأعمش ﴿وهم يَجْمَزون﴾ قيل: يجمحون ويجمزون ويشدون واحدٌ، وقال ابن عطية يجمزون يُهَرْولون، ومنه قولهم في حديث الرجم: «فلما أذلقته الحجارة جمز».

ولَّما[1] كان العطف بـ ﴿أو﴾ عاد الضمير إليه مفرداً، على قاعدة النحو في ﴿أوْ﴾ فاحتمل من حيث الصناعة أن يعود على الملجأ، أو على المدخل، فلا يحتمل في الظاهر أن يعود على المغارات لتذكيره، وأما بالتأويل فيجوز أن يعود عليها.

ثم شرع سبحانه وتعالى في ذكر نوع آخر من قبائحهم فقال: ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يا محمد ويعيبك سرًّا ويطعن عليك ﴿فِى﴾ قسمة ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ والزكوات المفروضة بين الناس إذ يزعمون أنك تحابى فيها، وتؤتي من تشاء من الأقارب وأهل المودة، ولا تراعي العدل في ذلك، قيل: وفر الرسول ﷺ قسم أهل مكة في الغنائم استعطافاً لقلوبهم، فضجَّ المنافقون. وقرأ الجمهور: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم مخففة، وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة، عن ابن كثير والحسن: وأبو رجاء وغيرهم: بضمها، وهي قراءة المكيِّين، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ الأعمش: ﴿يُلَمِّزكُ﴾، بالتشديد، وروى أيضاً حماد بن سلمة، عن ابن كثير: ﴿يلامزك﴾ وهي مفاعلة من واحدٍ، ثم بيَّن سبحانه أسباب هذا اللَّمْز، وأن منشأه حرصهم على حطام الدنيا، فقال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ﴾؛ أي: فإن أعطي هؤلاء اللامزون ﴿مِنْهَا﴾؛ أي: من الصدقات، قدر ما يريدون في الكثرة، ولو بغير حق، كأن أظهروا الفقر كذباً واحتيالاً ﴿رَضُواْ﴾ بما وقع من رسول الله ﷺ، ولم يعيِّبوه، واستحسنوا قسمته، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا، وليسوا من الدين في شيء ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾؛ أي: من الصدقات

---

(١) البحر المحيط.

ما يريدونه ويطلبونه ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾؛ أي: فاجئوك بالسخط، وبادروك بالغضب واللمز، وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء، إذ لا هَمَّ لهم، إلا المنفعة الدنيوية، ونيل حطام الدنيا. وفائدة إذا الفجائية إفادة أنَّ الشرط مفاجيء للجزاء، وهاجمٌ عليه، وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء على حد قوله:

وَتَـخْـلُـفُ ٱلْـفَـاءَ إِذَا ٱلْـمُـفَـاجَـأَهْ

والأصل فهم يسخطون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما أعطاهم الله تعالى من الغنائم وغيرها، وذكر[1] الله للتعظيم والتنبيه على أنَّ مافعله الرسول، كان بأمره تعالى، والأصل ما أتاهم الله ﴿و﴾ أعطاهم ﴿رسوله﴾ ﷺ، بقسمة الغنائم والصدقت، كما أمره الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا الله في كل حال ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: وسيعطينا الله سبحانه ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه بما يرد علينا من الغنائم والصدقات ﴿و﴾ يقسم لنا ﴿رسوله﴾ على وفق ما أمره الله تعالى به، لا يبخس أحداً منَّا شيئاً يستحقه في شرع الله، وقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَى﴾ فضل ﴿ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ وفي رزقه طامعون، أي: وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم، والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم، أي: لو فعلوا ذلك المذكور.. لكان خيراً لهم من الطمع في غير مطمع، ومن همز الرسول ولمزه.

والخلاصة[2]: أنهم لو رضوا من الله نعمته، ومن الرسول قسمته، وعلقوا أملهم بفضل الله وكفايته، وبما سينعم به عليهم في مستأنف الأيام، وبأن الرسول يعدل في القسمة.. لكان في ذلك الخير كل الخير لهم.

وفي ذلك إيماءٌ إلى أن المؤمن يجب أن يكون قانعاً بكسبه، وما يناله بحق من صدقة ونحوها، مع توجيه قلبه إلى ربه، ولا يرغب إلا إليه في الحصول على

---

(١) أبو السعود. (٢) المراغي.

رغائبه التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية.

ولمَّا لمز[1] المنافقون رسول الله ﷺ وعابوه في قسم الصدقات.. بيَّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية، أن المستقحين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية، ومصرفها إليهم، ولا تعلق لرسول الله ﷺ منها بشيءٍ، ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً، فلم يلمزونه ويعيبون عليه؟ فلا مطعن لهم فيه، بسبب قسم الصدقات، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ أي: إنما الزكوات الواجبة مصروفةٌ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وما عطف عليه من سائر الأصناف السبعة، وإنما أداة حصرٍ، وتعريف الصدقات للجنس؛ أي: جنس هذه الصدقات مقصورٌ على هذه الأصناف المذكورة، لا يتجاوزها، بل هي لهم لا لغيرهم، وقد اختلف العلماء، هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة؟ فذهب إلى الأول: الشافعي وجماعةٌ من أهل العلم، وذهب إلى الثاني: مالك وأبو حنيفة، وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم.

الأول منها: الفقراء، جمع فقير وهو[2] من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، بأن لم يكن له مالٌ ولا كسبٌ أصلاً، أوْ كانا له ولا يقعا موقعاً من كفايته، كمن يحتاج إلى عشرة، وكان عنده أربعة وما دونها، مأخوذ من الفقار، كأنه أصيب في فقاره، وهو أسو حالاً من المسكين.

وثانيهما: ما ذكره بقوله ﴿و﴾ مصروفة لـ ﴿المساكين﴾ جمع مسكين، والمسكين: من له مال، أو كسب، يقع موقعاً من كفايته ولا يكفيه تمام حاجته، كمن يحتاج إلى عشرة وعنده خمسةٌ، أو ما فوقها إلى تسعة، ومعنى وقوعه موقعاً من كفايته: أن يسد نصف حاجته، وما فوقه دون تمامها، مأخوذٌ من السكون، كأنَّ العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ وأنه عليه السلام كان يسأل المسكنة، ويتعوذ من الفقر، وقيل: بالعكس، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

---

(١) البيضاوي بزياده.

(٢) الشوكاني.

والأولى في بيان ماهية المسكين[1]: ما ثبت عن رسول الله ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

والصنف الثالث: ما ذكره بقوله ﴿و﴾ مصروفةٌ لـ ﴿العاملين عليها﴾؛ أي: على الصدقات من جابٍ وقاسم وكاتب وحاشر، وهم[2] السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها، ووضعها في جهتها، فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، هذا قول ابن عمر، وبه قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك: يعطون الثمن من الصدقات، وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أنَّ الشافعي، يقول: هو أجرة عمل، تتقدر بقدر العمل، والصحيح أن الهاشمي والمطلبيَّ لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات، لما روي عن أبي رافع أنَّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من بني مخزوم على الصدقات، فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم منهم». أخرجه الترمذي والنسائي.

والصنف الرابع: ما ذكره بقوله ﴿و﴾ مصروفةٌ لـ﴿المؤلفة قلوبهم﴾؛ أي: ومصروفةٌ لأقوام ضعفاء النية في الإسلام، فتستألف قلوبهم على الإسلام بإعطائهم من الزكاة، والمؤلفة: هم قوم يراد استمالتهم إلى الإسلام، أو تثبيتهم فيه، أو كف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم في الدفاع عنهم، أو نصرهم على عدوٍّ لهم، فأقسامها كثيرة مذكورة في كتب الفروع.

تنبيهٌ: [3] وإنما أضاف في الآية الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك، وإلى الأربعة الأخيرة بفي الظرفية، للإشعار بإطلاق الملك في

---

(١) الخازن.

(٢) الخازن.

(٣) الفتوحات.

الأربعة الأولى، وتقييده في الأربعة الأخيرة بما إذا صرفت في مصارفها المذكورة، فإذا لم يحصل الصرف في مصارفها، استرجعت بخلافه في الأولى، كما هو مقرر في الفقه.

والصنف الخامس: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفة ﴿في﴾ فك ﴿ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: الأرقاء من الرق. فهو معطوف على قوله ﴿للفقراء﴾؛ أي فسهمهم مصروف في المكاتبين، ليستعينوا به في أداء النجوم، فيعتقوا كما هو مذهب الشافعي والليث بن سعد، أو مصروفٌ في عتق الرقاب، يشترى به عبيدٌ فيعتقون، كما هو مذهب مالك وأحمد وإسحاق، وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان، نصف للمكاتبين من المسلمين، ونصف يشترى به رقاب ممَّن صلوا وصاموا، وقدم إسلامهم، فيعتقون من الزكاة.

والصنف السادس: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفةٌ في فك ﴿الغارمين﴾ والمديونين في طاعة الله، من أسر الديون، مأخوذ من الغرم، وهو في اللغة: لزوم ما يشق على النفس، وسمي الدَّين غرماً، لكونه شاقاً على الإنسان، والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان:

قسم ادَّانوا لأنفسهم في غير معصية، فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مالٌ يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاء.. فلا يعطون.

وقسم ادَّانوا في المعروف وإصلاح ذات البين، فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء. أما من استدان في معصية فلا يعطىٰ من الصدقات شيئاً.

والصنف السابع: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفةٌ ﴿في سبيل الله﴾ وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ومثوبته، والمراد به الغزاة، والمرابطون للجهاد، فيعطون من الصدقات ما ينفقون في غزوهم ومرابطتهم، وإن كانوا أغنياء، وهذا قول أكثر العلماء، والحق: أن المراد بسبيل الله، مصالح المسلمين العامة، التي بها قوام أمر الدين والدولة، دون الأفراد، كتأمين طرق الحج، وتوفير الماء والغذاء، وأسباب الصحة للحجاج، إن لم يوجد مصرف آخر، وليس منها حج

الإفراد؛ لأنه واجب على المستطيع فحسب، ويدخل في ذلك جميع وجوه الخير، من تكفين الموتى، وبناء الجسور، والحصون، وعمارة المساجد، ونحو ذلك.

والصنف الثامن: ما ذكره بقوله: ﴿و﴾ مصروفةٌ في معونة ﴿ابن السبيل﴾ والسبيل الطريق، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها، وهو المنقطع عن بلدة في سفر غير المعصية، لا يتيسَّر له فيه شيء من ماله، إن كان له مال، فهو غنيٌّ في بلده، فقير في سفره، فيعطىٰ لفقره العارض ما يستعين به على العودة إلى بلده، وفي ذلك عناية بالسياحة، وتشجيع عليها، على شرط أن يكون سفره في غير معصية، ويكون هذا من أسباب التعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وسهولة طرق الوصول في العصر الحاضر، ونقل الأخبار في الزمن القليل، جعلت نقل المال من بلد إلى آخر ميسوراً بلا كلفة، فيسهل على الغني في بلده أن يجلب ماله في أي وقتٍ أراد وإلى أي مكان طلب، فلا يعطى حينئذٍ من الصدقات، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة؛ لأن معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ فرض الله سبحانه وتعالى، صرف الصدقات لهؤلاء الأصناف المذكورة، فريضةً كائنةً منه؛ أي: محتمةٌ عنده.

والمعنى: أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف، هو حكم لازم، فرضه الله على عباده، ونهاهم عن مجاوزته، أو حال من الضمير المستكن في الخبر، والتقدير: إنما الصدقات مصروفةٌ هي لهؤلاء الأصناف المذكورة حالة كونها فريضةً من الله سبحانه وتعالى، وقرىء: ﴿فريضة﴾ بالرفع على معنى: تلك الصدقات فريضة من الله تعالى، يعني: أنَّ هذه الأحكام التي ذكرها في هذه الآية فريضةٌ واجبةٌ من الله تعالى، ويجوز قطعه إلى النصب؛ أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده، وبأحوالهم وبحوائجهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه ودبَّره لهم، تطهيراً لأنفسهم وتزكية لها، وشكراً لخالقهم على ما أنعم به عليهم، كما قال ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ لا

يدخل في تدبيره وشرعه نقصٌ ولا خللٌ.

فصل في بيان حكمة إيجاب الزكاة على الأغنياء، وصرفها إلى المحتاجين من الناس[1]

ذكروا في بيان حكمتها ستة أوجه:

الوجه الأول: أن المال محبوب بالطبع، وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال، وصفة الكمال محبوبة لذاتها، والمال سبب لتحصيل تلك القدرة، فكان المال محبوباً بالطبع، فإذا استغرق القلب في حب المال.. اشتغل به عن حب الله عز وجل، وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل، فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال، الذي هو سبب البعد عن الله، فيصير سبباً للقرب من الله عز وجل، بإخراج الزكاة منه.

الوجه الثاني: أنَّ كثرة المال توجب قسوة القلب، وحبَّ الدنيا، والميل إلى شهواتها ولذاتها، فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة، ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب.

الوجه الثالث: سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن؛ لأنَّ التكاليف البدنية غير شاقة على العبد، وإخراج المال شاق على النفس، فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد، ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال، ليميز بذلك المطيع المخرج لها طيبةً بها نفسه من العاصي المانع لها.

الوجه الرابع: أنَّ المال مال الله، والأغنياء خزان الله، والفقراء عيال الله، فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم الأغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله، فيثيب العبد المؤمن المطيع، المسارع إلى امتثال الأمر المشفق على عياله، ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ، قال: «إن الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ـ وربما قال: يعطي ـ ما

---

(١) الخازن.

أمر به، فيعطيه كاملاً موفراً، طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين» متفق عليه.

الوجه الخامس: أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال، التي بأيدي الأغنياء، فأوجب الله عز وجل نصيباً للفقراء في ذلك المال تطييباً لقلوبهم.

الوجه السادس: أنَّ المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك.. بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال، فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء، حتى لا يصير ذلك المال معطلاً بالكلية.

الإعراب

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾.

﴿لَوْ﴾ حرف شرط ﴿خَرَجُوا﴾: فعل وفاعل والجملة فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿فِيكُم﴾ متعلق بـ ﴿خَرَجُوا﴾ أو حال من فاعله تقديره: لو خرجوا حال كونهم مصاحبين لكم ﴿مَّا﴾ نافية ﴿زَادُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿خَبَالًا﴾ مفعول ثان لـ ﴿زادوا﴾ ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ ﴿أوضعوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿زَادُوكُمْ﴾ ﴿خِلَالَكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أوضعوا﴾ ومفعول ﴿أوضعوا﴾ محذوف تقديره، ولأوضعوا ركائب نمائمهم بينكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿أوضعوا﴾؛ أي: لأسرعوا فيما بينكم حال كونهم باغين؛ أي: طالبين الفتنة لكم اهـ. «سمين» ﴿وَفِيكُمْ﴾: خبر مقدم ﴿سَمَّاعُونَ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿لهم﴾ متعلق به والجملة في محل النصب حال من كاف ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أو من واوه، أو مستأنفة كما مر في مبحث التفسير ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾ خبره ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ متعلق به والجملة مستأنفة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ

ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق به والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، لا محل لها من الإعراب ﴿وَقَلَّبُوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱبْتَغَوُا۟﴾ ﴿لَكَ﴾ متعلق به ﴿ٱلْأُمُورَ﴾ مفعول به ﴿حَتَّىٰ﴾ حرف جر وغاية ﴿جَآءَ﴾: فعل ماض في محل النصب بأن مضمرة وجوباً بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: فاعل ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَ﴾ وجملة ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: واستمروا على تقليب الأمور إلى مجيء الحق، وظهور أمر الله ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾: مبتدأ وخبر والجملة في محل النصب حال من الحق؛ أي: حتى جاء الحق حالة كونهم كارهين مجيئه وظهوره.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّن﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾: مقول محكي لـ ﴿يَقُولُ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ٱئْذَن﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لِّى﴾ متعلق به والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾ ناهية ﴿تَفْتِنِّىٓ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية وعلامة جزمه سكون النون المدغمة في نون الوقاية، والنون للوقاية والياء ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه ﴿فِى ٱلْفِتْنَةِ﴾ متعلق بـ ﴿سَقَطُوا۟﴾. ﴿سَقَطُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿وإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسمها ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾ ﴿اللام﴾ حرف ابتداء ﴿محيطة﴾ خبر ﴿إن﴾ ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ متعلق به، والجملة الاسمية معطوفة على جملة

﴿سَخِطُواْ﴾ وقال أبو السعود: هذه الجملة وعيد لهم على ما فعلوا، معطوفة على الجملة السابقة، داخلة تحت التنبيه اهـ.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جوابه لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿حَسَنَةٌ﴾ وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم على كونه فعل شرط لها ﴿يَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إِن﴾ على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إِن﴾ الأولى ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ مقول محكي لـ ﴿يَقُولُواْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ ﴿أَخَذْنَا﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُواْ﴾ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾: فعل وفعل معطوف على ﴿يَقُولُواْ﴾ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من الضمير في ﴿يَقُولُواْ﴾ و﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ لا من الأخير فقط، لمقارنة الفرح لهما معاً. ذكره أبو السعود.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿لَّن يُصِيبَنَا﴾ إلى آخر الآية: مقول محكي لـ ﴿قُل﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّن يُصِيبَنَا﴾ ناصب وفعل ومفعول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل ﴿يُصِيبَنَا﴾ والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿لنا﴾ متعلق به، والجملة صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما كتبه الله لنا ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ ﴿يتوكل﴾ قدم عليه لإفادة الحصر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية

كما في الجمل، و﴿اللام﴾: لام الأمر ﴿يتوكل المؤمنون﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر والجملة معطوفة على جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿هَلْ﴾ حرف للاستفهام التوبيخي الإنكاري. ﴿تَرَبَّصُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِنَآ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾: مفعول به ومضاف إليه.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

﴿وَنَحْنُ﴾ مبتدأ ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين ﴿بِكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على الجملة الفعلية، على كونها مقولاً لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل ﴿بِعَذَابٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، والتقدير: ونحن نتربص بكم إصابة الله إياكم بعذاب من عنده ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ جار ومجرور، معطوف على قوله ﴿بِعَذَابٍ﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، كما في الشوكاني؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما قلته لكم، وأردتم بيان ما هو اللائق بكم.. فأقول لكم ﴿تربصوا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، في محل النصب مقول لـ ﴿قُلْ﴾ ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿مَعَكُم﴾ ظرف متعلق بما بعده ﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾ خبر ﴿إنّ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾ فعل أمر، وفعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَنفِقُواْ﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أَنفِقُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾ ﴿طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾: مصدران في محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَنفِقُواْ﴾ ولكنه في تأويل المشتق؛ أي طائعين أو كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ ناصب وفعل ﴿مِنكُمۡ﴾: متعلق به، وفاعله ضمير يعود على الإنفاق المفهوم مما قبله، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّكُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿كُنتُمۡ﴾ فعل ناقص واسمه ﴿قَوۡمًا﴾ خبره ﴿فَٰسِقِينَ﴾ صفته، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول القول، مسوقٌ لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿مَنَعَهُمۡ﴾ فعل ومفعول أول ﴿أَن﴾ حرف نصب ﴿تُقۡبَلَ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة، منصوب بـ ﴿أَن﴾. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ متعلق به. ﴿نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ نائب فاعل ﴿تُقۡبَلَ﴾ والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لـ ﴿منع﴾ والتقدير: وما منعهم قبول نفقاتهم منهم، فإن منع يتعدى لمفعولين بنفسه، وقد يتعدى إلى الثاني بحرف الجر، وهو: (من) أو (عن)، وهنا تعدى بنفسه إليهما، وإن كان حذف حرف الجر مع أن، وأنَّ، مقيساً مطرداً، ولذا قدره بعضهم هنا، وقال أبو البقاء: ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾ بدل اشتمال، من (هم) في منعهم. اهـ «شهاب». ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على ﴿بِٱللَّهِ﴾ وكرر الباء إشعاراً إلى تعدد كفرهم، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ وجملة ﴿أَن﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ ﴿منع﴾ تقديره: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿كَفَرُواْ﴾ على كونها خبراً لـ ﴿أَن﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء

مفرغ ﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فعل وفاعل في محل الرفع، معطوف على ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يُنفِقُونَ﴾ والمعنى: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله ورسوله، وكسلهم في إتيان الصلاة، وكونهم كارهين الإنفاق. اهـ «زاده».

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكورة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُعْجِبْكَ﴾ فعل ومفعول ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر زائد لتقوية العامل ﴿يعذبهم﴾ فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿بِهَا﴾ متعلق به، وكذا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: إنما يريد الله تعذيبه إياهم بها في الحياة الدنيا، وكذا في الآخرة ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يعذب﴾ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من ضمير ﴿أَنفُسُهُمْ﴾؛ لأن المضاف جزء المضاف إليه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿لَمِنكُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم ﴿وَمَا﴾: نافية ﴿هُم﴾ مبتدأ ﴿مِّنكُمْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب، حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إن﴾

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿قَوْمٌ﴾ خبره، وجملة ﴿يَفْرَقُونَ﴾ صفة ﴿قَوْمٌ﴾ وجملة ﴿لكن﴾ جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَوْ﴾: حرف شرط ﴿يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾: فعل وفاعل ومفعول به لأن وجد هنا بمعنى: أصاب، فيتعدى إلى مفعول واحد ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾: معطوفان على ملجأ، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لَوْ﴾ ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ ﴿اللام﴾ رابطة لجواب ﴿لو﴾ ﴿ولَّوا﴾ فعل وفاعل ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة جواب ﴿لَوْ﴾ وجملة ﴿لَوْ﴾ مستأنفة ﴿وَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَجْمَحُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ولَّوا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿مَّن﴾ اسم موصول، في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ وما بينهما، اعتراض ﴿يَلْمِزُكَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّن﴾ والجملة صلة الموصول ﴿فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ متعلق به ﴿فَإِنْ﴾ ﴿الفاء﴾: تفصيلية ﴿إنْ﴾ حرف شرط ﴿أُعْطُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل، في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به ﴿رَضُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة تفصيلية لجملة ﴿يَلْمِزُكَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿لَّمْ﴾ حرف جزم ﴿يُعْطَوْا۟﴾ فعل ونائب فاعل، مجزوم بـ ﴿لَّمْ﴾ ﴿مِنْهَآ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿إِذَا﴾ فجائية، قائمة مقام فاء الجزاء في ربط الجواب وجوباً لكون الجواب جملة اسمية، كما قال ابن مالك:

وَتَخْلُفُ ٱلْفَاءَ إِذَا ٱلْمُفَاجَأَةْ

﴿هُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿يَسْخَطُونَ﴾: خبره والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إنْ﴾ الأولى.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط ﴿أَنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه، وجملة ﴿رَضُوا﴾ خبره، وجملة ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف؛ لأن ﴿لو﴾ الشرطية لا يليها إلا الفعل، تقديره: ولو ثبت رضاؤهم ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به ﴿رَضُوا﴾ ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف على الجلالة، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: ما آتاهم الله إياه؛ لأنَّ آتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة الفعلية صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط، الضمير المحذوف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة ﴿وَقَالُوا﴾ فعل وفاعل، معطوف على ﴿رَضُوا﴾ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿حَسْبُنَا﴾ خبر مقدم ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ فعل ومفعول أول، وفاعل ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ في محل المفعول الثاني، ﴿وَرَسُولُهُ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿رَاغِبُونَ﴾ ﴿رَاغِبُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾ وفي «الفتوحات»: هاتان الجملتان، أعني قوله: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ كالشرح لقوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، فلذلك لَمْ يتعاطف؛ لأنهما كالشيء الواحد، فشدة الاتصال منعت العطف.

﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿الصَّدَقَاتُ﴾ مبتدأ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ والجملة مستأنفة ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾: معطوف على الفقراء ﴿وَالْعَامِلِينَ﴾ معطوف على الفقراء أيضاً ﴿عَلَيْهَا﴾ متعلق به ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ﴾: معطوف على الفقراء ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: نائب فاعل للمؤلفة ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾: معطوف على ﴿الرِّقَابِ﴾ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، معطوف على ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ أيضاً ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: معطوف على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿فَرِيضَةً﴾: حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ولكن بعد تأويلها بمشتق، تقديره: إنما الصدقات مصروفة هي للفقراء ومن بعدهم، حالة كونها مفروضة لهم، من الله تعالى ﴿مِنَ اللَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لفريضة. أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف. تقديره: فرض الله ذلك لهم فريضة كائنةً منه ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول له ﴿حَكِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وأصل الخبال: اضطراب ومرض يؤثر في العقل، كالجنون. اهـ «خازن» وقيل: الخبال: الاضطراب في الرأي، والفساد في العمل، كضعف القتال، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾: يقال: وضعت الناقة، تضع، إذا أسرعت في سيرها، وأوضعتها أنا اهـ «سمين» ويقال: وضع الرجل، إذا عدا مسرعاً، وأوضع راحلته، إذا حملها على الإسراع، والخلال: جمع خلل، كجمل وجمال، وخلال الأشياء ما يفصل بينها من فروج ونحوها، وفي الشوكاني الإيضاع: سرعة السير، ومنه قول ورقة بن نوفل:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

ويقال: أوضع البعير إذا أسرع السير، وقيل: الإيضاع سير الخبب، والخلل الفرجة بين الشيئين، والجمع الخلال؛ أي: الفُرج التي تكون بين الصفوف ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ والفتنة: التشكيك في الدين، والتخويف من الأعداء، وقيل: الفتنة هنا الشرك ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ يقال: قلب لك الأمر، إذا اجتهد فيه، ودبر لك فيه بالمكر والحيل والمكايد، وتقليب الشيء: تصريفه في كل وجه من وجوهه، والنظر في كل ناحية من أنحائه، والمراد: أنهم دبروا الحيل والمكايد، ودوروا الأراء في كل وجه لإبطال دينك. ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ والحسنة: كل ما يسر بها صاحبها، كالنصر والغلبة على الأعداء ﴿المصيبة﴾ كل ما يصيبك من المكاره ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ تثنية الحسنى، مؤنث الأحسن ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدران، بمعنى: المشتق.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ والإعجاب: السرور بالشيء، مع نوع من الافتخار به، مع اعتقاد أنه ليس لغيره مثله اهـ «خازن»، وهذا المعنى، إنما يناسب في إعجاب الشخص بمال نفسه، يقال: أعجب بماله، أو ولده؛ أي: فرح به، وما هنا في إعجاب المرء بمال غيره، والمعنى عليه: لا تستحسن أموالهم وأولادهم، ولا تخبر برضاك بها.

وفي «المصباح»: ويستعمل التعجب على وجهين:

أحدهما: ما يحمده الفاعل، ومعناه: الاستحسان والإخبار عن رضاه به.

والثاني: ما يكرهه، ومعناه: الإنكار والذم له، ففي الاستحسان، يقال: أعجبني ـ بالألف ـ وفي الذم والإنكار عجبت، وزان تعبت. اهـ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يقال: زهقت الروح، إذا خرجت من باب ذهب ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ في «المختار» فرق فرقاً ـ من باب تعب ـ إذا خاف، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أفرقته اهـ. والفَرَق بالتحريك: الخوف الشديد الذي يفرق بين القلب وإدراكه ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ والملجأ المكان الذي يلجأ إليه الخائف ليعتصم به، كحصن أو قلعةٍ، أو جزيرة في بحرٍ، أو قنةٍ في جبل ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ والمغارات، جمع مغارة: وهي الكهف في الجبل، يغور فيه الإنسان ويستتر ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ والمدخل، بالتشديد: السرب في الأرض، يدخله الإنسان بمشقة، وفي «السمين» ﴿مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ الملجأ: الحصن، وقيل: المهرب، وقيل: الحرز، وهو مفعل، من لجأ إليه، يلجأ؛ أي: انحاز، يقال: ألجأته إلى كذا؛ أي: اضررته إليه فالتجأ،

والملجأ يصلح للمصدر والزمان والمكان، والظاهر منها هنا المكان، والمغارات جمع مغارة، وهي مفعلة من غار يغور، فهي كالغار في المعنى، وقيل: المغارة: السرب في الأرض كنفق اليربوع، والغار: الثقب في الجبل، وهذا من أبدع النظم، ذكر أولاً الأمر الأعم، وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر الغيران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن، وهي الجبال، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة، وهي السروب، وهي التي عبر عنها بالمدخل. اهـ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: يسرعون، والجماح: السرعة التي تتعذر مقاومتها، وفي «المصباح»: جمح الفرس براكبه، يجمح بفتحتين، من باب خضع جماحاً بالكسر، وجموحاً استعصى حتى غلبه، فهو جموح بالفتح، وجامح يستوى فيه المذكر والمؤنث اهـ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ اللمز: العيب والطعن في الوجه، والهمز: الطعن في الغيبة، وفي «المصباح»: لمزه لمزاً - من باب ضرب - إذا عابه. وبه قرأ السبعة: ومن باب قتل لغة، وأصله الإشارة بالعين ونحوها. اهـ فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة بالعين ونحوها، سواء كان على وجه الاستنقاص أو لا، وأما اللمز: فهو خاص بكونه على وجه العيب، وفي «السمين» قرأ العامة: يلمزك بكسر الميم، من لمزه يلمزه إذا عابه، وأصله الإشارة بالعين وغيرها، وقال الأزهري: أصله الدفع، يقال: لمزته؛ أي: دفعته. وقال الليث: هو الغمز في الوجه. ومنه ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ أي: كثير هذين الفعلين، وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة وغيرهما: بضمها، وهي لغتنا في المضارع اهـ.

﴿إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ يقال: رغبه ورغب فيه، إذا أحبه، ورغب عنه إذا كرهه، ورغب إليه إذا طلبه وتوجه إليه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ جمع صدقة: وهي الزكاة الواجبة على النقد والأنعام والزرع والتجارة، سميت صدقة لإشعارها بصدق باذلها في الإيمان. والفقير: من لا مال له يقع موقعاً من كفايته، فيحتاج للمسألة لقوته وكسوته. والمسكين: من له مال قليل يقع موقعاً من كفايته، ولا يكفيه تمامها، كما مر في بحث التفسير، وقيل بالعكس فيهما. والعامل عليها: هو الذي يولِّيه السلطان أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾:

هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى لإسلام، أو التثبيت فيه، ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: وللإنفاق في إعانة الأرقاء لفكاكهم من الرق ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾؛ أي: الذين عليهم غرامة من المال تعذر عليهم أدائها، من الغرم، وأصله لزوم شيء شاق، ومنه قيل للعشق: غرام، ويعبر به عن الهلاك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ وغرامة المال فيها مشقة عظيمة اهـ «سمين» ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وفي الطريق الموصل إلى مرضاة الله ومثوبته، والمراد بهم كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات، كالغزاة، والحجاج الذين انقطعت بهم السبل، ولا مورد لهم من المال، وطلبة العلم، والفقراء ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافر الذي بعد عن بلده، ولا يتيسر له إحضار شيء من ماله، فهو غني في بلده فقير في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي فرض الله ذلك فريضة، ليس لأحد فيها رأي، والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الركائب المسماة بالإيضاع، وهو إسراع سير البعير، ثم استعير لسرعة الإفساد لفظ الإيضاع، ثم اشتق منه أوضعوا، بمعنى: أسرعوا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وأصل الاستعارة: ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم، ثم حذف النمائم، وأقيم المضاف إليه مقامها، لدلالة سياق الكلام على أن المراد النميمة، ثم حذف الركائب. قاله الطيبي. اهـ زكريا.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند، أو السوار بالمعصم.

ومنها: جمع المؤكدات في هذه الجملة إنَّ واللام واسمية الجملة للدلالة على الثبات والدوام.

ومنها: ما يسمى بالمقابلة، التي هي من المحسنات البديعية في قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ...﴾ الآية، وفي قوله: ﴿قُلْ هَلْ

﴿تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ...﴾ الآية؛ لأنه في معنى: ونحن نتربص بكم إحدى السوءيين.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، وبين الرضا والسخط في قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، وفيه أيضا إظهار الاسم الجليل مكان الإضمار، لتربية الروعة والمهابة.

ومنها: تكرار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.

ومنها: ذكر الأعم ثم الأخص في قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ حيث ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان، ثم ذكر المغارات التي يختفى فيها في أعلى الأماكن. وهي الجبال، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة، وهي السروب التي عبر عنها بالمدخل.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ...﴾ الآية، ففي الآية قصر الموصوف على الصفة؛ أي: الصدقات مقصورة على الاتصاف، بصرفها لهؤلاء الثمانية، لا تتجاوز هذه الصفة إلى أن تتصف بصرفها لغيرهم.

ومنها: الزيادة والحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ...﴾ الآية، مناسبة[1] هذه الآية

---

(١) المراغي.

لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أن من دلائل نفاقهم الطعن في أفعاله ﷺ، كإيذاء الذين لمزوه في قسمة الصدقات.. أردف ذلك بذكر من طعن في أخلاقه وشمائله الكريمة، بقولهم: إن محمداً أذنٌ، نحلف له فيصدقنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما ذكر أفعال المنافقين الخبيثة، وذكر ما أعده لهم من العذاب في الدنيا والآخرة.. أردف ذلك بذكر صفات المؤمنين الذين زكت نفوسهم وطهرت سرائرهم، وما أعدَّه لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان نَبْتَلُ بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه، فيسمع منه وينقل حديثه إلى المنافقين، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، قال: قال رجل في غزوة تبوك، في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!».

ثم أخرج من وجه آخر، عن ابن عمر نحوه، وسمى الرجل عبد الله بن أبي، وأخرج عن كعب بن مالك، قال مخشيُّ بن حمير ـ بالتصغير ـ: لوددت أني

---

(١) لباب النقول.

أقاضي على أن يضرب كل رجل منكم مئة، على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن، فبلغ النبيَّ ﷺ، فجاؤوا يعتذرون، فأنزل الله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ . . .﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه مخشي بن حمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله أحد، فقتل يوم اليمامة لا يعلم مقتله إلا من قتله، وأخرج ابن جرير عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فأتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْهُمُ﴾؛ أي: ومن المنافقين ﴿الذين يؤذون النبي﴾؛ أي: جماعة يؤذون رسول الله ﷺ بأقوالهم وأفعالهم، ويعيبونه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ سامعة؛ أي: يسمع من كل أحد ما يقوله، ويقبله، ويصدقه، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ما هو جدير بالقبول، لوجود أمارات الصدق فيه، وما لا ينبغي قبوله، وهذا عيب في الملوك والرؤساء، لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وإبعاد الناصحين، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه ﷺ كان يعاملهم بأحكام الشريعة، كما يعامل عامة المؤمنين، بالبناء على الظاهر، فظنوا أنه يصدق كل ما يقال له.

قال الجوهري[1]: يقال رجل أذن، إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع، ومرادهم: أقمأهم الله تعالى أنهم إذا آذوا النبي، وبسطوا فيه ألسنتهم، وبلغه ذلك.. اعتذروا له، وقبل ذلك منهم؛ لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه، أنه: أذن مبالغةً؛ لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع، حتى كأنَّ جملته أذن سامعةٌ، ونظيره قولهم للربيئة؛ أي الجاسوس: عين، وإيذاؤهم له هو قولهم ﴿هُوَ﴾؛ أي: محمد ﷺ، ﴿أُذُنٌ﴾ سامعةٌ، ليس له ذكاءٌ؛ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما

---

(١) الشوكاني.

يقال له، ولا يفرق بين الصحيح والباطل، اغترارا منهم بحلمه عنهم، وصفحه عن جناياتهم، كرماً وحلماً وتغاضياً، ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، نعم هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ لا أذن شرٍّ، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه.

أي[1]: أنه أذن، ولكنه نعم الأذن؛ لأنه أذن خير، لا كما تزعمون، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا ما يعتقد أنه الحق، وما فيه المصلحة للخلق، وليس بأذن في سماع الباطل، كالكذب والنميمة والجدل والمراء، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه، كما هو شأن الملوك والزعماء، الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم، وحملهم على إيذاء من يبتغون إيذاءه. وقرأ جمهور القراء[2]: ﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ﴾ بالتثقيل، وقرأ نافع: ﴿هو أُذْنٌ قل أُذْنُ خيرٍ﴾ بإسكان الذال فيهما.

وقرأ الجمهور أيضاً[3]: ﴿أُذُنُ خيرٍ﴾ بالإضافة، وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن علي وأبا بكر عن عاصم في رواية: ﴿قل أذنٌ خيرٌ﴾ وجوزوا في ﴿أُذُنٌ﴾، أن يكون خبر مبتدأ محذوف، و﴿خَيْرٌ﴾ خبر ثان لذلك المحذوف؛ أي: هو أذن هو خير لكم؛ لأنه ﷺ يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء خلقكم، وأن يكون ﴿خيرٌ﴾ صفةً لـ﴿أذن﴾؛ أي: أذنٌ ذو خير لكم.

ثم بيَّن الله سبحانه كونه ﷺ، أذن خير بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾؛ أي: يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة، وبما يوحى إليه مما فيه خيركم وخير غيركم ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويصدق المؤمنين الصادقي الإيمان من المهاجرين والأنصار، ويقبل قولهم فيما يخبرونه، لما علمه من آيات إيمانهم الذي يوجب عليهم الصدق فيما يحدِّثونه به، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه ﷺ لا يؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم، ولا يصدقهم في أخبارهم، وإن وكدوها بالأيمان اغتراراً

---

(1) المراغي.

(2) زاد المسير.

(3) البحر المحيط.

بلطفه وأدبه ﷺ، إذ كان لا يواجه أحداً بما يكره، وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه.

وعدى[1] فعل الإيمان بالباء إلى الله؛ لأنه قصد به التصديق بالله، الذي هو ضد الكفر به، وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد به السماع من المؤمنين أخبارهم، وأن يسلم لهم ما يقولونه، ويصدقه لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ كيف ينبىء عن الباء.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾؛ أي: وهو ﷺ رحمة للذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، إذ كان سبب هدايتهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، لا لمن أظهر الإسلام وأسر الكفر نفاقاً، إذ هو نقمة عليه في الدارين.

وإنما قال منكم[2]؛ لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فبيَّن الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله: إنه رحمة للمؤمنين المخلصين، لا للمنافقين، وقيل: في كونه ﷺ رحمةً؛ لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر، ولا ينقب عن أحوالهم، ولا يهتك أسرارهم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أُذُنٌ﴾، والمعنى عليه: هو أنه أذن خيرٍ، وأنه هو رحمة للمؤمنين، وقرأ حمزة وأبي وعبد الله والأعمش: ﴿ورحمةٍ﴾ بالجر عطفاً على ﴿خيرٍ﴾، والمعنى عليه: إنه أذن خير، وأذن رحمةٍ فالجملة من يؤمن ويؤمن اعتراضٌ بين المتعاطفين، قال النحاس: وهذا عند أهل العربية بعيدٌ، يعني قراءة الجر؛ لأنه قد تباعد بين الاسمين، وهذا يقبح في المخفوض اهـ وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿رحمةً﴾ بالنصب على أنه مفعول لأجله، لفعل محذوف دلَّ عليه أذن خير؛ أي: يأذن لكم ويستمع رحمةً لكم، فحذف لدلالة أذن خير لكم عليه.

---

(1) النسفي.

(2) الخازن.

(3) البحر المحيط والشوكاني.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ، بالقول، أو بالفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع شديد الإيلام في الدنيا والآخرة، وأبرز[1] اسم الرسول ولم يأت به ضميراً على نسق يؤمن بلفظ الرسول تعظيماً لشأنه، وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين، من النبوة والرسالة، وإضافته زيادة في تشريفه، وحتَّم على من آذاه بالعذاب الأليم، وحقَّ لهم ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ عام، يندرج فيه هؤلاء الذين آذوه هذا الإيذاء، وغيرهم.

وفي هذه الآية[2]، وما في معناها: دليلٌ على أن إيذاء الرسول ﷺ كفرٌ إذا كان فيما يتعلق برسالته؛ لأن ذلك ينافي الإيمان، وأما إيذاؤه في شؤونه البشرية، والعادات الدنيوية، فحرام لا كفر، كإيذاء الذين كانوا يطيلون الجلوس في بيوته لدى نسائه بعد الطعام، وفيهم نزل ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم في ندائه ويسمونه باسمه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ وإيذاؤه[3] ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، كإيذائه في حال حياته، كالخوض في أبويه، وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيًّا، فالإيمان به ﷺ مانعٌ من تصدي المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله وسلامه عليه إيذاءً ما، فهذا الذنب من أكبر الذنوب، ومعصيةٌ من أعظم المعاصي.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يحلف المنافقون ويقسمون بالله ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون على أنهم ما قالوا ما حكي عنهم، من طعن الرسول ﷺ، وطعن المؤمنين ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أيها المؤمنون، بالأيمان الكاذبة، وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين، وعلى النبي ﷺ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ وإلى المؤمنين.. جاء المنافقون، فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

عنهم، قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله، ومن معه من المؤمنين، فنعى الله ذلكم عليهم، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ أحق بالإرضاء من إرضاء المؤمنين بالأيمان الكاذبة، فإنهم لو اتقوا الله، وآمنوا به، وتركوا النفاق.. لكان ذلك أولى لهم، وكان من الواجب أن يرضوهما بالإخلاص والتوبة والمتابعة، وإيفاء حقوقه ﷺ في باب الإجلال مشهداً ومغيباً، لا بإتيانهم بالأيمان الفاجرة.

وإفراد الضمير في قوله[1]: ﴿يُرْضُوهُ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهيِّ بإفراده بالذِّكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله، فإرضاء الله إرضاء لرسوله، أو المراد: الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، كما قال سيبويه: ورجحه النحاس، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد، أو الضمير راجعٌ إلى المذكور، وهو يصدق عليهما، وقال الفراء: المعنى: ورسوله أحق أن يرضوه، والله افتتاح كلام، كما تقول: ما شاء الله، وشئت، وفي التعبير بـ﴿يُرْضُوهُ﴾ دون يرضوهما، إشعارٌ بأن إرضاء رسوله، هو عين إرضائه تعالى؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وجواب قوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ محذوف، تقديره: إن كانوا مؤمنين.. فليرضوا الله ورسوله بالطاعة، فإنهما أحق بالإرضاء؛ أي إن كان هؤلاء المنافقون مصدِّقين بوعد الله، ووعيده في الآخرة، كما يدعون ويحلفون.. فليرضوهما، وإلاَّ كانوا كاذبين، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهراً معلوماً باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيوحي إلى رسوله ﷺ من أمور الغيب مافيه المصلحة للمؤمنين، وفي الآية عبرة للمنافقين في زماننا وفي كل زمان، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس، وبخاصةٍ الملوك والوزراء، الذين يتقربون إليهم فيما لا يرضي ربهم، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل، وأقذر السبل، ثم وبخهم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته

---

(١) الشوكاني.

بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾؛ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون، وهو استفهام، معناه التوبيخ والإنكار، كما ذكره أبو حيان ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: من يخالف الله ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ ﷺ بتعدي حدوده، أو بلمز الرسول في أعماله، كقسمة الصدقات، وفي أخلاقه وشمائله، كقولهم: هو أُذُنٌ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: فحق أن له نار جهنم؛ أي، فكون نار جهنم له أمر ثابت؛ أي: فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة، حالة كونه ﴿خَٰلِدًا فِيهَآ﴾ أبداً لا مخلص له منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الخالد هو ﴿ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والذل البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره، والهوان الذي يصغر دونه كل خزي وذل في الدنيا وهو ثمرات نفاقهم.

وقرأ الحسن والأعرج[1]: ﴿ألم تعلموا﴾ بالتاء الفوقية على الخطاب، فالظاهر أنه التفات، فهو خطاب للمنافقين، قيل: ويحتمل أن يكون خطاباً للمؤمنين، فيكون معنى الاستفهام التقرير. وإن كان خطاباً للرسول.. فهو خطاب تعظيم، والاستفهام فيه للتعجب، والتقدير: ألا تعجب من جهلهم في محادة الله تعالى، وقرأ الباقون: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ بالياء التحتية وفي مصحف أُبيٍّ ﴿ألم تعلم﴾ قال ابن عطية: على خطاب النبي ﷺ. انتهى. والأولى أن يكون خطاباً للسامع. قال أهل المعاني: ﴿ألم تعلم﴾ الخطاب لمن حاول تعليم إنسان شيئاً مدةً وبالغ في ذلك التعليم فلم يعلم، فقال له: ألم تعلم بعد المباحث الظاهرة، والمدة المديدة، وحسن ذلك؛ لأنه طال مكث النبي ﷺ معه، وكثر منه التحذير عن معصية الله، والترغيب في طاعة الله، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: فحق أن له نار جهنم، أو فالواجب أن له النار، والفاء رابطةٌ جواب الشرط، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿فإن له﴾ بالكسر في الهمزة، حكاها عنه أبو عمرو الداني، وهي قراءة محبوب عن الحسن، ورواية أبي عبيدة عن أبي عمرو، ووجهه في العربية قوي؛ لأن الفاء تقتضي الاستئناف والكسر مختار؛ لأنه لا يحتاج إلى إضمار بخلاف الفتح.

---

(١) البحر المحيط.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ أي: يخاف المنافقون، قيل: هو خبر ليس بأمر. وقال الزجاج: هو خبر بمعنى الأمر، فهو على تقدير ليحذر المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي على المؤمنين، وقرىء بالتخفيف وبالتشديد ﴿سُورَةٞ﴾ من سور القرآن ﴿تُنَبِّئُهُم﴾: أي: تخبر المؤمنين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾؛ أي: بما في قلوب المنافقين، من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين، وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوءٍ ويسترونه، ويخافون الفضيحة، ونزول القرآن في شأنهم.

ويجوز[1] أن تكون الضمائر للمنافقين؛ فإنَّ النازل فيهم كالنازل عليهم، من حيث إنه مقروءٌ، ومحتجٌ به عليهم.

والمعنى: يخاف المنافقون أن ينزل في شأنهم سورة تفضحهم بإظهار ما في قلوبهم للمؤمنين، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم، وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيءٍ.

والخلاصة: أنهم يحذرون أن تنزل سورة في شأنهم، وبيان حالهم، فتكون في ذلك فضيحتهم وكشف عوراتهم، وإنذارهم ما قد يترتب عليه من عقابهم.

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ، بأن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ أمر تهديد على حد ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾؛ أي: افعلوا الاستهزاء بالله وبرسوله وبآياته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُخۡرِجٞ﴾ ومظهر ﴿مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ من إنزال سورة تهتك ستركم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم، والمعنى؛ أي: قل لهم استهزئوا، فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين أمركم، من قرآن أو وحي.

ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد على فعلهم، وكونه سبباً لإخراجه تعالى ما يحذرون ظهوره من مخبآت سرائرهم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد هؤلاء المستهزئين عما قالوه من الطعن في الدين،

---

(١) البيضاوي.

وثلب المؤمنين، بعد أن يبلغ إليك ذلك، ويطلعك الله عليه ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معتذرين عما قالوا ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولم نكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين؛ أي: إنما كنا نخوض ونتحدث بالحديث الباطل الذي لا معنى له، نقطع به عنا الطريق كحديث الركب المسافرين في الطريق لتقصر عليه المسافة، ﴿وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: نضحك بما نقول، ولا نقصد معناه.

أي: إنك إن سألتهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها، بأنهم لم يكونوا جادين ولا منكرين، بل هازلين لاعبين للتسلي والتلهي، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول، لجهلهم أن اتخاذ الدين هزواً ولعباً كفرٌ محضٌ، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وقال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ويدخل في عموم الآية المبتدعون في الدين، والذين يخوضون في الداعين، إلى الكتاب والسنة، ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما.

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك، إذ نظر إلى أناس بين يديه يقولون: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات.. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: «احبسوا على هؤلاء الركب»، فأتاهم، فقال: «قلتم كذا، وقلتم كذا»، قالوا: يا نبيَّ الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون.

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يجيب عنهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ حقه الدخول على كان، وأثبت وقوع ذلك منهم، ولم يعبأ بإنكارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم، حيث جعل المستهزأ به والياً لحرف الاستفهام؛ أي: أكنتم تستهزئون، وتسخرون بالله؛ أي: بفرائض الله وحدوده وأحكامه وبآياته؛ أي: وبكتابه وبرسوله محمد ﷺ.

والمعنى: كيف تقدمون على الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، ولا يستقيم ذلك

لمن له عقل؛ أي: قل لهم[1]: إن الخوض واللعب في صفات الله وشرعه وآياته المنزلة ورسوله استهزاء بها، إذ كل ما يلعب به، فهو مستخف به، وكل مستخف به، فهو مستهزأ به.

وقصارى ذلك: ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله، فقصرتم ذلك عليهما، فهل ضاقت عليكم سبل القول، فلم تجدوا ما تخوضون فيه، وتلعبون به غير هذا، ثم بعدئذٍ تظنون أن معاذيركم بمثل هذا تقبل، وتدلون بها بلا خوف ولا خجل؟ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالاعتذارات الباطلة، فلن نقبلها منكم؛ أي لا تذكروا هذا العذر الباطل، لدفع هذا الجرم العظيم، فإنَّ ذلك غير مقبول منكم؛ لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم، فهو كما يقال: عذر أقبح من الذنب. ونقل الواحدي عن أئمة اللغة، أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم: اعتذر المنزل إذا درس واعتذرت المياه إذا انقطعت، كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مبحث التصريف؛ أي: لا تعتذروا فـ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾؛ أي: أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور، ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾؛ أي: بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾؛ أي: إن نعف عن جماعة منكم هذا الاستهزاء، لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كمخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أخرى منكم لإجرامهم وإصرارهم عليه، ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم كانوا مجرمين﴾؛ أي: مصرين مستمرين على الإجرام والنفاق، لم يتوبوا منه، قال الزجاج: الطائفة: الجماعة، قال ابن الأنباري: ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب.

وخلاصة ذلك: أن من تاب من كفره ونفاقه.. عفي عنه، ومن أصر عليه، وأظهره.. عوقب به.

روي[2]: أن الطائفتين كانوا ثلاثة، فالواحد: طائفة، وهو جهير بن حمير

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

والاثنان: طائفة، وهما وديعة بن جذام وجدُّ بن قيس، فالذي عفى عنه جهير بن حمير؛ لأنه كان ضحك معهم، ولم يستهزىء معهم، فلما نزلت هذه الآية، تاب من نفاقه، وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية، تقشعر منها الجلود، وتخفق منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه.

وقرأ زيد بن ثابت[1] وأبو عبد الرحمن وزيد بن علي وعاصم من السبعة: ﴿إن نَّعْفُ﴾ بالنون ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالنون ﴿طائفة﴾ بالنصب، ولقيني شيخنا الأديب الكامل أبو الحكم، مالك بن المرحل المالقي بغرناطة، فسألني: قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر بن الطباع؟ فقلت: قراءة عاصم، فأنشدني:

لِعَاصِمٍ قِرَاءَةٌ لِغَيْرِهَا مُخَالِفَهْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَهْ

وقرأ باقي السبعة ﴿إن تُعفَ عن طائفة تعذب طائفة﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ الجحدري: ﴿إن يَعف﴾ ﴿يُعذب﴾ مبنيًا للفاعل فيهما؛ أي: إن يعف الله، وقرأ مجاهد ﴿إن تعف﴾ بالتاء مبنيًا للمفعول ﴿تعذب﴾ مبنياً للمفعول بالتاء أيضاً، قال ابن عطية: على تقدير إن تعف هذه الذنوب. وقال الزمخشري: الوجه التذكير؛ لأن المسند إليه الظرف، كما تقول سير بالدابة، ولا تقول: سيرت بالدابة، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل: إن ترحم طائفة، فأنث لذلك، وهو غريب، والجيد قراءة العامة: ﴿إن يعف عن طائفة﴾ بالتذكير و ﴿تعذب طائفة﴾ بالتأنيث. انتهى.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قيل[2] كانوا ثلاث مئة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وكنَّ مئة وسبعين ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: متشابهون في صفة النفاق والأفعال الخبيثة؛ أي: أنَّ[3] أهل النفاق رجالاً ونساءً يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، كما قال تعالى في آل إبراهيم وآل عمران: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾. وقال الشاعر:

تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصَيَّهْ هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إلاَّ حَيَّهْ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ثُم بين ذلك التشابه فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾؛ أي: إن بعضهم يأمر بعضاً بالمنكر، وهو كل[1] قبيح عقلاً أو شرعاً كالكذب والخيانة، وإخلاف الوعد، ونقض العهد، كما جاء في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: وينهى بعضهم بعضاً عن المعروف، وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال، كما حكى الله تعالى عنهم، بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن كل خير، من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله، والقبض كناية عن الشح، كما أن البسط كناية عن الكرم[2]، واقتصر من منكراتهم الفعلية في هذه الآية على الامتناع عن البذل؛ لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالةً على النفاق، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾؛ أي: نسوا وتركوا أن يتقربوا إليه بفعل، ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولم يكن يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركهم من رحمته وفضله، والنسيان هنا الترك؛ لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، أو المعنى: فجازاهم على مافعلوا بحرمانهم من لطفه، وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة.

ثم حكم عليهم بالفسق؛ أي: الخروج عن طاعته إلى معاصيه فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ الناكبين عن الصراط المستقيم إلى سبل الشيطان ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ أي: الكاملون في الفسق، الذي هو الانسلاخ من كل خير؛ أي: هم أكثر الناس فسوقاً وخروجاً من جميع الفضائل، حتى من الكفار، الذين يعتقدون صحة عقائدهم الباطلة، فهم لا يبلغون مبلغهم في الفسوق والخروج من طاعة الله، والانسلاخ من فضائل الفطر السليمة، ثم بين سبحانه ما أعدَّ لهم ولأمثالهم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

من العقاب جزاءً لهم على أعمالهم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى هؤلاء ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بالكفر جميعاً ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يصلونها حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها مكثاً مؤبداً لا نهاية له، فالنار المخلدة من أعظم العقوبات، وقدم المنافقين في الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام شر من الكفار، ولا سيما المتدينين منهم بأديان محرفة أو منسوخة، كأهل الكتاب وفي هذه الآية دليلٌ على أن وعد يقال في الشر، كما يقال في الخير: ﴿هِىَ﴾؛ أي: نار جهنم ﴿حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كافيتهم عقوبةً ولا شيء أبلغ منها، ولا يمكن الزيادة عليها ﴿و﴾ مع ذلك فقد ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى: أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: نوعٌ آخر من العذاب دائم، لا ينفك عنهم، كالزمهرير والسموم.

والمعنى: أن نار جهنم فيها من الجزاء ما يكفيهم، عقاباً لهم في الآخرة على أعمالهم، وعليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة، بحرمانهم من رحمته، التي لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون، ولهم عذاب مقيم دائم، غير عذاب جهنم، كالسموم الذي يلفح وجوههم، والحميم الذي يصهر ما في بطونهم، والضريع الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع، وحرمانهم من لقاء الله تعالى وكرامته، والحجاب دون رؤيته، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

ثم شبه سبحانه وتعالى حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم، ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ والكاف فيه خبر لمبتدأ محذوف، ولكنه مع تقدير مضاف؛ أي: فعلكم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ كفعل الكفار الذين كانوا من قبلكم من الأمم الماضية، في الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وقبض الأيدي عن الخيرات، فقد ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: أكثر منكم قوةً في الأبدان ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾؛ أي: أجمع منكم إياها ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾؛ أي: تمتع أولئك الكفار وانتفعوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا وشهواتها مدة حياتهم،

وخاضوا في تكذيب أنبيائهم واستهزائهم، وفتنوا بدنياهم، وغروا بشهواتهم، وخرجوا من الدنيا مفتونين مغرورين محرومين من رحمة الله تعالى ونعيم الآخرة.

والمعنى: أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله ﷺ والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم في أقوام الأنبياء السابقين، فتنتم بأموالكم وأولادكم، كما فتنوا وغروا بها، ولكنهم كانوا أشد منكم قوةً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً، وقد كان جل مطلبهم وسعيهم، هو التمتع بنصيبهم وحظهم الدنيويِّ، من الأموال والأولاد، فأطغتهم الدنيا، وأغرتهم لذاتها، ولم يكن لهم مقاصد شريفة من الحياة كالتي يقصدها أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة، من إعلاء كلمة الحق، وإقامة ميزان العدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخرجوا من الدنيا مفتونين مغرورين محرومين.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ أي: فأنتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ حذوتم حذوهم، وسلكتم سبيلهم، وتمتعتم بنصيبكم وحظكم من ملاذ الدنيا وشهواتها ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: استمتعتم استمتاعاً كاستمتاع الكفار الذين خلوا من قبلكم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية، وفتنتم بها، كما فتنوا بها، فأنتم أولى بالعقاب منهم.

والمعنى: أي وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم، فأنتم فعلتم بدينكم ودنياكم كما فعل الذين كانوا من قبكلم، ولم تفضلوا عليهم بشيءٍ من الاسترشاد بكلام الله وهدي رسوله، إذ لم تعلموا شيئاً من الفضائل التي تزكي النفوس وتجعلها أهلاً للسعادة، فكنتم أجدر بالعقاب منهم؛ لأنهم أوتوا من القوة والأموال فوق ما أوتيتم، ولم يروا من آيات الله ما رأيتم.

فإن قلت: ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرةً ثم في حق المنافقين ثانياً ثم تكريره في حق الأولين ثالثاً، والثاني مغن عن الأول؟

قلت: فائدة ذكر الاستمتاع في الأولين أولاً: تمهيدٌ لذم حال المخاطبين، بأن قرر وبين حال الأولين، ثم عاد فشبه حال المنافقين بحالهم، فيكون ذلك

بياناً لوجه الشبه، وتكريره ثانياً تأكيدٌ ومبالغةٌ في ذم المخاطبين، وتقبيح حالهم، ولم يسلك هذه الطريقة في التشبيه الثاني، وهو قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ حيث لم يقل: وخاضوا وخضتم كخوضهم، اكتفاءاً بالتمهيد الأول فاستغنى عن ذكر التمهيد في التشبيه الثاني. اهـ «زاده» بتصرف.

وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ معطوف على قوله: واستمتعتم؛ أي: وخضتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد ﷺ، ودخلتم أشد الدخول في إيذاء الله ورسوله ﷺ والمؤمنين وفي الطعن بالإسلام ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾؛ أي: خوضاً كخوض الفريق الذي خاضوا في تكذيب أنبيائهم وطعنهم من الذين كانوا من قبلكم؛ أي: ودخلتم في الباطل، كما دخلوا فيه مع ما بين حالكم وحالهم من الفوارق التي كانت تقتضي أن تكونوا أهدى منهم سبيلاً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستمتعون بخلاقهم وحظوظهم، والخائضون في الأباطيل، فالإشارة إلى كل من المشبهين والمشبه بهم، فهي لمجموع الفريقين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: بطلت حسناتهم بسبب الفقر، والانتقال من العز إلى الذل، ومن القوة إلى الضعف، وبسبب الموت وفي الآخرة بسبب أنهم يعاقبون أشد العقاب.

والمعنى: حبطت أعمالهم الدنيوية، فكان ضررها أكبر من نفعها لهم، لإسرافهم وإفسادهم في الأرض، وكذلك أعمالهم الدينية في الآخرة من عبادات، وصلة رحم وصدقة، وقرى ضيف، فلم يكن لهم أجر عليها ينقذهم من عذاب النار ويدخلهم الجنة، إذ شرط قبولها في الآخرة الإيمان والإخلاص.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالأفعال الذميمة ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، حيث أتعبوا أنفسهم في الرد على الأنبياء، فما وجدوا منه إلا فوات الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلا حصول العقاب بهم في الدنيا والآخرة، فهم خسروا في مظنة الربح والمنفعة.

ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ ثم نبههم وحذرهم سوء عاقبة أعمالهم،

فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ أي: ألم يأت أولئك المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ففيه رجوع إلى الغيبة عن الخطاب، ففيه التفات ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم، حيث عصوا رسلهم، وخالفوا أمر ربهم، فأخذهم العذاب المستأصل في الدنيا؛ أي: ألم يأتهم خبرهم الذي له شأن، وهو ما فعلوه وما فعل بهم، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال، في المشبه بهم، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم؛ لأن بلادهم وهي الشام والعراق واليمن، قريبة من بلاد العرب، فالاستفهام فيه للتقرير على حدِّ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ كما في «الجمل» وقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ بدل تفصيل من الموصول؛ أي: ألم يأتهم نبأ قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان، ونبأ عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم، ونبأ ثمود الذين أهلكوا بالصيحة، ونبأ قوم إبراهيم الذين حاولوا إحراقه، وهم نمروذ وأتباعه، وأهلكوا بسلب النعمة عنهم والهدم، وبتسليط البعوضة على دماغ نمروذ، ونبأ أصحاب مدين، الذين هم قوم شعيب، أهلكوا بالظلة أو بالرجفة، ونبأ أصحاب المؤتفكات؛ أي: القرى المنقلبات، التي جعل الله عاليها سافلها، الذين هم قوم لوط أهلكوا بالخسف الذي نزل بهم وهم فيها، وأمطروا حجارةً من سجيل، وإنما[1] اقتصر على هذه الستة؛ لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليها ويعرفون أخبار أهلها، كما مر آنفاً.

﴿أَتَتْهُمْ﴾؛ أي: جاءت تلك الأمم الماضية ﴿رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات، الدالة على صدقهم فكذبوهم، وخالفوا أمرنا، كما فعلتم أيها المنافقون والكفار المعاصرون لمحمد ﷺ، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فتعجل لكم العقوبة، كما عجلت لهم، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ أي: ظالماً لهم، بتعجيل العقوبة لهم؛ لأنه حكيم حليم، فلا يعاقب أحداً بغير جرم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(١) الخازن.

حيث عرضوها للعقوبة بالكفر والتكذيب للأنبياء.

والمعنى[1]: وما كان من سنة الله، ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب، وقد أعذرهم وأنذرهم، ليجتنبوه، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بجحودهم وعنادهم، وعدم مبالاتهم، بإنذار رسلهم، وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسالته ﷺ والمنافقين ليبين لهم أن سنة الله تعالى في عباده واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بد أن يحل بهم من العذاب مثل ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا، وقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم في أول غزوة، وهي غزوة بدر، ثم خذل من بعدهم في سائر الغزوات، وما زال المنافقون يكيدون له في السر، حتى فضحهم الله بهذه السورة، فتاب أكثرهم ومات زعيمهم عبد الله بن أبي بغيظه وكفره، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده، وبهذا التمحص كانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس، نشر الله بها أعلام دينه، حتى سادت العالم جميعه.

ولمَّا وصف الله سبحانه وتعالى المنافقين بالأعمال الخبيثة، والأحوال الفاسدة، ثم ذكر بعده ما أعد لهم، من أنوع الوعيد في الدنيا والآخرة.. عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: والمصدقون بوحدانية الله ورسالة رسوله من الرجال، والمصدقات من النساء، بعضهم أنصار بعض آخر، وأصدقاؤه في الدين والمعاونة بتسديد الله وتوفيقه وهدايته، لا بمقتضى الطبيعة، وهوى النفس، بل قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب والتعاطف، بسبب ما جمعهم من أمر الدين، وضمهم من الإيمان بالله ورسوله.

والولاية: ضد العداوة، فتشمل ولاية النصرة، وولاية الأخوة والمودة، ونصرة النساء: تكون فيما دون القتال، من الأعمال المتعلقة بتعبئة الجيوش، من

(١) المراغي.

الأمور المالية والبدنية، وكان نساء النبي ﷺ، ونساء أصحابه، يخرجن مع الجيش يسقين الماء، ويجهزن الطعام، ويحرضن على القتال، ويرددن المنهزم من الرجال، قال حسان بن ثابت:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

فإن قلت: لِمَ قال سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، وقال في وصف المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ فما الفائدة في التفرقة بينهما في الوصف؟

قلت: فرق بينهما لأن المؤمنين بينهم أخوة ومودة وتعاون وتراحم، حتى شبه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان يشد بعضه بعضاً، وبينهم ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل، وإعلاء كلمة الله تعالى، أما المنافقون فيشبه بعضهم بعضاً في الشكوك والذبذبة، وما يتبعها من الجبن والبخل، وهما يمنعان من التناصر ببذل النفس والمال، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام، وما لا يشق من الأعمال، ومن ثم أَكْذَبَ الله منافقي المدينة في وعدهم لليهود حلفائهم، بنصرهم على النبي ﷺ والمؤمنين إذا قاتلوهم، في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآية، ثم بين أوصافهم الحميدة، كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد الله سبحانه، وترك عبادة غيره؛ أي: يأمرون غيرهم بالإيمان بالله ورسوله، واتباع ما أمر به ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾؛ أي: عما هو منكر في الدين والشرع، غير معروف فيه، من الشرك والمعاصي والبدع ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدون الصلاة المفروضة، بإتمام الأركان والشرائط ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدون الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، وخصَّ[1] إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من بين جملة العبادات؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال

---

(١) الشوكاني.

﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه في السر والعلن.

والحاصل[1]: أن الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين في هذه الآية بصفاتٍ خمسٍ، تفاد مثلها في المنافقين:

١ ـ أنهم يأمرون بالمعروف، والمنافقون يأمرون بالمنكر.

٢ ـ أنهم ينهون عن المنكر، والمنافقون ينهون عن المعروف، وهاتان الخصلتان سياج الفضائل، ومنع فشوّ الرذائل.

٣ ـ أنهم يؤدون الصلاة على أقوم وجه وأكمله بخشوع وإخبات لله، وحضور القلب في مناجاته، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة.. قاموا وهم كسالى، يراؤون الناس.

٤ ـ أنهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم، وما وفقوا له من التطوع، والمنافقون يقبضون أيديهم، والمنافقون وإن كانوا يصلون لم يكونوا يقيمون الصلاة، وكانوا يزكون وينفقون، ولكن خوفاً أو رياءً لا طاعةً لله تعالى، كما قال سبحانه ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ...﴾ الآية.

٥ ـ أنهم يستمرون على الطاعة، بترك ما نهوا عنه وفعل ما أمروا به، بقدر الطاقة وبضد ذلك المنافقون فإنهم فاسقون خارجون عن حظيرة الطاعة كما تقدم.

ثم ذكر ما يكون لهم من حسن العاقبة، وعظيم الجزاء على جميل أفعالهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات المذكورة من المؤمنين والمؤمنات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يفيض عليهم آثار رحمته، ويتعهدهم برحمته في الدنيا والآخرة باستمرارهم على طاعته، وطاعة رسوله، ويقابل هذا نسيانه تعالى للمنافقين ولعنه إياهم.

وزيدت[2] السين فيه للتأكيد والمبالغة؛ أي: للدلالة على تحقيق ذلك وتقرر

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

ألبتة بمعونة المقام كما هنا، إذ السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير، فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه بشارة ووعداً، تمحضت لتأكيد الوقوع اهـ. كرخي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يمنع من مراده من رحمةٍ أو عقوبةٍ، ولا يمتنع عليه شيء من وعده ووعيده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لعباده، لا يضع شيئاً منهما في غير موضعه.

والإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان للوعد المذكور، ذكره أبو السعود. وبعد أن بين صفاته روحمته لهم إجمالاً.. بين ما وعدهم به، من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلاً، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ وبساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الجارية في الجنة، اللبن، والماء، والخمر، والعسل، حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبداً لا نهاية له ﴿و﴾ وعدهم ﴿مساكن طيبة﴾؛ أي: منازل حسنة يسكنون فيها من الدرِّ والياقوت تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش، أو قد طيبها الله بالمسك والريحان، ويقال: جميلةً ويقال: طاهرةً ويقال: عامرةً كائنة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وخلود وإقامة مؤبدة، فجنات عدن، هي جنات الإقامة والخلود كقوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وقيل: إنه منزل من منازل دار النعيم، كالفردوس الذي هو أوسط الجنة أو أعلاها، روي عن أبي هريرة: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما، كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

تتمة: والجنَّات[1]: البساتين الملتفة الأشجار، التي تجن ما تحتها؛ أي:

---

(١) المراغي.

تغطيه وتستره، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها، والمساكن الطيبة في جنات عدن هي الدور والخيام، التي يطيب لساكنها المقام فيها، لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة التي بها تتم راحة المقيم فيها وسروره، والعدن: الإقامة والاستقرار، يقال: عدن في مكان كذا، إذا أقام فيه وثبت.

والمراد[1] بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار: البساتين التي يتحير في حسنها الناظر؛ لأنه سبحانه وتعالى، قال: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ﴾، والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه، فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين، فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها، والجنات الأخرى هي البساتين التي يتنزهون فيها، فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، والفرق بينهما.

والمعنى: ومنازل طيبةً كائنةً في محلات تسمى بجنة عدن، روى الطبري، بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة، قالا: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ قال: «قصر من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً، على كل فراش زوجة من الحور العين»، وفي رواية: «في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من طعام، وفي كل بيت سبعون وصيفةً، ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع»، ولكن هذا الحديث ضعفه أئمة الحديث، وبعضهم جعله من الموضوعات، وهو حديث منكر من دسائس الوضاعين، ككعب الأحبار وغيره، قال ابن القيم: لم يثبت في نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجتين لكل رجل.

وروى بسنده عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ «عدن داره ـ يعني

---

(١) الخازن.

دار الله ـ التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه، ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة، النبيين والصدقين والشهداء، يقول الله عز وجل: طوبى لمن دخلك»، هكذا رواه الطبري، فإن صحت هذه الرواية.. فلا بد من تأويلها، فقوله: «عدن داره»، يعني: دار الله، وهو من باب حذف المضاف، تقديره عدن دار أصفياء الله التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته، والمقربين من عباده.

وعن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أخرجه البخاري ومسلم.

وقال عبد الله بن مسعود: ﴿عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة، يعني وسطها، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً، يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديق أو شهيد، وقال عطاء بن السائب: ﴿عَدْنٍ﴾ نهر في الجنة خيامه على حافتيه، وقال مقاتل والكلبي: عدن: أعلى درجة في الجنة، فيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصور الدر والياقوت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش، فتدخل عليها كثبان المسك الأبيض.

قال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل هذا الكلام: أن في جنان عدن قولين:

أحدهما: أنه اسم علم لموضع معين في الجنة، وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول.

قال صاحب «الكشاف»: و﴿عدن﴾ علم بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والقول الثاني: أنه صفة للجنة، قال الأزهري: ﴿العدن﴾ مأخوذ من قولك عدن بالمكان، إذا أقام يعدن عدونا، فبهذا الاشتقاق قالوا: الجنات كلها جنات عدن، انتهى من «الخازن».

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ جملة مستأنفة؛ أي: رضوان قليل يسير من الله الذي ينزله عليهم أكبر وأعلى وأفضل من ذلك النعيم المقيم كله الذي أعطاهم إياه، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم وإن جلت وعظمت يماثل رضوان الله سبحانه، وإن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية، اللهم ارض عنا رضاً لا سخط بعده، ولا يكدره نكد، يا من بيده الخير كله. وقرأ الأعمش: ﴿ورضوان﴾ بضمتين، قال صاحب «اللوامع» وهي: لغة. اهـ «البحر».

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمور الثلاثة، من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ومن المساكن الطيبة، من الرضوان الأكبر ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم، لا ما يطلبه المنافقون والكفار، من التنعم بطيبات الدنيا، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون أي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً» متفق عليه.

الإعراب

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمُ﴾ جار ومجرور، خبر مقدم ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة أو معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾. ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فعل وفاعل

معطوف على ﴿يُؤْذُونَ﴾ ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ مقول محكي، أو مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو أذن خير لكم، والجملة في محل النصب، مقول القول ﴿خَيْرٍ﴾ مضاف إليه، ويقرأ: بالرفع، على أنه صفة ﴿أُذُنُ﴾ والتقدير: أذنٌ ذو خير لكم، ذكره أبو البقاء ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَيْرٍ﴾ أو صفة له، ويجوز أن يكون ﴿خَيْرٍ﴾ بمعنى أفعل؛ أي: أذن أكثر خيراً لكم ﴿يُؤْمِنُ﴾ فعل مضارع ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على ﴿أُذُنُ﴾ بمعنى محمد، والجملة في محل الرفع صفة ﴿أُذُنُ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جملة معطوفة على ما قبلها، و﴿اللام﴾ في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ زائدة، دخلت عليه لتفرق بين يؤمن، بمعنى: يصدق، ويؤمن بمعنى: يثبت الأمان، كما تقدم في بحث التفسير بأوضح بيان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع معطوف على ﴿أُذُنٌۚ﴾؛ أي: هو أذن ورحمة، ويقرأ: بالجر عطفاً على ﴿خَيْرٍ﴾ فيمن جر خيراً ﴿لِّلَّذِينَ﴾ جار ومجرور، صفة لـ ﴿رحمة﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿مِنكُمْۚ﴾ جار ومجرور، حال من فاعل الصلة؛ أو من الموصول ﴿وَالَّذِينَ﴾ مبتدأ أول ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمْ﴾ متعلق به أيضاً ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ ﴿اللام﴾ لام كي ﴿يرضوكم﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ على كونه بدل اشتمال من ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: يحلفون بالله لكم، لإرضائهم إياكم، والخطاب فيه للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ معطوف عليه ﴿أَحَقُّ﴾ خبر

عنهما ﴿أَن يُرۡضُوهُ﴾ ناصب وفعل وفاعل ومفعول والجملة في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، والتقدير: والله ورسوله أحق بإرضائهم إياهما منكم، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿يَحۡلِفُونَ﴾؛ أي: يحلفون لكم لإرضائكم، والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء منكم؛ أي يعرضون عما يهمهم ويشتغلون بما لا يَعْنِيهم، ذكره أبو السعود ﴿إِن﴾: حرف شرط ﴿كَانُواْ﴾ فعل ماض ناقص واسمه في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ خبرها، وجواب ﴿إِن﴾ الشرطية محذوف، دل عليه السياق، والتقدير: إن كانوا مؤمنين.. فليرضوا الله ورسوله بطاعتهما، فإنهما أحق بالإرضاء، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣﴾.

﴿أَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي وفيه معنى التقرير ﴿لم﴾ حرف نفي وجزم ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لم﴾ ﴿أَنَّهُۥ﴾ أن حرف نصب ومصدر و﴿الهاء﴾ اسمها من اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب أو هما ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول مجزوم بـ ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر، ﴿لَهُۥ﴾ جار ومجرور خبر مقدم لها ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ اسمها مؤخر ﴿خَٰلِدٗا﴾ حال من الضمير، المجرور باللام ﴿فِيهَاۚ﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدٗا﴾ وجملة ﴿أن﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر مرفوع، على كونه خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: فجزاؤه كون نار جهنم له خالداً فيها، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل الرفع، خبر لـ﴿أنَّ﴾ الأولى، وجملة ﴿أن﴾ الأولى في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي علم، تقديره: ألم يعلموا كون جزاء من يحادد الله ورسوله نار جهنم، وجملة علم جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾

خبره ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة لـ﴿ٱلْخِزْيُ﴾ والجملة مستأنفة.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ ناصب وفعل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به ﴿سُورَةٌ﴾: نائب فاعل والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: يحذر المنافقون تنزيل سورة عليهم، الجملة الفعلية مستأنفة ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿سُورَةٌ﴾ والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿سُورَةٌ﴾ ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ جار ومجرور صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿قُلِ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ إلى آخر الآية، مقول محكي. وإن شئت، قلت ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل النصب مقول القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿مُخْرِجٌ﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول القول، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿مَّا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿مُخْرِجٌ﴾ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة لـ ﴿مَّا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما تحذرونه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف، تقديره: عن استهزائهم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يقولن﴾ فعل مضارع، مرفوع وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة، لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، في محل الرفع فاعل، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف، لدلالة جواب القسم عليه، تقديره: وإن سألتهم.. يقولون، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر

﴿كُنَّا﴾ فعل ناقص واسمه ﴿نَخُوضُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿وَنَلْعَبُ﴾ معطوفة على جملة ﴿نَخُوضُ﴾ ﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَبِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التوبيخي، داخلة على ﴿كنتم بالله﴾ ومجرور متعلق بـ ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوفان على الجلالة ﴿كُنتُمْ﴾ فعل ناقص واسمه وجملة ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة مستأنفة ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي قبله ﴿إِن نَّعْفُ﴾ جازم وفعل مجزوم على كونه فعل شرط له، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿عَن طَآئِفَةٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿طَآئِفَةٍ﴾ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ فعل ومفعول، مجزوم على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ سببية ﴿أن﴾ حرف نصب، والهاء اسمها وجملة ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ في محل الرفع، خبر ﴿أن﴾ وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب كونهم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نُعَذِّبْ﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: مبتدأ أول ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾: معطوف عليه ﴿بَعْضُهُم﴾: مبتدأ ثان، ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿يَأْمُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱلْمُنكَرِ﴾: متعلق به، والجملة

الفعلية مستأنفة، مفسرة لما قبلها، وجملة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾: معطوفة على جملة ﴿يَأْمُرُونَ﴾: وكذلك جملة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوفة عليها. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة مستأنفة ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿نسيهم﴾ فعل ومفعول وفاعله ضمير، يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿نَسُوا۟﴾ ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ اسمها ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ معطوفان على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ مفعول ثان، والجملة مستأنفة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من المفعول الأول، وهو مجموع الأصناف الثلاثة، غير أنها حال مقدرة، إذ وقت الوعد لم يكونوا ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ مبتدأ، وخبر، والجملة في محل النصب، حال من ﴿جَهَنَّمَ﴾ ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَعَدَ﴾ ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مُّقِيمٌ﴾ صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَعَدَ﴾ أيضاً.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، ولكنه على حذف مضاف، تقديره: حالكم كائن كحال الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور صلة الموصول ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره ﴿مِنكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿أَشَدَّ﴾ وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الذين من قبلهم ﴿قُوَّةً﴾ تمييز محول عن اسم كان منصوب باسم التفضيل أعني أشد

﴿وَأَكْثَرَ﴾ معطوف على ﴿أَشَدَّ﴾ ﴿أَمْوَالًا﴾ تمييز منصوب بـ ﴿أكثر﴾ ﴿وَأَوْلَـٰدًا﴾ معطوف عليه ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿استمتعوا﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿كَانُوٓاْ﴾ ﴿بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ متعلق به ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ معطوف على ﴿استمتعوا﴾ ﴿بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ متعلق به ﴿كَمَا﴾ ﴿الكاف﴾ حرف جر وتشبيه ﴿ما﴾ مصدرية ﴿ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ جار ومجرور صلة الموصول ﴿بِخَلَـٰقِهِمْ﴾ متعلق باستمتع وجملة استمتع صلة ما المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف تقديره فاستمتعتم بخلاقكم استمتاعاً كائناً كاستمتاع الذين من قبلكم.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾

﴿وَخُضْتُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿استمتعتم﴾ ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، ولكنه على حذف مضاف تقديره: وخضتم في الباطل خوضاً كائناً، كخوض الفريق الذي خاضوا من قبلكم ﴿خَاضُوٓاْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول وأتى في العائد بضمير الجمع نظراً لمعنى الذي لأنه هنا عبارة عن الفريق ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿حَبِطَتْ﴾ ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ معطوف على الدنيا ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التقريري ﴿لم﴾ حرف جزم ﴿يَأْتِهِمْ﴾ فعل ومفعول مجزوم بلم ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾: بدل الموصول بدل بعض من كل ﴿وَعَادٍ﴾: معطوف على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَثَمُودَ﴾

معطوف عليه أيضاً مجرور بالفتحة، للعلمية والتأنيث المعنوي ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: معطوف عليه أيضاً وكذلك ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾: معطوفان عليه أيضاً ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾: فعل ومفعول وفاعل ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان نبأهم كما ذكره أبو السعود. ﴿فَمَا﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة على محذوف تقديره: أتتهم رسلهم بالبينات، فكذبوهم فأهلكوا ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود ﴿يظلمهم﴾: فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة أن المضمرة ﴿أن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لظلمه إياهم الجار والمجرور متعلق بمحذوف، خبر كان، تقديره: فما كان الله مريداً لظلمه إياهم، وجملة كان معطوفة على ذلك المحذوف ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿كَانُوٓا۟﴾ فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قدمه عليه للاهتمام به، ولرعاية الفاصلة وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾ وجملة الاستدراك معطوفة على جملة قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ أول ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ معطوف عليه ﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة ﴿يَأْمُرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان خصالهم الحميدة ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿يَأْمُرُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ متعلق به، وكذلك جملة قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوفاتٌ عليها أيضاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، مسوقة لبيان عاقبتهم الحسنة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ناصب واسمه وخبره ﴿حَكِيمٌ﴾ خبر ثان

له، الجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول ثان لـ ﴿وَعَدَ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل وجملة ﴿تَجْرِي﴾ في محل النصب صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ولكنها صفة سببية ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿فِيهَا﴾ متعلق به ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة أولى ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جار ومجرور، ومضاف إليه، صفة ثانية لـ ﴿مساكن﴾ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه، بما بعده ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿رضوان﴾ ﴿أَكْبَرُ﴾ خبر لـ ﴿رضوان﴾ والجملة مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ خبر المبتدأ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ الأذى: ما يؤلم الحي المدرك في بدنه، أو في نفسه، ولو ألماً خفيفاً، يقال: أوذي بكذا، أذًى، وتأذى تأذِّياً إذا أصابه مكروه يسير ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ والأذن: هو الذي يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله، ويصدقه، ويقولون: رجل أذن؛ أي: يسرع الاستمتاع والقبول، وفي «المختار» أذن له، إذا استمع، وبابه طرب، ورجل أُذن بالضم، إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع، اهـ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي؛ يصدقهم لما علم فيهم من علامات الإيمان، الذي يوجب عليهم الصدق ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: يخالفه ويخاصمه، وأصل المحادة في اللغة من الحد؛ أي: الجانب كأن كل واحد من المتخاصمين في محل غير محل صاحبه اهـ «خازن» يعني: أن المحادة من الحد، وهو طرف الشيء كالمشاقة من الشق بالكسر. وهو الجانب

ونصف الشيء المنشق منه، وهما بمعنى المعاداة، من العدوة بالضم: وهي جانب الوادي؛ لأن العدو يكون في غاية البعد عمن يعاديه عداء البغض، بحيث لا يتزاوران ولا يتعاونان، فكأنَّ كلا منهما في شق وعدوة غير التي فيها الآخر، إذ هما على طرفي نقيض، وهكذا المنافقون يكونون في الجانب المقابل للجانب الذي يحب الله لعباده، والرسول لأمته من الحق والخير، والعمل الصالح.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الحذر: الإحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه، ﴿مُخْرِجٌ﴾: من الإخراج والإخراج: إظهار الشيء الخفي المستتر، كإخراج الحب والنبات من الأرض ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ والخوض: الدخول في البحر، أو في الوحل، وكثر استعماله في الباطل، لما فيه من التعرض للأخطار ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ والاعتذار الإدلاء بالعذر، وهو ما يراد به محو أثر الذنب وترك المؤاخذة عليه، من عذر الصبي يعذره؛ أي: ختنه تطهيراً له، بقطع عذرته؛ أي: قلفته، وفي «الفتوحات» والاعتذار: التنصل من الذنب، وأصله من تعذرت المنازل؛ أي: درست وانمحت آثارها، فالمعتذر يزاول محو ذنبه، وقيل: أصله من العذر، وهو القطع، ومنه العذرة؛ لأنها تقطع، قال ابن الأعرابي: ويقولون اعتذرت المياه؛ أي: انقطعت، فكأن المعتذر يحاول قطع الذم عنه، اهـ «سمين» ﴿عَن طَآئِفَةٍ﴾ والطائفة: الجماعة من الناس، والقطعة من الشيء، يقال: ذهبت طائفة من الليل، ومن العمر، وأعطاه طائفةً من ماله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يقال: وعده في الخير والشر، والاختلاف إنما هو بالمصدر، فمصدر الأول: وعد، ومصدر الثاني: وعيد فاستعمل وعد في الشر، كما هنا، وفي الخير، فيما سيأتي في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ..﴾ إلخ وفي «المصباح» وعده وعداً يستعمل في الخير والشر، ويعدى بنفسه وبالباء، فيقال: وعده الخير وبالخير، وشراً وبالشر، وإذا أسقطوا لفظ الخير والشر.. قالوا في الخير: وعده وعداً، وعدةً، وفي الشر وعده وعيداً، فالمصدر فارق، وأوعده خيراً وشرًّا بالألف أيضاً، وقد أدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة، يقال: أوعده بالسجن اهـ.

﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾؛ أي: متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كما تقول: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد، لا افتراق بيننا ﴿بِٱلْمُنكَرِ﴾ وهو إما شرعي، وهو ما يستقبحه الشرع وينكره، وإما فطري، وهو ما تستنكره العقول الراجحة، والفطر السليمة، لمنافاته للفضائل، والمنافع الفردية، والمصالح العامة، وضده المعروف في كل ذلك ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ وقبض الأيدي يراد به الكف عن البذل، وضده بسط اليد ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تركوا أوامره حتى صارت عندهم بمنزلة المنسي ﴿فَنَسِيَهُمْۚ﴾؛ أي: فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجون عن الطاعة المنسلخون عن فضائل الإيمان ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ واللعن الطرد والإبعاد من الرحمة، والإهانة والمذلة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ والمقيم الثابت الذي لا يتحول ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾؛ أي: بنصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق، بمعنى التقدير: فإنه ما قدر لصاحبه، كما في «البيضاوي».

﴿وَخُضْتُمْ﴾؛ أي: دخلتم في الباطل وتلبستم به ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يقال: حبط العمل إذا فسد، وذهبت فائدته ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: من الخسارة والخسارة في التجارة تقابل الربح فيها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ﴾؛ أي: المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها، جمع مؤتفكة، من الائتفاك، وهو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفله بالخسف، وهي قرى قوم لوط، يقال: أَفَكَهُ إذا قلبه، وبابه ضرب وفي «السمين» والمؤتفكات؛ أي: المنقلبات، يقال: أفكته فأتفك؛ أي: قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف ومنه ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾؛ أي: يصرف اهـ.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾؛ أي: منازل يطيب العيش فيها، جمع مسكن، وهو من أوزان منتهى الجموع؛ لأنه على زنة مفاعل كمساجد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ لما فيه من إطلاق اسم الجزء

على الكل، للمبالغة في استماعه، كأنه عين آلة الاستماع، وفي «المصباح» أنه مجاز مرسل، كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئة؛ أي: طليعة وجاسوساً؛ لأن العين هي المقصودة منه، فصارت كأنها الشخص كله.

ومنها: إبراز اسم الرسول في قوله: ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ حيث لم يأت به ضميراً ولم يقل: يؤذونه تعظيماً لشأنه عليه السلام، وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين، النبوة والرسالة، وفيه أيضاً إضافة إليه زيادةً في تشريفه.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾.

ومنها: الإشارة بالبعيد عن القريب، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ لأن قبض الأيدي كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الكرم والجود.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، لأنه مجاز عن الترك، ففيه إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لأن فيه التفاتاً عن الغيبة في قوله: المنافقون إلى الخطاب لزيادة التقريع والتوبيخ.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ...﴾ الآية، والغرض منه: الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس عن الشيء النفيس.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ﴾ فهو رجوع إلى الغيبة عن الخطاب، ففيه التفات وفيه أيضاً الاستفهام التقريري، حملاً لهم على الإقرار بما بعد النافي.

ومنها: تقديم المفعول في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لمجرد الاهتمام به، مع مراعاة الفاصلة، من غير قصدٍ إلى قصر المظلومية عليهم، كما ذكره أبو السعود.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ تسجيلاً عليهم بأنهم يستحقون جهنم باسم النفاق، وفي قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إشعارا بأنهم يستحقون ذلك الجزاء بصفة الإيمان، وزيادة في التقرير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دلالة على التحقير والتقليل.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف[1] المؤمنين بشريف الصفات، ووعدهم بأجزل الثواب، وأرفع الدرجات.. أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين، وإنذارهم بالجهاد، كالكفار المجاهرين بكفرهم، إذا هم استرسلوا في إظهار ما ينافي الإسلام، من الأقوال والأفعال، كالقول الذي قالوه وأنكروه بعد أن أظهره

(١) المراغي.

الله عليه، وكذبهم في إنكارهم.

وجهادهم أن لا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين، فيقابلون بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر، إلى نحو ذلك مما سيذكر.

وقال أبو حيان[1]: لمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى وعيد غير المؤمنين، وكانت السورة قد نزلت في المنافقين.. بدأ بهم في ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ ولمَّا ذكر أمر الجهاد، وكان الكفار غير المنافقين أشد شكيمة، وأقوى أسباباً في القتال، وأنكاءً بتصديهم للقتال، قال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فبدأ بهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين، أغناهم الله تعالى بعد فقرٍ وإملاقٍ، وقد كانوا يلجؤون إلى الله وقت البأساء والضراء، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له، والطاعة لشرعه، إذا هو كشف ضرهم وأغناهم بعد فقرهم، فلما استجاب دعاءهم.. نكصوا على أعقابهم، وكفروا النعمة، وهضموا حقوق الخلق، ومثل هؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر بخل المنافقين، وشحهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله.. أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا في جرمهم على هذا الحد، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين، وذمهم في صدقاتهم غنيهم وفقيرهم، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حدّ لم يعد لهم فيه أدنى حظٍ من الإسلام، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول، ودعائه لهم، لرسوخهم في الكفر بالله ورسوله وعدم الرجاء في إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر بعض سوءات المنافقين من اعتذارهم للمؤمنين عن الخروج معهم للقتال، ولمزهم في قسمة الصدقات، وفي

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

إعطائهم.. عاد إلى الكلام في ذكر حال الذين تخلفوا عن القتال في عزوة تبوك وظلوا في المدينة، وبيان ما يجب من معاملة هؤلاء بعد الرجوع إليها، وقد نزل ذلك أثناء السفر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان الجلاس بن سويد بن الصامت ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقال: لئن كان هذا الرجل صادقاً.. لنحن شر من الحمير، فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ، فحلف بالله ما قلت، فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ...﴾ الآية، فزعموا أنه تاب وحسنت توبته.

ثم أخرج عن كعب بن مالك نحوه، وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك، قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين، يقول والنبي ﷺ، يخطب: إن كان هذا صادقاً.. لنحن شر من الحمير، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فجحد القائل: فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ...﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ، جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان»، فطلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك»، فانطلق الرجل: فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ...﴾ الآية، وأخرج[2] قتادة، قال: إن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، وظهر الغفاري على الجهيني، فقال عبد الله بن أبي للأوس: انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة.. ليخرجن الأعز منها الأذل، فسعى رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فسأله، فجعل يحلف بالله

---

(١) لباب النقول.

(٢) لباب النقول.

ما قال، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟. . .﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟. . .﴾ سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، عن ابن عباس، قال: همَّ رجلٌ، يقال له: الأسود، بقتل النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟. . .﴾.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ عن عكرمة، أن مولى بني عدي بن كعب، قتل رجلاً من الأنصار، فقضى النبيُّ ﷺ، بالدية اثني عشر ألفاً، وفيه نزلت: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال: بأخذهم الدية.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ. . .﴾ الآية، أخرج[1] الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل»، بسند ضعيف، عن أبي أمامة، أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: «ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه» قال: والله لئن آتاني الله مالاً. . لأوتين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتَّخذ غنماً فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة، فتنحى بها، وكان يشهد الصلاة ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها، ثم نمت فتنحى بها فترك الجمعة والجماعات، ثم أنزل الله على رسوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فاستعمل على الصدقات رجلين، وكتب لهما كتاباً فأتيا ثعلبة، فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: انطلقا إلى الناس، فإذا فرغتم. . فمروا بي، ففعلا، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فانطلقا فأنزل الله عز وجل ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ الحديث بطوله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الشيخان، عن أبي مسعود، قال: لما نزلت آية الصدقة. . كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء آخر فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ. . .﴾

---

(١) لباب النقول.

الآية وورد نحو هذا من حديث أبي هريرة، وأبي عقيل، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وعميرة بنت فهد بن رافع، أخرجها كلها ابن مردويه.

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس، قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجل: يا رسول الله الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا تنفروا في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ الآية.

وأخرج عن محمد بن كعب القرظي. قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم محمد ﷺ، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾؛ أي: جاهد المجاهرين بالكفر، بالسيف والسِّنان ﴿و﴾ جاهد ﴿المنافقين﴾؛ أي: الساترين كفرهم بإظهار الإسلام بالحجة واللسان، لا بالسيف، لنطقهم بكلمتي الشهادة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: واشدد على كلا الفريقين بالفعل والقول، ولا ترأف عليهم والغلظ: نقيض الرأفة، وهو شدة القلب، وخشونة الجانب، قيل: وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح المذكور في القرآن.

والأمر للنبي ﷺ بهذا الجهاد أمرٌ لأمته من بعده، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عن النفاق، ويؤمنوا بالله تعالى.

والمعنى: يا أيها النبي ابذل جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين، اللتين تيعشان بين ظهرانيك، بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك، وعاملهما بالغلظة والشدة، التي توافق سوء حالهما.

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا، أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة، أو

امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه، وعن ابن عباس: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان؛ أي: بالحجة والبرهان.

وكان كفار اليهود يؤذون النبي ﷺ حتى بتحريف السلام عليه، بقولهم: السام عليكم، والسام: الموت، فيقول: «وعليكم» ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر، فجرأهم هذا على أذاه ﷺ، بنحو قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ فأمره الله تعالى في هذه الآية بالغلظة على الفريقين، في جهاده التأديبي لهم، لأن أمثالهم لا علاج له إلا هذا.

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة، لأنه موقف وسط بين رحمته ولينه للمؤمنين المخلصين، وشدته في قتاله لأعدائه المحاربين، يجب فيه إقامة العدل، واجتناب الظلم، وأثر عن عمر أنه قال: أذلوهم، ولا تظلموهم، وفي هذه الغلظة تربية للمنافقين، وعقوبة لهم، يرجى أن تكون سبباً في هداية من لم يطبع الكفر على قلبه، ولم تحط به خطايا نفاقه، فتقطيب وجهه ﷺ في وجوههم تحقيرٌ لهم، يتبعه فيه المؤمنون، ومن ير أنه محتقرٌ بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره.. يضق صدره، ويحاسب نفسه، ويثب إلى رشده، ويتب إلى ربه، وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين، وإسلام ألوف الألوف من الكافرين، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾؛ أي: ومسكنهم ومنزلهم في الآخرة نار جهنم؛ أي: لا مأوى لهم يلجؤون إليه، إلا دار العذاب، التي لا يموت من أوى إليها، ولا يحيا حياة طيبة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي وقبح المرجع لهم هي ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان عاقبة أمرهم.

والخلاصة: أنهم قد اجتمع لهم عذابان عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة، وعذاب الآخرة، بأن تكون جهنم مأواهم.

ثم ذكر سبحانه، الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار، وهي أنهم أظهروا الكفر بالقول، وهموا بشر ما يغرى به من الفعل، وهو الفتك برسول الله ﷺ، وقد أظهره الله عليه، وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم، ويحلفون على إنكارهم

ليصدقهم كدأبهم من قبل، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ ويخوضون في آيات الله وفي رسوله، استهزاءً خرجوا به من الإيمان الذي يدعونه إلى الكفر الذي يكتمونه، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يحلف ويقسم لك، يا محمد، هؤلاء المنافقون باسم الله تعالى على أنهم ﴿مَا قَالُوا۟﴾ تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم، ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر، التي رويت عنهم، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد قالوا كلمة الكفر، التي نسبت إليهم بتوافقهم على شتم النبي ﷺ، وطعنهم على دينه ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾؛ أي: أظهروا الكفر وجاهروا بالحرب بتلك الكلمة بعد أن أظهروا الإسلام، وإن كانوا كفاراً في الباطن.

والمعنى: أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم، على تقدير صحة إسلامهم ﴿وَهَمُّوا۟﴾؛ أي: قصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾؛ أي بما لم يصيبوا، ولم يقدروا على تحصيله، قيل: هو همهم بقتل رسول الله ﷺ، ليلة العقبة في غزوة تبوك، كما قاله ابن كثير، وقيل: هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبي، وقيل غير ذلك.

ولم يذكر القرآن تلك الكلمة التي قالوها؛ لأنه لا ينبغي ذكرها، ولئلا يتبعد بتلاوتها، وأصح ما قيل فيها: ما رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرةٍ، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء.. فلا تكلموا» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك»؟ إلى آخر ما سبق في أسباب النزول، وأما همهم بما لم ينالوا فهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة عند منصرفه من تبوك.

روي: أنّ[1] المنافقين هموا بقتله ﷺ عند رجوعه من تبوك، وهم خمسة عشر رجلاً، قد اتفقوا على أن يدفعوه ﷺ عن راحلته ليقع في الوادي فيموت،

---

(١) المراح.

فأخبره الله تعالى بما دبروه، فلما وصل إلى العقبة التي بين تبوك والمدينة.. نادى مناديه بأمره، أن رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد غيره، واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي وسلك النبي ﷺ العقبة، وكان ذلك في ليلة مظلمة، فجاء المنافقون وتلثموا وسلكوا العقبة، وكان النبي ﷺ، قد أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام ناقته ويقودها، وأمر حذيفة أن يسوقها من خلفها، فبينما النبي ﷺ يسير في العقبة.. إذ زحمه المنافقون، فنفرت ناقته حتى سقط بعض متاعه، فصرخ بهم، فولوا مدبرين وعلموا أنه اطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي، واختلطوا بالناس، فصار حذيفة يضرب الناقة، فقال له النبي ﷺ: «هل عرفت أحد منهم؟» قال: لا فإنهم كانوا متلثمين، والليلة مظلمة، قال: «هل علمت مرادهم؟»، قال: لا، قال النبي ﷺ: «إنهم مكروا، وأرادوا أن يسيروا معي في العقبة، فيزحموني عنها، وإنّ الله أخبرني بهم وبمكرهم» فلما أصبح.. جمعهم، وأخبرهم بما مكروا به، فحلفوا بالله ما قالوا بتكذيب النبي ﷺ ونسبته إلى التصنع في ادعاء الرسالة، ولا أرادوا فتكه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قالوا: أولا تأمرنا بهم يا رسول الله، إذاً فنضرب أعناقهم؟ قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه» فسماهم لهما، وقال: «اكتماهم».

والصحيح[1] في عددهم: ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «في أمتي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ـ خراج ودمل كبير يظهر في الجوف، يقتل صاحبه كثيراً ـ سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم؛ أي: كأنه سراج من النار.

---

(١) المراغي.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾؛ أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون، وما كرهوا من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة، والهم بالانتقام ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله ﷺ من فضله بالغنائم، التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة، وكانوا كسائر الأنصار فقراء، فأغناهم الله تعالى ببعثة الرسول ونصره، وبما آتاه من الغنائم، كما وعده، ومن ثم قال ﷺ للأنصار: «كنتم عالةً فأغناكم الله بي».

فإن[1] هؤلاء المنافقين، كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحرزون الغنيمة، وبعد قدومه ﷺ أخذوا الغنائم، وفازوا بالأموال، ووجدوا الدولة. وقتل للجلاس مولى، فأمر له رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى وذلك يوجب عليهم أن يكونوا محبين له ﷺ، مجتهدين في بذل النفس والمال لأجله، فعملوا بضد الواجب، فوضعوا موضع شكره ﷺ أن كرهوه وعابوه.

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟﴾ من النفاق، وما يصدر عنه من مساوي الأقوال والأفعال، كما وقع للجلاس بن سويد، فإنه تاب وحسنت توبته ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدنيا والآخرة، أما في[2] الدنيا فبما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والعمل لما فيه السعادة في الآخرة ومعاشرة الرسول ﷺ، ومشاهدة فضائله، وأخوة المؤمنين، بعضهم لبعض، وما فيها من الود والوفاء الكامل، والإيثار على النفس إلى نحو ذلك.

وأما في الآخرة: فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين، من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: يعرضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بقتلهم وسبي أولادهم وأزواجهم، واغتنام أموالهم؛ لأنه لما ظهر كفرهم بين الناس.. صاروا مثل أهل الحرب. فيحل قتالهم ﴿و﴾ في ﴿الآخرة﴾ بالنار

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

وغيرها، من أفانين العقاب.

والمعنى[1]: وإن أعرضوا عما دعوا إليه من التوبة، وأصروا على النفاق، وما ينشأ منه من المساوي الخلقية والنفسية.. يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع، كما قاله سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ فهم في جزع دائم، وهمّ ملازم.

وأما في الآخرة: فحسبك ما تقدم من وعيدهم بتلك النار، التي تطلع على الأفئدة ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: من حافظ يحفظهم من عذاب الدنيا ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذهم من عذاب الآخرة.

أي: وما لهم في الأرض كلها من يتولى أمورهم، ولا من ينصرهم ويدافع عنهم، إذ من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجيره، أما في الدنيا: فقد أغلقت في وجوههم الأبواب، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصر بالمؤمنين والمؤمنات، دون المنافقين والمنافقات، وقد قضىٰ الإسلام على جوار الجاهلية، وعلى أحلافهم من أهل الكتاب في الحجاز بالقتل والجلاء، وأما في الآخرة: فقد تظاهرت النصوص، على أنه لا ولي ولا ظهير للكفار والمنافقين ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: ومن المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾؛ أي: من أعطى الله سبحانه وتعالى عهده وميثاقه، بقوله: والله ﴿لَئِنْ آتَانَا﴾ الله سبحانه وتعالى، وأعطانا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وجوده وكرمه وعطائه مالاً وثروةً، وأغنانا عن غيرنا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ أي: لنشكرن له نعمته بالصدقة منها، ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ﴾ جملة ﴿الصَّالِحِينَ﴾ من المؤمنين، القائمين بواجبات الدين، التاركين لمحرماته، والصالح ضد المفسد، والمفسد هو الذي بخل بما يلزمه في حكم الشرع؛ أي: ولنعملن عمل أهل الصلاح بأموالنا من صلة الرحم به، والإنفاق في سبيل الله،كإعداد العدة للجهاد، وبذل المستطاع لخير الأمة وصلاحها، بما يرقى بها في مختلف شؤونها، وقرأ الأعمش شاذاً:

---

(١) المراغي.

﴿لنصدقن ولنكونن﴾ بالنون الخفيفة، واللام الأولى؛ أعني قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ لام القسم. كما أشرنا إليه في الحل، واللام الثانية؛ أعني قوله: ﴿لنصدقن﴾، لام الجواب للقسم ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾؛ أي: فلما رزقهم الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم ما طلبوا ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وعطائه ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بما آتاهم وأمسكوه عن الإنفاق في سبيل الله، فلم يتصدقوا منه بشيء، كما حلفوا به ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾؛ أي: وأعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، وإصلاح حالهم وحال أمتهم، كما عاهدوا الله عليه ﴿وَّهُم﴾؛ أي: والحال أنهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم عن طاعة الله تعالى في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده.

والمعنى: لم يكن ذلك التولِّي عارضاً طارئاً، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوةٍ، بحافز نفسيٍّ، ملك عليهم أمرهم، ومنعهم عن التصدق، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجب عليهم.. لا يذكرون، وإذا دعوا لا يستجيبون.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى، وأورثهم بسبب البخل الذي وقع منهم، والإعراض عن الإنفاق ﴿نِفَاقًا﴾ وكفراً كائناً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متمكناً منها، مستمرًّا فيها ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يلقون الله سبحانه وتعالى، ويرونه في الآخرة، وحكمة الجمع في هذه الضمائر مع أن سبب نزولها في شخص واحد: الإشارة إلى أن حكم هذه باق لكل من اتصف بهذا الوصف، من أول الزمان إلى آخره، وليس مخصوصاً بثعلبة، وهذا التفسير على أن الضمير في أعقبهم إلى الله تعالى، وقيل: إن الضمير يرجع إلى البخل، والمعنى عليه: فأعقبهم ذلك البخل بما عاهدوا الله عليه، والتولِّي عنه بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان، نفاقاً كائناً في قلوبهم متمكنًا منها، وملازماً لها إلى يوم يلقون بخلهم؛ أي: جزاء بخلهم؛ أي: ملازماً لها إلى يوم الحساب في الآخرة؛ لأنه لا رجاء معه في التوبة، يعني: أنه سبحانه حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، فيوافونه على النفاق، فيجازيهم عليه، ومعنى ﴿أعقبهم﴾ أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، ثم ذكر الله سبحانه سببين هما من أخس أوصاف

المنافقين، إخلاف الوعد، والكذب، فقال: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ والباء فيه وفيما بعده للسببية؛ أي: فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم، بسبب إخلافهم وتركهم لما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ وقرأ أبو رجاء: ﴿يكذِّبون﴾ بالتشديد؛ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله ﷺ، أي: أنَّ سنة الله في البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق في القلب ويقويه، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوةً ورسوخاً في النفس. وهكذا جميع الأخلاق والعقائد، تقوّىٰ وترسَّخ بالعمل الذي يصدر منها، فهؤلاء لما كان قد رسخ في قلوبهم خلف الوعد واستمرار الكذب.. مكن ذلك النفاق في قلوبهم، بمقتضى سننه وتقديره.

أخرج ابن جرير، وابن مردويه والبيهقي، عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية، أن رجلاً من الأنصار، يقال له: ثعلبة، أتى مجلساً، فأشهدهم، قال: لئن آتاني الله من فضله.. آتيت كل ذي حق حقه، وتصدقت، وجعلت منه للقرابة، فابتلاه الله، فآتاه من فضله، فأخلف ما وعده، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده، فقص الله تعالى شأنه في القرآن اهـ.

وكان[1] ثعلبة في ابتداء أمره صحيح الإسلام، لكنه صار منافقاً في آخر أمره، فصح كونه من المنافقين، اهـ شيخنا.

وفي «الشهاب» قيل: كان ثعلبة قبل ذلك ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ حتى لقب بحمامة المسجد، ثم رآه النبيُّ ﷺ يسرع الخروج من المسجد عقب الصلاة، فقال له رسول الله ﷺ «ما لك تفعل فعل المنافقين؟» فقال: إني افتقرت ولي ولامرأتي ثوب واحد، أجيء به للصلاة، ثم أذهب فأنزعه لتلبسه وتصلي به، فادع الله أن يوسع في رزقي... إلى آخر ما في القصة اهـ.

قال بعض العلماء[2]: إنما لم يقبل رسول الله ﷺ صدقة ثعلبة لأن الله

---

(١) الفتوحات.

(٢) الفتوحات.

سبحانه وتعالى، منعه من قبولها منه، مجازاة له على إخلافه ما عاهد الله عليه، وإهانةً له على قوله: إنما هي جزية، أو أخت الجزية، فلما صدر هذا القول منه.. ردت صدقته عليه، إهانة له، وليعتبر غيره به، فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها، ويرى أنها واجبة عليه ويثاب على إخراجها ويعاقب على منعها.

وفي «الخازن»: وهذا أحد قولين في سبب نزولها، والآخر: أنه حاطب بن أبي بلتعة، قال ابن السائب: إنَّ حاطب بن أبي بلتعة، كان له مال بالشام، فأبطأ عليه، فجهد لذلك جهداً شديداً، فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله، يعني ذلك المال.. لأصدقن منه، ولأصلن قرابتي، فلما آتاه ذلك المال.. لم يف بما عاهد الله عليه، فأنزل الله هذه الآية اهـ.

وحاصل ما في المقام: أن ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله، لئن آتاه من فضله.. ليصدقن، وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة، فلما آتاه الله من فضله ما سأل.. لم يَفِ بما عاهد الله عليه، بلا تعيين واحد منهم.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد، وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر.. فليجتهد في الوفاء به.

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ رجوع لما سبق، في قوله: المنافقون والمنافقات، لا بقيد كونهم الذين عاهدوا الله، إذ الآيات الواردة في خصوص المعاهدين قد انقضت بقوله: ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع المضمن للإنكار.

وقرأ عليٌّ وأبو عبد الرحمن والحسن[1]: ﴿تَعْلَمُوا﴾ بالتَّاء خطاباً للمؤمنين على سبيل التقرير؛ أي: ألم يعلم المنافقون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ﴾؛ أي: جميع ما يسرونه من النفاق ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: جميع ما يتناجون به ويتحدثون فيما بينهم، من الطعن على النبي ﷺ وعلى أصحابه وعلى دين

---

(١) البحر المحيط.

الإسلام ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ أي: ما غاب عن الخلق، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة، كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين.

أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون به، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان، ولَمْزِ الرسول، أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر الكامن في أعماق نفوسهم، الذي يخصون به من يثقون به، ممن هو مشارك لهم في النفاق، وأن الله تعالى يعلم الغيوب كلها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ محله[1] إما الرفع على الابتداء، وخبره قوله الآتي: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهو أوضح الإعراب فيه، أو النصب على الذم، أو الجر، بدلاً من الضمير في سرهم ونجواهم، وقرىء: ﴿يَلمُزون﴾ بضم الميم؛ أي: أولئك المنافقون الذين يلمزون ويعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يلمزون المتطوعين والمتبرعين من المؤمنين، ويعيبونهم في شأن الصدقات التي هي أظهر آيات الإيمان، ويذمونهم في أكمل فضائلهم، ويقولون: ما فعلوها لوجه الله، وإنما فعلوها رئاء الناس، سخر الله منهم، فلَمْزُهم[2] هنا في مقدارها وصفة أدائها لا فيها نفسها، واللمز هناك؛ أي: في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ في قسمتها، وقد جاء في بعض الروايات:

أن النبي ﷺ حث على الصدقة، فجاء عمر بصدقة، وجاء عثمان بصدقة عظيمة، وكثير من أصحابه بصدقات، فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء، وأما أبو عقيل: فإنما جاء بصاعه ليذكِّر بنفسه، فيعطىٰ من الصدقات، والله غني عن صاعه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ معطوف[3] على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

عطف خاص على عام، وليس معطوفاً على البيان، لإيهام أن المعطوف ليس من المؤمنين؛ أي: ويلمزون الفقراء الذين لا يجدون إلا طاقتهم، ويعيبونهم ويطعنونهم في صدقاتهم القليلة؛ أي: يعيبون الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم. وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ معطوف على الصلة؛ أعني يلمزون، فالصلة أمران: اللمز، والسخرية.

والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم، فيسخرون منهم؛ أي: يستهزئون بهم؛ لحقارة ما يخرجونه في الصدقة، وعدّه من الحماقة والجنون، مع كون ذلك جهد المقل وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه، وخص هؤلاء بالذكر، وإن كانوا داخلين في المتطوعين؛ لأنَّ مجال لمزهم عند المنافقين أوسع، والسخرية منهم أشد، وهم أهل الإجلال والإكبار، والأحق بالثناء عند المؤمنين.

وقرأ ابن هرمز وجماعة شذوذاً[1]: ﴿جَهْدهم﴾ بالفتح. والجُهد بالضم: الطاقة، وبالفتح: المشقة، وقيل: هما لغتان، ومعناهما واحد، وقال الشعبي: بالضم: القوت. وبالفتح: في العمل، وقيل: بالضم، شيءٌ قليل يعاش به. وقوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ خبر المبتدأ السابق، في قوله الذين يلمزون؛ أي[2]: جازاهم على ما فعلوه من السخرية المؤمنين، بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم في الدنيا بفضيحتهم وقتلهم، وهو خبر ليس بدعاء عليهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة.

والمعنى: أي فجازاهم الله بمثل ذنبهم، فجعلهم سخريةً للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحتهم في هذه السورة، ببيان مخازيهم وعيوبهم، وقيل: هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمؤمنين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: وجيع في الآخرة.

ثم بيَّن سبحانه عقابهم وسواهم بالكافرين، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.

محمد ﷺ إن شئت ﴿أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ إن شئت، وهذا كلام خرج مخرج الأمر، ومعناه: الخبر، تقديره استغفارك لهم وعدمه سواء، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائهما.

والحاصل: أن هذا الأمر تخيير له ﷺ في الاستغفار وتركه، ومعناه: إخبار باستواء الأمرين؛ أي: إن شئت فاستغفر لهم، وإن شئت فلا تستغفر لهم، فاستغفارك لهم وعدمه سواء، وقوله: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ بيانٌ لاستحالة المغفرة لهم بعد المبالغة في الاستغفار، إثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه، ذكره أبو السعود، ومعنى قوله: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾؛ أي: إن[1] تدع لهؤلاء المنافقين وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها وترك فضيحتهم بها، أو لا تدع لهم بالمغفرة فلن يغفر الله لهم؛ أي لن يستر الله عليهم، ولن يعفو عنهم، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً كما في سائر مفاهيم الأعداد، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول، فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى أنه لن يغفر الله لهم، وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ، ويراد بالسبعين في مثل هذا الأسلوب: الكثرة لا العدد المعين، فالمراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار لهم.. فلن يستجاب لك فيهم، وقد كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله، فيتوب عليهم، ويغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» رواه ابن ماجه، وقال الضحاك: ولما نزلت هذه الآية.. قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد رخَّص لي، فسأزيدن على السبعين، لعل الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله سبحانه ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾.

وقد ذهب بعض الفقهاء[2]: إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

قبول الزيادة عليه، ويدل على ذلك، ما روي عن النبي ﷺ، أنه قال: «لأزيدن على السبعين» وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً، فقال: إن السبعة عدد شريف؛ لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة، والأعضاء السبعة، وأيام الأسبوع، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وقيل: خصت السبعين بالذكر؛ لأنه ﷺ كبر على عمه حمزة سبعين تكبيرة، فكأنه قال: إن تستغفر لهم سبعين مرة، بإزاء تكبيراتك على حمزة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: امتناع المغفرة لهم، ولو بعد المبالغة في الاستغفار، ليس لعدم الاعتداد باستغفارك، بل بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وفي «الكرخي» ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: اليأس من الغفران لهم، بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، لا ببخل منا، أو قصورٍ فيك، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنها. اهـ؛ أي: ذلك المذكور بسبب[1] جحودهم وحدانية الله تعالى، وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه، من العلم بالسر والنجوى وسائر الغيوب، وجحودهم وحيه لرسوله ﷺ وبما أوجبه من أتباعه، وجحودهم بعثه للموت، وجزاءهم على أعمالهم، لم يعف عن ذنوبهم، ولا عمَّا دسُّوا به أنفسهم من الآثام والمعاصي ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: المتمردين الخارجين عن الطاعة، المتجاوزين لحدودها، والمراد[2] هنا: الهداية الموصلة إلى المطلوب، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق؛ أي: أنَّ سنة الله سبحانه قد جرت فيمن أصرُّوا على فسوقهم، وتمرَّدوا في نفاقهم، وأحاطت بهم خطاياهم، أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان، فلا يهتدون إليهما سبيلاً.

والمعنى: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله، وطاعة رسوله، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه، لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره، وهو عدم يأسه من

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

إيمانهم، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ. . .﴾ الآية، ذكره البيضاوي.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين، فقال: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: المخلفون من هؤلاء المنافقين، الذين تركهم رسول الله ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم في بيوتهم في المدينة ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بعد خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، أو مخالفين الله ورسوله، وإنما فرحوا بذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من أجر عظيم، لا تذكر معه راحة القعود في البيوت شيئاً، والمخلفون اسم مفعول، من خلف إذا ترك، فالمخلفون المتروكون، وهم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة، أو الذين خلفهم وأقعدهم الكسل أو خلفهم الله تعالى، بتثبيطه إياهم، لما علم في ذلك من الحكمة الخفية، أو خلفهم كسلهم، أو نفاقهم، كما ذكره أبو السعود ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم، يقال قعد قعوداً ومقعداً؛ أي: جلس ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، ظرف زمان، بمعنى بعد خروج رسول الله إلى تبوك، وإليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمرو الأخفش، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وأبي حيوة، وعمرو بن ميمون ﴿خلف﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، أو مفعول لأجله، والعامل فيه إما فرح، وإما مقعد؛ أي: فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله ﷺ، حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه، أو بقعودهم لمخالفتهم له، وإليه ذهب الطبري والزجاج، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: ﴿خلف﴾ بضم الخاء وسكون اللام، أو منصوب على المصدرية، بفعل مقدر مدلول عليه، بقوله: ﴿مقعدهم﴾ لأنه في معنى تخلفوا؛ أي: تخلفوا خلاف رسول الله.

وقرأ ابن مسعود وابن يعمر والأعمش وابن أبي عبلة[1]: ﴿خلف رسول الله﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، وقرىء: ﴿خلف﴾ بضم الخاء وسكون اللام

---

(١) زاد المسير.

﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن في المجاهدة إتلاف المال والنفس، سبب ذلك الشح بالأموال والأنفس، وعدم وجود باعث الإيمان وداعي الإخلاص، ووجود الصارف عن ذلك، وهو ما هم فيه من النفاق، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لوجود الداعي معهم وانتفاء الصارف عنهم ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: قال المنافقون بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم، وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله؛ أي: لا تخرجوا مع محمد ﷺ إلى غزوة تبوك في الحر الشديد، ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي هي موعدهم في الآخرة ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من حر الدنيا ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يعلمون أنَّ مآبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

والمعنى[1]: أنكم أيها المنافقون، كيف تفرون من هذا الحر اليسير، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشد حرًّا مما فررتم منه، فإنكم إنما فررتم من حر يسير في زمن قصير، ووقعتم في حر كثير في زمن كبير، بل غير متناهٍ أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وجواب لو، في قوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ محذوف تقديره: لو كانوا يفقهون أنها كذلك.. لما فعلوا ما فعلوا.

وقرأ عبيد الله[2]: ﴿يعلمون﴾ مكان يفقهون، وينبغي أن يحمل ذلك على معنى التفسير؛ لأنه مخالف لسواد ما أجمع المسلمون عليه.

وحاصل معنى الآية: أي[3] وقالوا لإخوانهم في النفاق إغراءً لهم بالثبات على المنكر، وتثبيطاً لعزائم المؤمنين: لا تنفروا في الحر، قل لهم أيها الرسول، مفنداً آراءهم، ومسفهاً أحلامهم: نار جهنم التي أعدها الله لمن عصاه وعصى

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

رسوله أشد حرًّا في تلك الأيام في أوائل فصل الخريف، إذ هذا الحر مما تحتمله الجسوم، ولا يلبث أن يخف ويزول، ونار جهنم حرها شديد دائم، يلفح الوجوه، وينضج الجلود، فهم لو كانوا يعقلون ذلك، ويعتبرون به.. لما خالفوا وقعدوا، ولما فرحوا بقعودهم، بل لحزنوا وبكوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾؛ أي: فليضحك[1] هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرحين بمقعدهم خلافه قليلاً في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ في الآخرة مكان ضحكهم في الدنيا، وهذا وإن ورد بصيغة الأمر، إلا أن معناه الإخبار.

والمعنى: إنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة؛ لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل، وإنما جيء[2] بهما على صيغة الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم، لا يكون غيره، وانتصاب ﴿جَزَآءً﴾ على المصدرية بعامل محذوف، تقديره: يجزون ذلك البكاء الكثير في الآخرة جزاءً ﴿بِـ﴾ سبب ﴿ما كانوا يكسبون﴾ه في الدنيا من المعاصي؛ أي: يجزون به جزاء على ما يقولونه، ويعملونه من المعاصي. أو المعنى[3]: إن الأجدر بهم، بحسب ما تقتضيه حالهم، وتستوجبه جريمتهم، أن يضحكوا قليلاً ويبكوا كثيراً في الدنيا، لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف من أجر، وما سيحملونه في الآخرة من وزر، وما يلاقونه في الدنيا من خزي وضرٍّ، جزاء لهم على ما اجترحوا من العصيان، وارتكبوا من الإثم والبهتان، وكما يدين الفتى يدان.

ونحو الآية قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم.. لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً يظهر النفاق، وترتفع الأمانة وتقبض الرحمة، ويتهم الأمين، ويؤتمن غير الأمين،

---

(١) الخازن.
(٢) الشوكاني.
(٣) المراغي.

أناخ بكم الشرف الجون، الفتن كأمثال الليل المظلم»، الشرف بضمتين جمع شارف، وهي الناقة الكبيرة السن، والجون السود.

ثم بين ما يجب أن يعاملوا به في الدنيا قبل الآخرة، مما يقتضي تركهم الفرح، والغبطة في دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام فقال: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى يا محمد، من غزوة تبوك، وردَّك من سفرك هذا، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إلى طائفة من المنافقين المتخلفين عنك في المدينة، وإنما قال إلى طائفة منهم؛ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين، بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين، الذين لهم أعذار صحيحة، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له، ثم عفا عنهم رسول الله ﷺ، وتاب الله عليهم، كالثلاثة الذين خلفوا، وسيأتي بيان ذلك، وقيل: إنما قال: إلى طائفة؛ لأن منهم من تاب عن النفاق، وندم على التخلف.

﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك؛ أي: ليخرجوا معك في غزوة أو غيرها، مما تخرج لأجله ﴿فَقُل﴾ لهم يا محمد إخراجاً لهم عن ديوان الغزاة، وإبعاداً لمحلهم عن محفل صحبتك ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ في سفر من الأسفار، ولن يكون لكم أبداً شرف الصحبة بالخروج معي للجهاد في سبيل الله تعالى، ما دمت ودمتم ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ من الأعداء لا بالخروج والسفر إليهم ولا بغير ذلك، كأن يهاجم المؤمنون في عقر دارهم، كما حدث يوم وقعة الأحزاب.

وقرىء[1]: ﴿معي﴾ في الموضعين بفتح الياء، وقرىء: بسكونها فيهما، ثم بين سبب النهي عن صحبتهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتخلفون ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ عن الغزو ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهي غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُوا۟﴾ عن الجهاد ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ أي: مع النساء والصبيان والرجال العاجزين، كالمرضى والزمنىٰ، الذين لا يكلفون القيام بشرف الجهاد دفاعاً عن الحق، وإعلاءً لكلمة الله تعالى، وجملة

---

(١) الشوكاني.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ﴾ للتعليل؛ والفاء في قوله: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها.

والمعنى[1]: لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا عدوًّا؛ لأنكم رضيتم لأنفسكم بخزي العقود والتخلف أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج، إذ طلب إليكم أن تنفروا، فلم تنفروا، وعصيتم الله ورسوله، فاقعدوا أبداً مع الذين تخلفوا عن النفر، من الأشرار المفسدين، الذين خرجوا عن سبيل المهتدين، وربما كان المراد بالمخالفين الصبيان والعجزة والنساء، كما مرَّ آنفاً.

والخالفين[2] جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين، والمراد بهم: من تخلَّف عن الخروج، وقيل: المعنى: فاقعدوا مع الفاسدين من قولهم: فلان خالف أهل بيته، إذا كان فاسداً فيهم، من قولك: خلف اللبن، إذا فسد بطول المكث في السقاء، ذكر معناه الأصمعيُّ، وقرأ[3] مالك بن دينار وعكرمة مع ﴿الخلفين﴾، وهو مقصورٌ من الخالفين.

وفي الآية[4]: دليلٌ على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه، وخداع وبدعة.. يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم، وذمهم وطردهم، وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾ حرف نداء ﴿أيُّ﴾ منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، تعويضاً عمَّا فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة ﴿النَّبِيُّ﴾ صفة لـ﴿أيُّ﴾ وجملة

---

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) الخازن.

النداء مستأنفة ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب للنداء، لا محل لها من الإعراب، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿وَٱغْلُظْ﴾ فعل أمر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿جَٰهِدِ﴾ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، ومضاف إليه ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله، كما ذكره أبو السعود. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فعل وفاعل، والجملة خبر عن المخصوص بالذم المحذوف وجوباً تقديره: وبئس المصير هي.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما صدر عنهم، من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم، والغلظة عليهم، كما ذكره أبو السعود ﴿مَا﴾ نافية ﴿قَالُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لقول محذوف، تقديره: يحلفون بقولهم: والله ما قالوا ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿اللام﴾ موطئة لقسم محذوف ﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مستأنفة مسوقة لبيان حالهم. ﴿وَكَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالُوا۟﴾ ﴿وَهَمُّوا۟﴾ فعل وفاعل معطوف على قالوا أيضاً ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق به ﴿لَمْ يَنَالُوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل والجملة صلة لـ ﴿ما﴾: أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لم ينالوه.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾ نافية ﴿نَقَمُوٓا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعل ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿نَقَمُوٓا۟﴾ تقديره: وما نقموا إلا إغناء الله ورسوله

إياهم من فضله ﴿فَإِن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور، وأردت بيان عاقبة أمرهم.. فأقول لك ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَتُوبُوا﴾: فعل وفعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿يَكُ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير مستتر فيه، يعود على التوب المفهوم مما قبله، تقديره: هو ﴿خَيْرًا﴾: خبرها منصوب ﴿لَّهُمْ﴾: متعلق بخيراً، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿يَتَوَلَّوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾: على كونه فعل شرط لها ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل مجزوم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواب شرط لها، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة ﴿عَذَابًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، أو مفعول ثان ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له ﴿فِي الدُّنْيَا﴾: متعلق بـ ﴿عذاب﴾ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: معطوف عليه ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ حالية ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، خبر مقدم لـ ﴿ما﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: اسم ﴿ما﴾ مؤخر ﴿مِن﴾: زائدة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معطوف عليه، والتقدير: وما ولي ولا نصير كائناً هو لهم، حالة كونه في الأرض، وجملة ﴿ما﴾ في محل النصب، حال من هاء ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ والتقدير: يعذبهم الله عذاباً أليماً، حالة كونهم عادمي ولي ونصير في الأرض.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾.

﴿وَمِنْهُم﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة، كما تقدم نظيرها ﴿منهم﴾: جار

ومجرور خبر مقدم ﴿مَّنْ﴾ اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة، أو معطوفة ﴿عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَّنْ﴾ والجملة صلة الموصول، وفيه معنى القسم؛ لأنه بمعنى أقسم بالله. وقال في قسمه ﴿لَئِنْ﴾: و﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿ءَاتَىٰنَا﴾: فعل ومفعول أول في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: مالاً ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق به وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجواب ﴿إن﴾ الشرطية، محذوف لدلالة جواب القسم عليه تقديره: إن آتانا من فضله، نتصدق، ونكون من الصالحين، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب، مقول لـ ﴿قال﴾ المقدر، كما مر آنفاً ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ﴿اللام﴾ موطئة للقسم، وكررت لتدل على أنَّ ما بعدها جواب القسم، لا جواب الشرط ﴿نصدَّقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على ﴿المنافقين﴾ والجملة جواب القسم. لا جواب الشرط، وقد اجتمع هنا قسم وشرط، فالمذكور وهو قوله: لنصدقن... إلخ، جواب القسم وجواب الشرط محذوف كما قدرناه آنفاً على حد قول ابن مالك:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وفي الكرخي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فيه معنى القسم: فلذلك أجيب بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة هذا الجواب عليه، و﴿اللام﴾: للتوطئة، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له اهـ. ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة و﴿اللام﴾ موطئة للقسم ﴿نكونن﴾ فعل مضارع ناقص: في محل الرفع مبني على الفتح، واسمها ضمير يعود على ﴿المنافقين﴾ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: خبرها، والجملة معطوفة على ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على كونها جواب القسم.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ﴾ ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت قسمهم هذا، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك ﴿لما﴾: حرف

شرط غير جازم ﴿ءَاتَىٰهُم﴾ فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ متعلق به، والمفعول الثاني محذوف تقديره: فلمَّا آتاهم مالاً من فضله، والجملة الفعلية فعل شرط لـ ﴿لمَّا﴾ لا محلَّ لها من الإعراب ﴿بَخِلُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿به﴾ متعلق به، والجملة جواب ﴿لِمَا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ فعل وفاعل معطوف على ﴿بَخِلُواْ﴾ ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ مبتدأ وخبر، الجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تولوا﴾ وجملة ﴿لما﴾ من فعل شرطها وجوابها مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝٧٧﴾.

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿أعقبهم نفاقا﴾ فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة معطوفة على جملة ﴿بخلوا﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ جار ومجرور صفة لـ ﴿نِفَاقٗا﴾. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿أعقبهم﴾ أو صفة ثانية لـ ﴿نِفَاقٗا﴾؛ أي: نفاقاً مستمراً إلى يوم يلقون ﴿يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ فعل وفاعل، ومفعول: والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمِ﴾ ﴿بِمَآ﴾ ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب ﴿مَا﴾ مصدرية ﴿أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثان لـ ﴿أَخۡلَفُواْ﴾ ﴿وَعَدُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول، صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَخۡلَفُواْ﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب إخلافهم الله فيما وعدوه ﴿وَبِمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الباء﴾: حرف جر و﴿مَا﴾: مصدرية ﴿كَانُواْ﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكۡذِبُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿كان﴾ صلة ﴿مَا﴾ المصدرية ﴿مَا﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: وبتكذيبهم الله ورسوله، الجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: بما أخلفوا الله.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٧٨﴾.

﴿أَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي المضمَّن معنى الإنكار ﴿لم﴾ حرف

جزم ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لم﴾ والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ فعل ومفعول به، لأنه علم بمعنى عرف ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ معطوف عليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾ وجملة يعلم في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لعلم؛ لأنه بمعنى عرف تقديره: ألم يعلموا علم الله سبحانه وتعالى سرهم ونجواهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ناصب واسمه، وخبره والجملة معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾ الأولى، تقديره: وكون الله تعالى علام الغيوب.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الضمير في المطوعين ﴿فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ متعلق بـ ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب، معطوف على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿جُهْدَهُمْ﴾ مفعول به، ومضاف إليه ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَلْمِزُونَ﴾ على كونها صلة الموصول ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق به، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الاسمية في محل الرفع، معطوفة على جملة ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ على كونها خبر المبتدأ.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ فعل أمر ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَوْ﴾ حرف عطف ﴿لَا﴾ ناهية ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿تَسْتَغْفِرْ﴾: فعل مضارع مجزوم

بـ ﴿إن﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿سَبْعِينَ﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره: استغفاراً سبعين ﴿مَرَّةً﴾ منصوب على التمييز ﴿فَلَن﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿لن يغفر الله﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿لن﴾ ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿أن﴾ حرف نصب و﴿الهاء﴾ اسمها ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على الجلالة وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بسبب كفرهم بالله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ الجار والمجرور خبر المبتدأ، تقديره: ذلك كائنٌ بسبب كفرهم بالله ورسوله، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: متعلق به ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ظرف بمعنىٰ بعد، ومضاف إليه متعلق بـ ﴿مقعدهم﴾ وقد تقدم لك في مبحث التفسير، ما يجري فيه، من أوجه الإعراب، استعجالاً للفائدة ﴿وَكَرِهُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَرِحَ﴾ ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾: فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾: متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف عليه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، تقديره: وكرهوا مجاهدتهم في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم.

﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كرهوا﴾ ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَنفِرُوا﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ ﴿لَا﴾ الناهية ﴿فِي الْحَرِّ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب، مقول ﴿قالوا﴾

﴿قُلْ﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ﴿أَشَدُّ﴾ خبره ﴿حَرًّا﴾ تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة الاسمية في محل النصب، مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿لَّوْ﴾ حرف شرط ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص، واسمه، وجملة ﴿يَفْقَهُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿كَانُوا﴾ فعل شرط لـ ﴿لَّوْ﴾ وجوابها محذوف، تقديره: لو كانوا يفقهون شدة حرارتها.. ما تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية معترضة بين جمل المقول، وفي «أبي السعود» قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته تعالى، غير داخل تحت القول المأمور به، مؤكِّدٌ لمضمونه اهـ.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريغ و﴿اللام﴾: لام الأمر، مبنية على السكون، لاتصالها بالفاء ﴿يضحكوا﴾ فعل وفاعل، مجزوم بلام الأمر ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف، تقديره ضحكاً قليلاً، والجملة في محل النصب، معطوفة على جملة قوله: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ على كونها مَقُولاً لـ﴿قُلْ﴾ ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ فعل وفاعل ومفعول مطلق، مجزوم بـ ﴿لام﴾ الأمر معطوف على ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ ﴿جَزَاءً﴾: مفعول لأجله؛ أي: بسبب الأمر بقلة الضحك وكثرة البكاء، جزاؤهم بعملهم، أو منصوب على المصدرية، بفعل مقدر، تقديره: يجزون، ذلك جزاء ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر وسبب ﴿ما﴾ موصولة، أو موصوفة في محل الجر بالباء، الجار والمجرور صفة لـ ﴿جَزَاءً﴾ أو متعلق به، لتعديته به ﴿كَانُوا﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن﴾ ﴿الفاء﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها؛ أي: على ما سرد من أمرهم، كذا قالوا، أو ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور فيما سبق، وأردت بيان شأنك فيهم..

فأقول لك ﴿إن﴾ حرف شرط ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿طَآئِفَةٍ﴾ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿استئذنوك﴾ فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿رَّجَعَكَ﴾ ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ متعلق به ﴿فَقُل﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً ﴿قل﴾ فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل الجزم بـ ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذ المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾: إلى آخر الآية، مقول محكي لـ ﴿قل﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟﴾ فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَّن﴾ ﴿مَعِىَ﴾ متعلق به ﴿أَبَدًا﴾ منصوب على الظرفية متعلق به ـ والجملة في محل النصب، مقول ﴿قل﴾ ﴿وَلَن﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لن تقاتلوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿لَّن﴾ معطوف على ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟﴾ ﴿مَعِىَ﴾ متعلق به ﴿عَدُوًّا﴾ مفعول به ﴿إِنَّكُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿رَضِيتُم﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱلْقُعُودِ﴾ متعلق به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ظرف متعلق ﴿بِٱلْقُعُودِ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قل﴾ مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿فَٱقْعُدُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾ حرف عطف وتفريع ﴿اقعدوا﴾ فعل وفاعل ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿اقعدوا﴾ أو حال من فاعل ﴿اقعدوا﴾ والجملة في محل الرفع، معطوفة مفرعة على جملة ﴿رَضِيتُم﴾ والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ جاهد، من باب فاعل الرباعي فيه معنى المشاركة. يقال: جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدة، والجهاد والمجاهدة: استفراغ الجهد والوسع في مدافعة العدو، وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، مجاهدة الشيطان، مجاهدة النفس والهوى، ويشير إلى هذه كلها قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقال ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» وقال: «جاهدوا الكفار

بأيديكم وألسنتكم» والجهاد باللسان، إقامة الحجة والبرهان، كما مر والجهاد باليد: الجهاد بالسيف، وبكل الوسائل الحربية ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ من الغلظة، وهي الخشونة، والشدة في المعاملة، وهي ضد اللين ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ نقم منه الشيء إذا أنكره وعابه عليه، من باب ضرب ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد، أصله لنتصدقن من باب تفعل الخماسي، فقلبت التاء صاداً، فأدغمت الصاد في الصاد، فصار لنصَّدَّقن بتشديد الصاد، والدال.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يقال: أعقبت فلاناً ندامةً، إذا صيرت عاقبة أمره نادمة وحسرة وخسارة.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ وفي «المصباح» لمزه لمزاً من باب ضرب إذا عابه، وقرأ بها السبعة ومن باب قتل لغة، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، كما مر المطَّوِّعين بتشديد الطاء والواو، جمع المطوع بمعنى: المتبرع بغير ما وجب عليه، فأصله المتطوعين، لأنه اسم فاعل من تطوع الخماسي، فقلبت التاء طاء، وأدغمت الطاء في الطاء، فصار المطوعين بتشديد الطاء ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ جمع الصدقة، ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ والجهد: بالضم والفتح، الطاقة وهي: أقصى ما يستطيعه الإنسان، وقال القرطبي: الجهد الشيء اليسير الذي يعيش به المقل ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: يستهزئون منهم، احتقاراً وفي «المصباح» سخرت منه سخراً، من باب تعب، هزئت به، والسِّخريُّ، بالكسر اسم منه، والسُّخريُّ بالضم، لغة فيه، والسخرة وزان غرفة ما سخرت من خادم أو جارية أو دابة، بلا أجرٍ ولا ثمنٍ، والسخري بالضم، بمعناه، وسخرته في العمل، بالتثقيل استعملته مجانًا وسخر الله الإبل، ذللها وسهلها اهـ وفيه أيضاً هزئت به أهزأ. مهموز من باب تعب، وفي لغة من باب نفع، سخرت منه اهـ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ جمع مخلف، اسم مفعول من خلف، كما مر، والفاعل الكسل؛ أي: الذين خلفهم، وأقعدهم الكسل، والفرح: الشعور بارتياح النفس وسرورها.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم. يقال: قعد قعوداً ومقعداً، إذا جلس وأقعده غيره، ذكر معناه الجوهري، ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ والخلاف والمخالفة بمعنى،

ويستعمل خلافه بمعنى بعده، يقال: جلست خلاف فلان، وخلفه؛ أي: بعده، ومنه ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ردك[1] الله، خطاب للنبي ﷺ بعدم جمعهم معه في مشاهد الخير بعد ذلك، ويؤخذ من ذلك: أن أهل الفسوق والعصيان لا يرافقون ولا يشاورون.

ورجع: إما لازم، فبابه جلس، ومصدره الرجوع، وإما متعد، وبابه قطع، ومصدره الرجع، كالرد، كما في «المختار» وفي «الكرخي» ومعنى الرجع تصيير الشيء إلى المكان الذي كان فيه، يقال: رجعته رجعا كقولك رددته ردًّا. اهـ.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهي[2] الخرجة إلى غزوة تبوك، ومرة مصدر، كأنه قيل أول خرجه دعيتم إليها، لأنها لم تكن أول خرجة خرجها الرسول ﷺ للغزاة، فلا بد من تقييدها، إذ الأولية تقتضي السبق، وقيل: التقدير: أول خرجه خرجها الرسول لغزوة الروم بنفسه، وقيل: أول مرة قبل الاستئذان.

﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾؛ أي: أقيموا وليس أمراً بالعقود الذي هو نظير الجلوس، وإنما المراد منعهم من الخروج معه، قال أبو عبيدة: الخالف، الذي خلف بعد خارج، فقعد في رحله، وهو الذي يستخلف عن القوم، وقيل: الخالفين، المخالفين، من قولهم: عبد خالف؛ أي: مخالف لمولاه، وقيل: الأخساء الأدنياء، من قولهم: فلان خالفة قومه، لأخسِّهم وأرذلهم.

ودلت هذه الآية على توقي صحبة من يظهر منه مكرٌ وخداع وكيد، وقطع العلاقة معه، والاحتراز منه، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآية أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الصاوي. (٢) البحر المحيط.

﴿وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ كأنه قال: ليس له صفة تكره وتعاب إلا أنه ترتب على قدومه إليهم هجرته عندهم إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة، وهذه ليست صفة ذم، فحينئذٍ ليست له صفة تُذم أصلاً، وهو من باب قول النابغة:

وَلاَ عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

ومن باب قول الآخر:

مَا نَقَمُوْا مِنْ بَنِيْ أُمَيَّةَ إِلاَّ أَنَّهُمْ يَحْلَمُوْنَ إِنْ غَضِبُوْا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ ٱلْمُلُوْكِ وَلاَ يَصْلُحُ إِلاَّ عَلَيْهِمُ ٱلْعَرَبُ

وفي «البحر» قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ الجملة كلام أجري مجرى التهكم به، كما تقول: مالي عندك ذنب، إلا أني أحسنت إليك، فإن فعلهم يدل على أنهم كانوا لِئاماً.

ومنها: اللف[1] والنشر المرتب في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ فقوله: ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ راجع لقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ وقوله: ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ راجع لقوله: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ وفي قوله: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ وهي من المحسنات البديعية.

ومنها: جناس الاشتقاق بين يعلم وعلام في قوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾.

ومنها: أن التنوين في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للتهويل والتفخيم.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

ومنها: المقابلة[2] المعنوية بين قوله: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾، وقوله: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ لأن الفرح من ثمرات المحبة.

---

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَلْمِزُونَ﴾؛ لأن اللمز حقيقة في الإشارة بالعين ونحوها، ثم استعير للتعييب والتغيير.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وفيه أيضا من المحسنات البديعية المشاكلة.

ومنها: الاعتراض التذييلي في قوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنه كلام معترض من جهته تعالى، غير داخل تحت القول المأمور به، مؤكدٌ لمضمونه، كما في «أبي السعود».

ومنها: التعريض[1] بالمؤمنين بتحملهم المشاق العظيمة، في قوله: ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: كرهوا أن يجاهدوا كالمؤمنين الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد في سبيل الله، وآثروا ذلك على الدعة والخفض، وكره ذلك المنافقون.

ومنها: الزيادة والحذف في عدَّة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] أمر رسوله فيما سبق، بإهانة المنافقين، وإذلالهم بمنعهم من الخروج معه إلى الغزوات.. أردف ذلك بذكر إهانة أخرى لهم، وهي منع الرسول أن يصلي على من مات منهم بعد إعلامه بحقيقة أمرهم، وفي مقدمتهم زعيمهم الأكبر عبد الله بن أبي والاثنا عشر الذين أرادوا اغتيال الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ...﴾ الآية، مناسبة

(١) المراغي.

هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بيَّن أنَّ المنافقين عملوا الحيل، والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله ﷺ، والقعود عن الغزو.. أردف ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ.. استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التخلف عن الغزو، وقالوا لرسول الله ﷺ: دعنا نكن مع الضعفاء والزَّمنىٰ العاجزين عن القتال.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لمَّا قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا ذكر فيما سبق المعذورين، والذين كذبوا الله ورسوله، وذكر وعيدهم على سوء صنيعهم.. أردف ذلك بذكر أصنافٍ ثلاثةٍ، أعذارها مقبولةٌ، ثم أردف هذا بذكر شر الأعذار، وهو استئذان الأغنياء.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ سبب نزوله: ما روي عن ابن عمر، قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول.. جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي، فقام عمر بن الخطاب، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، أتصلي عليه، وقد نهاك ربك، أن تصلي على المنافقين؟ قال: «إنما قد خيرني الله، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيد على السبعين». فقال عمر: إنه منافق فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فترك الصلاة عليهم، وروي ذلك من حديث عمر وأنس وجابر وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني، إذا أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ...﴾ الآية، وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس، قال:

أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابةٌ من أصحابه، فيهم عبد الله بن معقل المزني، فقال: يا رسول الله، احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاءٌ، وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقةً ولا محملاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية، وقد ذكرت أسمائهم في المبهمات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ يا محمد بعد الآن؛ أي: بعد عبد الله بن أبي ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المنافقين، الذين تلخفوا عن الخروج معك، وقوله: ﴿مَّاتَ﴾ صفة لأحد، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لتأييد النفي، منصوب بالنهي؛ أي: لا تصل أبداً بعد اليوم على أحد مات منهم؛ لأن المقصود من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق الكفار ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾؛ أي: ولا تقف عند قبره للدفن، أو الزيارة أو الدعاء له بالتثبيت، كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم، فإنه ﷺ كان إذا دفن الميت.. وقف على قبره ودعا له.

روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت.. وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

ثم بيَّن سبب نهيه عن الصلاة عليهم ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله في السِرِّ مدَّة حياتهم ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن حظيرة الإسلام مفارقون أمر الله ونهيه، فليسوا أهلاً للصلاة عليهم، ولا للاستغفار لهم بالقيام عند قبورهم.

فإن قلت: لِمَ وصفهم بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر، لأن الفسق أدنى حالاً من الكفر، فالكفر يشمله وغيره، فما الفائدة في وصفهم بكونهم فاسقين بعد وصفهم بالكفر؟.

قلتُ: إن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، بأن يؤدِّي الأمانة، ولا يضمر

لأحد سوءاً، وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع، وإضمار السوء للغير، وهذا أمر مستقبح عند كل أحد، ولما كان المنافق بهذه الصفة الخبيثة.. وصفهم الله تعالى بكونهم فاسقين، بعد أن وصفهم بالكفر، ولما نزلت هذه الآية.. ما صلى رسول الله ﷺ على منافق، ولا قام على قبره بعدها.

روى أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن ابن عباس، قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي.. دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف.. قلت: أتصلِّي على عدو الله، عبد الله بن أبي، القائل: كذا وكذا، والقائل: كذا وكذا؟ أعدِّد أيامه، ورسول الله ﷺ، يبتسم، حتى إذا أكثرت، قال: «يا عمر أخر عني، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له.. لزدت عليها» ثم صلى عليه، ومشى معه حتى قام على قبره، إلى أن فرغ منه، فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فما صلّى رسول الله ﷺ على منافق بعد، حتى قبضه الله عز وجل.

وقد حكم كثير من العلماء[1]، كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين والغزالي، وغيرهم بعدم صحة هذا الحديث، لمخالفته للآية من وجوه:

١ ـ جعل الصلاة على ابن أبي سبباً لنزول الآية، وسياق القرآن صريح في أنها نزلت في سفر غزوة تبوك، سنة ثمان، وابن أبي مات في السنة التي بعدها.

٢ ـ قول عمر للنبي ﷺ: وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبي، وقوله بعده، فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة.

---

(١) المراغي.

٣ ـ قوله إنه ﷺ قال: إن الله خيَّره في الاستغفار لهم وعدمه، إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كالحديث، ولم يكن فيها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم، فـ(أو) فيها: للتسوية لا للتخيير.

وهناك[1] روايات أخرى في الصلاة على ابن أبي من طريق ابن عمر، ومن طريق جابر، وإنما ذكرنا هذا الحديث مع ما علمت من رأى أئمة الحديث فيه وحكمهم بأنه لا يقبل، لما ذكروا من الأسباب؛ لأنه قلما يخلو تفسير من ذكره، وقل أن تجد من يشير إلى شيء مما يدل على ضعفه واضطرابه، لمخالفته لظاهر الآية، فرأينا أن نجعلك على بينةٍ من أمره، إذا أنت قرأته.

فصل

وقد وقع في الأحاديث[2] التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي بن سلول صورة اختلاف في الروايات، ففي حديث ابن عمر: أنه لما توفي عبد الله بن أبي.. أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه، وأن يصلي عليه، فأعطاه قميصه، وصلَّى عليه، وفي حديث عمر بن الخطاب ـ من أفراد البخاري ـ أن رسول الله ﷺ دعا له ولم يصل عليه، وفي حديث جابر: أن النبي ﷺ أتاه بعد ما أدخل في حفرته، فأمر به فأخرج فوضعه على ركبته، ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه.

ووجه الجمع بين هذه الروايات: أنه ﷺ أعطاه قميصه فكفن فيه، ثم إنه صلى عليه، وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أنه ﷺ صلى عليه أولاً، كما في حديث ابن عمر، ثم إن رسول الله ﷺ أتاه ثانياً، بعدما أدخل حفرته، فأخرجه منها، ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه، لينفث عليه من ريقه، ثم إنه ﷺ ألبسه قميصه بيده الكريمة، فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطييباً لقلب ابنه عبد الله، فإنه كان من فضلاء الصحابة، وأصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة، وأشرحهم صدراً.

ويروى أن النبي ﷺ كُلِّم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: «وما يغني

عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه» ويروي أنه أسلم ألف من قومه لمَّا رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ، وفي رواية عن جابر، قال: لما كان يوم بدر، أتي بالأسارى وأتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي مقدراً عليه، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه له. اهـ «الخازن».

ثم أكد ما تقدَّم من النهي عن الاغترار بالأموال والأولاد؛ لأن الأمر جد خطير، يحتاج إلى التوكيد إذ هما أعظم الأشياء جذباً للقلوب، وجلباً للخواطر للاشتغال بالدنيا، فيجب التحذير منهما مرةً بعد أخرى، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ يا محمد أموالهم وأولادهم؛ أي: كثرتها واغترارهم بها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بتمتيعهم بالأموال والأولاد ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ ويتعبهم ﴿بِهَا﴾؛ أي بمكابدتهم الشدائد في شأنها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وتخرج أرواحهم ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: مغرورون بها عن نعيم الآخرة، أي: فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها.

وقد جاء[1] مثل هذا النص فيما سبق، إلا أن زيادة ﴿لا﴾ في الآية السابقة للنهي عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على حدته، وهو شامل لمن كانت له إحدى المزيتين أو كلاهما، والنهي في هذه الآية عن الإعجاب بها مجتمعين، وهذا أدعى إلى الإعجاب بهما.

فصلٌ للكلام على هذه الآية في بحثين

البحث الأول: في وجه تكرارها[2]، والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأنٌ في تقرير ما نزل أولاً، وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بالٍ، ولا يغفل عنه، ولا ينساه، وأن يعتقد أنَّ العمل به مهم، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه، وهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد، وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى، وبالجملة

---

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

فالتكرار يراد به التأكيد، والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به، وقيل أيضاً: إنما كرر هذا المعنى؛ لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين، كان لهم أموالٌ وأولاد عند نزولها، وبالآية الأخرى أقواماً آخرين منهم.

البحث الثاني: في بيان وجه ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين، وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالفاء، وقال، هنا: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالواو، والفرق بينهما: أنه عطف الآية الأولى على قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق، لشدة المحبة للأموال والأولاد، فحسن العطف عليه بالفاء في قوله: فلا تعجبك، وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها، فلهذا أتى بحرف الواو، وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ بزيادة لا وأسقطها هنا، فقال: ﴿وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ والسبب فيه: أن حرف ﴿لا﴾ دخل هناك لزيادة التأكيد في شأن الأولاد، فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد، وكان إعجابهم بأولادهم أكثر من إعجابهم بأموالهم، وفي إسقاط حرف ﴿لا﴾ هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين، وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ بزيادة حرف اللام، وقال هنا: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ بإسقاطها وزيادة حرف أن، والسبب في ذلك، التنبيه على أنَّ التعليل في أحكام الله محال، وأنه أينما ورد حرف اللام، فمعناه: أن كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ومعناه: وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله، وقال أيضاً في الآية الأولى ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بزيادة لفظ الحياة، وقال هنا: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإسقاطه، والحكمة في إسقاطه هنا: التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث إنها لا تستحق أن تذكر، ولا تسمى حياةً، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا، تنبيهاً على كمال دناءتها وخستها، فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ﴾ عليك يا محمد ﴿سُورَةٌ﴾ من سور القرآن، كلا أو بعضاً

يحتمل أن يراد بالسورة بعضها؛ لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز، ويحتمل أن يراد جميع السورة، فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة، لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان، والأمر بالجهاد بـ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: داوموا على إيمانكم بالله تعالى ﴿وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ ﷺ في المستقبل، ويصح أن تكون مصدرية، كما أشرنا إليه بتقدير الباء، ومفسرة لما في الإنزال من معنى القول والوحي، والقولان ذكرهما أبو السعود.

فإن قلت: كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين، فهو من باب تحصيل الحاصل؟

قلت: معناه: الأمر بالدوام على الإيمان وبالجهاد في المستقبل، وقيل: إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد، في كل ساعة، وقيل: إنَّ هذا الأمر، وإن كان ظاهرهُ العموم، لكن المراد به الخصوص، وهم المنافقون، والمعنى حينئذٍ: إن أخلصوا الإيمان بالله، وجاهدوا مع رسوله، وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد؛ لأنَّ الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً، فكأنه قيل للمنافقين: الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولاً، وتجاهدوا مع رسوله ثانياً حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة.

والمعنى: وإذا أنزلت عليك يا محمد سورة من القرآن، مشتملةٌ على الأمر بإخلاص الإيمان، وعلى الأمر بالجهاد مع رسوله في المستقبل ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ في التخلف عن الغزو ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ وأصحاب الغنىٰ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من المنافقين أي: استأذنك أصحاب السعة في المال والقدرة على الجهاد بالبدن من رؤساء المنافقين وكبرائهم، كعبد الله بن أبي وجدِّ بن قيس، ومعتب ابن قشير. وخصهم بالذكر؛ لأنَّ الذم لهم ألزم، لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد؛ أو لأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال أولوا الطول لك ﴿ذَرْنَا﴾؛ أي: أتركنا يا محمد عن الخروج معك ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ في البيوت من النساء والصبيان. وقيل: مع المرضى والزمنىٰ: أي: إن تركتنا وسامحتنا من الخروج للغزو نكون مع الضعفاء من الناس، والساكنين

في البلد بعذر.

والمعنى: أنه كلما أنزلت سورةٌ، تدعو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله، والجهاد مع رسوله ﷺ.. استأذنك أولوا المقدرة على الجهاد، المفروض عليهم بأموالهم وأنفسهم في التخلف عن الجهاد، وقالوا: دعنا نكن مع القاعدين في بيوتهم من الضعفاء والزمنىٰ، العاجزين عن القتال والنساء والصبيان، غير المخاطبين بالجهاد.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ وفي هذا تصريح بجبنهم، ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان.

﴿رَضُوا۟﴾؛ أي: رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم ﴿بِأَن يَكُونُوا۟﴾ في البلد ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: مع النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت، جمع خالفة، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف، وهو من لا خير فيه؛ أي: أن يكونوا مع النساء اللاتي ليس عليهن فرض الجهاد، وهذا منتهى الجبن، وتعافه النفس الكريمة، التي لا ترضى بالمذلة، ثم بين العلة في قبولهم هذا الذل، فقال: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم على قلوب هؤلاء المنافقين، ومنعت من حصول الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون مراد الله تعالى في الأمر بالجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة.

والمعنى: أن الله تعالى قد ختم على قلوبهم، فلا تقبل جديداً من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها، وصار وصفاً لازماً لها، لأن النفاق قد أثر فيها، بحسب سنة الله في الارتباط بين العقائد والأعمال، فهم لا يفهمون ما أمروا به فَهْم تدبر واعتبار، فيعملوا به.

والمقصود من الاستدراك: في قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخره، الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم، وأخلص نية على حد قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا

﴿بِكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ولكن الرسول محمدٌ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به وكانوا ﴿مَعَهُۥ﴾ في كل المهام الدينية ولا يفارقونه ﴿جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وقاموا بالواجب خير قيام، عملاً بداعي الإيمان وأمر الله في القرآن ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المجاهدون في سبيل الله ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾؛ أي منافع الدارين، النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة؛ أي: لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر، ومحو كلمةِ الكفر، وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل، والتمتع بالغنائم، والسيادة في الأرض دون المنافقين الجبناء، الذين ألفوا الذلة والهوان، ولم يكونوا أهلاً للقيام بهذه الأعباء ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: هم الفائزون بسعادة الدنيا، وسعادة الآخرة، دون المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم بما له من الأثر في أخلاقهم وأعمالهم.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ إلى آخره، كلام مستأنف مسوق لبيان ما لهم من الخيرات الأخروية؛ أي: هيأ الله سبحانه وتعالى لهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿تَجْرِى﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة الماء واللبن والخمر والعسل حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين في تلك الجنات مكثاً مؤبَّداً، لا نهاية له، لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخيرات والفلاح وإعداد الجنات، الموصوفة بتلك الصفة هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والظفر الجسيم الذي لا فوز وراءه.

وقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب، إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة، والمعذرون: هم المعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم سكان البوادي، وهم أخص من العرب، إذ العربي من تكلم باللغة العربية، سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة، وهؤلاء[1] المعذرون هم أسد وغطفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال، وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك.. أغارت طيءُ على أهالينا ومواشينا،

---

(١) المراغي.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم، وسيغنيني الله عنكم» واختلفت الروايات فيهم، بين قائل بصدقهم في الاعتذار، وقائل بكذبهم فيه، وظاهر كلام ابن عباس أنهم صادقون في اعتذارهم، وعليه يكون المراد بالذين كذبوا الله ورسوله جماعةً غيرهم من المنافقين.

أي: وجاء إليك يا محمد المعذرون؛ أي: الذين أتوا بأعذار كاذبة، وتكلفوا عذراً بباطل من الأعراب؛ أي: من سكان البوادي من بني غفار أو من أسد وغطفان على الخلاف فيه ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف عن غزوة تبوك، فلم يعذرهم الله تعالى ﴿وَقَعَدَ﴾ عن الجهاد بغير إذن ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في ادعائهم الإيمان وهم منافقوا الأعراب الذين لم يجيئوا إلى الرسول ولم يعتذروا.

وقال أبو عمرو بن العلاء[1]: إن قوماً تكلفوا عذراً بباطل، فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ وتخلف آخرون لا لعذر، ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى، فهم المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم منافقوا الأعراب، الذين ما جاؤوا وما اعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله، يعني: في ادعائهم الإيمان، فمنافقوا الأعراب قسمان: قسم جاء واعتذر بالأعذار الكاذبة، وقسمٌ لم يجيء ولم يعتذر.

والمعنى[2]: وجاء الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك، امتثالاً للنفير العام من أولي التعذير، وقعد عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين أظهروا الإيمان بهما، كذباً وإيهاماً على غير اعتقاد صادق، قال أبو عمرو: كان كلا الفريقين مسيئاً، فأوعد المكذبين وبعض المعتذرين بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين الذين في قلوبهم مرض عذاب أليم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار؛ أي: سيصيب الذين استمروا على الكفر منهم، لا من أسلم منهم عذاب أليم.

---

(١) الخازن. (٢) البيضاوي.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بفتح العين وتشديد الذال، وسيأتي لك بيان أصله في مبحث التصريف إن شاء الله تعالى، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي والضحاك والأعرج وأبو صالح وعيسى بن هلال ويعقوب والكسائي في رواية عنه: ﴿المعذِرون﴾ من أعذر الرباعي، وقرأ مسلمة: ﴿المُعَذِّرون﴾ بفتح العين، وتشديد الذال، من تعذر، بمعنى اعتذر، قال أبو حاتم: أراد المتعذرين والتاء لا تدغم في العين لبعد المخارج، وهي غلط منه أو عليه، وقرأ الجمهور: ﴿كَذَبُوا۟﴾ بالتخفيف؛ أي: في إيمانهم فأظهروا ضدَّ ما أخفوه، وقرأ أُبَيٌّ والحسن، في المشهور عنه، ونوحٌ وإسماعيل: ﴿كذَّبوا﴾ بالتشديد؛ أي: لم يصدقوه تعالى ولا رسوله، وردوا عليه أمره، والتشديد أبلغ في الذم.

ولمَّا ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد، واعتذروا بأعذار باطلة.. عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقة الصحيحة وعذرهم، وأخبر: أن فرض الجهاد عنهم ساقط، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ جمع ضعيف والضعيف: هو الصحيح في بدنه، العاجز عن الغزو، وتحمل مشاق السفر والجهاد، مثل الشيوخ والصبيان والنساء، ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً، ويدل على أنَّ هؤلاء الأصناف هم الضعفاء: أنَّ الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرض فقال سبحانه ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فأما المرضى.. فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة، وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿وَلَا عَلَى﴾ الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فيه من الزاد والراحلة والسلاح وسائر مؤونة السفر؛ لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج؛ أي: إثم في التخلف عن الغزو، وقال الإمام الفخر الرازي: ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج؛ لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة، إما بحفظ متاعهم، أو بتكثير سوادهم، بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالًا عليهم، فإن ذلك طاعة مقبولة، ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطاً معيناً، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ﴾ بالإيمان به، والعمل بشريعته، وترك ما

يخالفها، كائناً ما كان، ويدخل تحته دخولاً أولياً نصح عباده، ومحبة المجاهدين في سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه، والقيام بمصالح بيوتهم، وإيصال الخير إلى أهاليهم، وإخلاص الإيمان والعمل لله تعالى، والاحتراز عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن ﴿و﴾ نصحوا لـ﴿رسوله﴾. بتصديق رسالته، وقبول ما جاء به في كل ما يأمر به، أو ينهى عنه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، ومحبته وتعظيم سننه، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة، وقد ثبت في الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ، قال: «الدين النصيحة» ثلاثاً، قالوا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»، وقرأ أبو حيوة: ﴿إذا نصحوا الله ورسوله﴾ بنصب الجلالة وجملة قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالقول والفعل ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ مُقرِّرةٌ لمضمون ما سبق؛ أي: ليس على المعذورين المخلصين الناصحين من سبيل؛ أي: طريق عقاب، ومؤاخذةٍ على تخلفه؛ أي: ليس على من أحسن، فنصح لله ولرسوله، في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع، طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه، والمعنى: إنه سد بإحسانه طريق العقاب عن نفسه.

و﴿من﴾ في قوله[1] ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ مزيدة للتأكيد، وعلىٰ هذا المعنى المذكور فيكون لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ موضوعاً موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً، كأنه قال: ما عليهم من سبيل، ويحتمل أن يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم، فتكون الجملة معللّة.

ويستنبط من قوله[2]: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أنَّ كلَّ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مخلصاً من قلبه، ليس عليه سبيل في نفسه وماله، إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل، وجملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع ﴿رَّحِيمٌ﴾ بجميع عباده جملة تذييلية،

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

ونحو الآية: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ﴾.

والحاصل[1]: أن التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة:

١ ـ **الضعفاء**: وهم من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد، كالشيوخ والعجزة والنساء والصبيان، وذوي العاهات التي لا تزول، كالكساح والعمى والعرج.

٢ ـ **المرضى**: وهم من عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، وعذرهم ينتهي إذا شفوا منها.

٣ ـ **الفقراء**: الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا ما خرجوا، ولا ما يكفي عيالهم، وقد كان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال، فالفقير ينفق على نفسه، والغني ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته، كما فعلوا في غزوة تبوك.

والخلاصة: أن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم؛ أي: لا ضيق عليهم ولا إثم في قعودهم عن الجهاد الواجب، على شرط أن ينصحوا لله ورسوله؛ أي: يخلصوا لله في الإيمان وللرسول في الطاعة، بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية، ولا سيما المجاهدين منها، من كتمان السر، والحث على البر، ومقاومة الخائنين ـ في السر والجهر.

روى البخاري ومسلم عن جابر، قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾؛ أي: ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذة المحسنين، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أن كلَّ ناصح لله ورسوله.. فهو محسن، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه في الحرج، ثم قفى ذلك بذكر الصفح عنهم، والتجاوز عن سيئاتهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: وهو سبحانه وتعالى كثير المغفرة، واسع الرحمة، يستر على المقصرين ضعفهم في أداء الواجبات، ما داموا مخلصين النصح لله ورسوله، ويدخلهم في زمرة الصالحين من عباده.

أما المنافقون المسيئون فلا يغفر لهم، ولا يرحمهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن النفاق الذي كان سبباً في ارتكاب هذه الآثام، وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد، وأصله في «الصحيحين» أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لقد تركتم بعدكم قوماً، ما سرتم من مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، إلا وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: «حبسهم العذر» وأخرجه أحمد ومسلم من حديث جابر، ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلخ والعطف على جملة ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك، إلخ من سبيل، ويجوز أن يكون عطفاً على الضعفاء؛ أي: ولا على الذين إذا ما أتوك... إلخ حرجٌ.

والمعنى: أنَّ من جملة المعذورين هؤلاء الذين إذا ما أتوك لتحملهم، إلخ وقرأ معقل بن هارون: ﴿لنحملهم﴾ بنون الجماعة.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى، لمَّا ذكر هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين، أتبعه بذكر قسم رابع فقال: ﴿وَلَا﴾ حرج ولا إثم في التخلف عنك في الخروج إلى غزوة تبوك ﴿عَلَى﴾ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الرواحل، فيخرجوا معك، فلم تجد ما تحملهم عليه ﴿قُلْتَ﴾ لهم ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وجواب إذا قوله: ﴿تَوَلَّوا﴾؛ أي: انصرفوا من مجلسك ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: انصرفوا من عندك، والحال أن أعينهم تسيل من الدموع ﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله؛ أي: رجعوا من عندك، والحال

أنهم يبكون بكاءً شديداً لأجل الحزن والأسف على عدم وجدانهم ما ينفقون ويركبون في خروجهم معك للجهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته. وهؤلاء، وإن دخلوا في عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل، قد خصوا بالذكر اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنهم قسم مستقل.

وعدم وجود ما يحملون عليه يدخل فيه مراكب النقل، البرية والبحرية والهوائية في هذا العصر، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها في كل سفر بحسبه، ويفقد العذر بوجوده، أو المعنى: وليس على من أتوك يسألونك أن تحملهم إلى غزوة تبوك، ثم خرجوا من عندك يبكون لعدم وجدان ما ينفقون في الجهاد سبيل في لومهم، ولذلك سموا البكائين، وهم سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عتمة، وعبد الله بن مغفل، وعبد الله بن زيد، فإنهم أتوا رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون، فحمل العباس منهم اثنين، وعثمان ثلاثةً، زيادةً على الجيش الذي جهزه وهو ألفٌ، وحمل يامين بن عمرو النضريُّ اثنين.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من عليه السبيل من المتخلفين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: طريق العقوبة والمؤاخذة، والطريق هي الأعمال السيئة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في التخلف عن الغزو، والقعود عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾؛ أي: والحال أنهم واجدون للأهبة، قادرون على الخروج معك؛ أي إنما الإثم والحرج في التخلف على الذين يستأذنونك فيه، وهم قادرون على الجهاد، وعلى الإنفاق لغناهم، ثم ذكر السبب في استحقاقهم المؤاخذة، فقال: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ أي: رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف، والخالفين من النساء والأطفال والمُعذِّرين من المفسدين وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف، إيثاراً للدعة والراحة، وجملة قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم على قلوبهم، وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم، بحسب سنن الله في

أمثالهم، معطوفة على جملة ﴿رَضُواْ﴾؛ أي: سبب الاستئذان مع الغنى، أمران: **أحدهما**: الرضا بالصفقة الخاسرة، وهي أن يكونوا مع الخوالف، **والثاني**: الطبع من الله على قلوبهم ﴿فَهُمْ﴾ بسبب هذا الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسران؛ أي: لا يعلمون ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا.. فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو، وأما في الآخرة.. فالثواب والنعيم الدائم، الذي لا ينقطع فهم لا يعلمون حقيقة أمرهم، ولا سوء عاقبتهم، وما هو سبب ذلك من أعمالهم، فهم قد رضوا بالمهانة في الدنيا، بانتظامهم في سلك النساء والأطفال، إلا أنَّ تخلف الأفراد عن القتال الذي تسعى إليه الشعوب والأمم يعد من مظاهر الخزي والعار، وقد جعله الدين من أقوى آيات الكفر والنفاق، وأما سوء عاقبتهم، فيكفي فيه فضيحتهم في هذه السورة، كفاء إحجامهم عن الجهاد في سبيله، وما أعده لهم من العذاب العظيم، والخزي والنكال في نار الجحيم، وتقدم نظير هذه الجملة آنفاً، وذكره ثانياً: للتأكيد، وعبر هنا بالعلم، وهناك بالفقه إشارة إلى أن معناهما واحد، إذ الفقه هو العلم، والعلم هو الفقه. ذكره الصاوي.

الإعراب

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾ استئنافية ﴿لا﴾ ناهية جازمة ﴿تُصَلِّ﴾ فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة على ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ متعلق به ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿مَّاتَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بـ ﴿لا تصل﴾ وجملة قوله: ﴿وَلَا تَقُمْ﴾: معطوفة على جملة ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ ﴿عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ متعلق به ﴿إِنَّهُمْ﴾ ناصب واسمه ﴿كَفَرُواْ﴾ فعل وفاعل ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة، لتعليل ما قبلها ﴿وَمَاتُواْ﴾: فعل

وفاعل، معطوف على ﴿إِنَّهُمْ﴾ ﴿وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾: جملة اسمية في محل النصب حال، من فاعل ﴿ماتوا﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾: فعل ومفعول ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعل ﴿وَأَوْلَـٰدُهُمْ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾ ﴿بِهَا﴾: متعلق به، وكذا قوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر، منصوب على المفعولية، تقديره: إنما يريد الله تعذيبه إياهم بها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يُعَذِّبَهُم﴾ ﴿وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾: جملة اسمية في محل النصب، حال من ضمير الغائبين في ﴿أَنفُسُهُمْ﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿إذا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها ﴿أَنْ﴾ حرف مصدر ونصب ﴿ءَامِنُوا۟﴾ فعل وفاعل في محل النصب بـ ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بباء مقدرة، تقديره: وإذا أنزلت سورة بإيمانهم بالله ﴿وَجَـٰهِدُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَامِنُوا۟﴾ ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿جاهدوا﴾؛ أي: وإذا أنزلت سورة بالإيمان بالله وبالجهاد مع رسوله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ فعل ومفعول ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ فاعل ومضاف إليه ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ عطفاً تفسيريًا، فهو مغن عن بيان ما استأذنوا فيه، وهو القعود، ذكره أبو السعود، ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ مقول محكي، وإن

شئت قلت: ﴿ذَرْنَا﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿نَكُن﴾ فعل مضارع ناقص، مجزوم بالطلب السابق، واسمه ضمير يعود على المتكلمين ﴿مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ خبر ﴿نَكُن﴾ وجملة ﴿نَكُن﴾ في محل لنصب مقول قالوا، على كونها جواب الطلب.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿رَضُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، أعني قوله: ﴿استئذنك﴾ ﴿بِأَن﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر ﴿أن﴾: حرف مصدر ﴿يَكُونُوا۟﴾ فعل مضارع ناقص، منصوب بـ ﴿بِأَن﴾ ﴿والواو﴾: اسمها ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ خبرها، وجملة ﴿يكون﴾ في تأويل مصدر، مجرور بالباء، تقديره: رضوا بكونهم مع ﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَضُوا۟﴾ ﴿وَطُبِعَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ نائب فعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَضُوا۟﴾ ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ خبره، الجملة معطوفة مفرعة على جملة طبع.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾ حرف استدراك، على محذوف، تقديره: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد مَنْ هو خير منهم، ذكر البيضاوي، ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف عليه ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مَعَهُۥ﴾، متعلق بـ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ فعل وفاعل ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ متعلق به ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ معطوف عليه، والجملة الفعلية، في محل الرفع، خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ أول ﴿لَهُمُ﴾ خبر مقدم ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ مبتدأ ثاني مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع، خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره، مستأنفة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُمُ﴾ ضمير فصل ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لبيان كونهم مفلحين ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مفعول به ﴿تَجْرِي﴾ فعل مضارع ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق به ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فاعل والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير لهم ﴿فِيهَا﴾ متعلق به ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ حال من ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ ﴿لِيُؤْذَنَ﴾ ﴿اللام﴾ حرف جر وتعليل ﴿يؤذن﴾: فعل مضارع، مغير الصيغة، منصوب بأن مضمرة جوازاً، بعد لام كي ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور، نائب فاعل، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: للإذن لهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿جاء﴾ ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جاء﴾ ﴿كَذَبُوا ٱللَّهَ﴾ فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية، صلة الموصول ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾: جار ومجرور، خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مقدم على اسمها ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: جار ومجرور، معطوف على الجار والمجرور قبله وكذا قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: معطوف عليه ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، في محل النصب، مفعول ﴿يَجِدُونَ﴾ وجملة ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد، أو

الرابط محذوف، تقديره: ما ينفقونه ﴿حَرَجٌ﴾ اسم ﴿لَّيْسَ﴾ مؤخر عن خبرها، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ معطوف على الجلالة، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب المحذوف، تقديره: إذ نصحوا لله ولرسوله ليس عليهم حرج، وجملة ﴿إِذَا﴾ معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المتعاطفين ﴿مَا﴾: نافية ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ خبر مقدم ﴿مِن سَبِيلٍ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿مِن﴾ زائدة، والجملة مستأنفة ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثان، أو صفة له، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾؛ أي: وعلى الذين إلخ ﴿حَرَجٌ﴾ أو معطوف على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليهم سبيل ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿أَتَوْكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول فعل شرط لـ ﴿إِذَا﴾ ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي ﴿تحملهم﴾: فعل ومفعول، منصوب بأن مضمرة، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة في تأويل مصدر، مجرور باللام، تقديره: لحملك إياهم، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَتَوْكَ﴾ ﴿قُلْتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض، معطوفة بعاطف مقدر على جملة ﴿أَتَوْكَ﴾ على كونها فعل شرط لها، وفيه أوجه أخرى ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿لَآ﴾: نافية ﴿أَجِدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير، يعود على محمد ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿أَجِدُ﴾ ﴿أَحْمِلُكُمْ﴾: فعل ومفعول، ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق به، وفاعله ضمير، يعود على محمد، والجملة صلة لـ ﴿مَآ﴾ أو صفة لها ﴿تَوَلَّواْ﴾: فعل وفاعل جواب إذا، وجملة إذا صلة الموصول ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿تَفِيضُ﴾: خبره ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية، في محل النصب حال من فاعل

﴿تَوَلَّوا﴾ ﴿حَزَنًا﴾ مفعول لأجله ﴿تَفِيضُ﴾ ﴿ألا﴾ ﴿أن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿لا﴾: نافية ﴿يَجِدُوا﴾ فعل وفاعل، منصوب بـ ﴿أن﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، في محل النصب مفعول ﴿يَجِدُوا﴾ وجملة ﴿يُنفِقُونَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: ما ينفقونه، وجملة ﴿يَجِدُوا﴾ صلة ﴿أن﴾ المصدرية ﴿أن﴾ مع صلتها، في تأويل مصدر، منصوب على كونه مفعولاً لأجله لحزناً تقديره: حزنا لعدم وجدانهم ما ينفقون، فيكون علل فيض الدمع، بالحزن، وعلل الحزن، بعدم وجدان النفقة، ويكون التقدير: وأعينهم تفيض من الدمع لأجل الحزن، لعدم وجدان ما ينفقونه.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾: مبتدأ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب، حال من فاعل ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ ﴿رَضُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، مسوقة لتعليل الاستئذان؛ أي: لأنهم رضوا ﴿بِأَن﴾ ﴿الباء﴾ حرف جر و﴿أن﴾ مصدرية ﴿يَكُونُوا﴾: فعل ناقص، واسمه منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾: خبر ﴿يَكُونُوا﴾ وجملة ﴿يَكُونُوا﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَضُوا﴾؛ أي: رضوا بكونهم مع الخوالف ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على جملة ﴿رَضُوا﴾ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿طبع﴾ ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة تفريعية ﴿هم﴾ مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية، معطوفة مفرعة على جملة ﴿طبع الله﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أبداً، اسم لزمان بعد زمان تكلمك إلى ما لا نهاية له، وهو هنا: لتأبيد النفي ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾؛ أي: لا تقف عليه، ولا تتولَّ دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان، إذا كفاه أمره، وناب عنه فيه،

كما في «الخازن» ﴿أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ والطول: بالفتح، الغنىٰ والثروة، وقد يراد به الفضل والمنة، من طال عليه طولاً، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾؛ أي: دعنا واتركنا، تقول: ذره؛ أي: دعه وهو يذره؛ أي: يدعه، ولا يقال منه: وذر، ولا واذر، ولكنه تركه، وهو تارك، لأنه من الأفعال التي ليس لها مصدر ولا ماض، ولا اسم فاعل.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ رضوا أصله: رضيوا، بوزن فرحوا، استثقلت الضمة على الياء، ثم نقلت إلى ما قبلها، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الياء، فصار رضوا، بوزن فعوا و﴿الْخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة من صفة النساء، وهذه صفة ذم، وقال النحاس: يجوز أن تكون الخوالف من صفة الرجال، بمعنى: أنها جمع خالفة، يقال: رجل خالفة؛ أي: لا خير فيه، فعلى هذا، يكون جمعاً للذكور باعتبار لفظه، وقال بعضهم: إنه جمع خالف، يقال: رجل خالف؛ أي: لا خير فيه، وهذا مردود، فإن فواعل لا يكون جمعاً لفاعل وصفاً لعاقل إلا ما شذ، من نحو: فوارس ونواكس، وهوالك اهـ «سمين».

﴿وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾: وهي جمع خير، فيشمل منافع الدنيا والدين، وقيل: المراد به: النساء الحسان، كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ ومفرده خيرة بالتشديد، ثم خفف مثل: هينة وهينة ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ جمع معذر، من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد، وهو يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له، وقد يكون أصله المعتذرون، من اعتذر، والمعتذر إما صادق أو كاذب، وقال أبو حيان: قرأ الجمهور: ﴿المُعذِّرون﴾ بفتح العين وتشديد الذال، فاحتمل وزنين:

أحدهما: أن يكون فعَّل، بتضعيف العين، ومعناه: تكلف العذر ولا عذر له، والثاني: أن يكون وزنه افتعل، وأصله اعتذر، كاختصم، فأدغمت التاء في الذال، ونقلت حركتها إلى العين، فذهبت ألف الوصل، ويؤيِّده قراءة سعيد بن جبير: ﴿المعتذرون﴾ بالتاء، من اعتذر. وممن ذهب إلى أن وزنه افتعل الأخفش والفراء وأبو عبيد وأبو حاتم والزجاج وابن الأنباري ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ بفتح

الهمزة: سكان البوادي الناطقون بالعربية، والعربي: من نطق بالعربية مطلقاً، سكن البوادي أم لا، فهو أعم من الأعراب، وبكسرها مصدر أعرب الكلام، إذا بين، ويطلق على المعنى المصطلح عند النحاة ﴿كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي أظهروا الإيمان بهما كذباً، يقال: كذبته نفسه، إذا حدثته بالأماني والأوهام التي لا يبلغها، وكذبته عينه إذا أرته ما لا حقيقةً له ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ جمع ضعيف كشرفاء جمع شريف، وهو الهرم ومن خلق في أصل البنية شديد النحافة والضؤولة، بحيث لا يمكنه الجهاد ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾: جمع مريض كجريح وجرحى، والمريض: من عرض له المرض، أو كان زمناً، ويدخل فيه العمى والعرج ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ هم الفقراء ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ يقال: حمله على البعير أو غيره، إذا أركبه إياه، أو أعطاه إياه ليركبه، وكأنَّ الطالب لظهر يركبه، يقول: لمن يطلب منه: احملني ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ أي: تفيض فيضاً، مبتدأ من الدمع، أي: من كثرته وفي «البيضاوي» تفيض من الدمع، أي: يفيض دمعها، فإن ﴿من﴾ البيانية مع مجرورها، في محل نصب على التمييز المحول عن الفاعل، يقال: فاض يفيض فيضاً، إذا انصبَّ عن امتلاءٍ، والدمع ماء العين الملح الحار.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وفي قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ لأن الخوالف حقيقةٌ في الأعمدة التي في أواخر بيوت الحيِّ مجاز في النساء، شبه النساء لكثرة لزومهن البيوت بالخوالف؛ أي: بالأعمدة التي تكون في البيوت، على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية، وقال الآلوسي: الخوالف: النساء المقيمات في دار الحي، بعد رحيل الرجال، ففيه استعارة، وإنما سمي النساء خوالف، تشبيهاً

لهن بالخوالف، وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحيّ، فشبهت لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت، انتهى.

ومنها: الاستهجان والمبالغة في الذم لهم، في قوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾؛ لأن الخوالف: النساء، فكونهم رضوا بأن يكونوا قاعدين مع النساء في المدينة أبلغ ذم لهم وتهجين؛ لأنهم نزلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة، اللواتي لا مدافعة عندهن ولا غنى. ذكره في «البحر المحيط».

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾؛ لأن المراد بالمحسنين: المتخلفون للعذر، وهم الضعفاء والمرضى والفقراء، فحق العبارة أن يقال: ما عليهم من سبيل، وإنما أتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين اهـ «أبو السعود».

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ إلخ؛ لأنهم داخلون في الذين لا يجدون ما ينفقون، ذكرهم اعتناء بشأنهم، أفاده في «روح البيان».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ لأن الفيض مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية؛ لأن الامتلاء سبب للفيض، الذي هو انصباب الدمع بكثرةٍ، فالمجاز في المسند أو الفيض على حقيقته، والمجاز في إسناده إلى العين للمبالغة، كجرى النهر، ذكره في «الفتوحات».

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

شعر

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرَجَّى ... وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِاصْطِبَارٍ ... مَا قَبْلَ هَيْهَاتَ لاَ يَكُوْنُ[1]

(١) وكان الفراغ بحمد الله سبحانه وتعالى، من مُسوَّدة هذا المجلد الحادي عشر، في الليلة الثامنة، أوائل الليل من شهر الله المبارك، شهر شوال، من شهور سنة عشرٍ وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية (٨/ ١٠/ ١٤١٠ هـ) بحارة الرشد بالمسفلة، من مكة المكرمة، زادها الله شرفاً، وختم عمرنا فيها بالإيمان الصادق، والإسلام الكامل، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد، وآله وصحبه وجنده آمين والحمد لله رب العالمين.
تَمَّ بعون الله تعالى وتوفيقه المجلد الحادي عشر، من تفسير «حدائق الروح والريحان؛ في روابي علوم القرآن»، ويليه المجلد الثاني عشر، إن شاء الله تعالى، وأوله قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية، آية رقم (٩٤) من سورة التوبة.
تم تصحيح هذه النسخة بيد مؤلفه في تاريخ (١٧/ ١١/ ١٤١١ هـ).
الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِكْمَالِهِ ... وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَىٰ إِفْضَالِهِ
ثُمَّ صَلاَتُهُ مَعَ سَلاَمِهِ ... عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَخَيْرِ آلِهِ

الفهرس